صرخات لن تنتهي...

© دار الرائديــة للنشــر والتوزيــع، ١٤٤٣ هـ

فهرســة مكتبة الملك فهــد الوطنيــة أثناء النشر

العتيبي، هنادي تركي سفير

صرخات لن تنتهي ، / هنادي تركي سفير العتيبي - الخفجي ١٤٤٣ هـ

ص ؛ ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٩-٢٨-٨٣٦٩-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ. العنوان

ديوي ٨١٣/٠٣٩٥٣١ ١٤٣٣/١١٦٦٨

رقم الإيداع: ١١٦٦٨ / ١٤٣٣

ردمك: ٩-٢٨-٨٣٦٩-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ/ ٢٠٢٣م

دار الرائدية للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الخفجي

0137675272

0550767000

daralraidiah

alraidiah@hotmail.com

www.daralraidiah.com

تصميم وإخراج الكتاب

Mostafa Olwan

www.mostafaolwan.com

Mostafa_Olwany

© **جميع الحقوق محفوظة**. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه أو تخزينه أو نقله بأي شكلٍ من الأشكال؛ دون إذنٍ خطيّ مسبق من الناشر.

رواية

صرخاتٌ لن تنتهي

هنادي تركي العتيبي

دار الرائدية للنشر والتوزيع

الإهـــداء

مستغرقٌ في قراءته، قُبَالــة رفــوفِ كُتبِــه، يحتسـي قهوتـه، يُمسِــكُ بحـبٍّ روايتــه، يتلـذّذ بالأحـرُف عنــد قراءتـه، يُــدوّن علــى الهامـش ملاحظاتــه، يُخطـّـط بقلمــهِ مـا أَرضــى ذائقتـه، يُســافِر مـع الأحـداثِ مُتنعّمًـا برحلتـه، يخـوضُ الصّــراع ويتألّـمُ لأجـلِ شَــخصيّته، ينفعِلُ وكأنّ الحِكايـةَ فِعـلًا حكايتـه!

إلى قارئــي المذُهِـل أُهدِي ما كتبته!

هنادي العتيبي

حنينٌ للأصدقاء

ليلةٌ أخرى من ليالِ نوفمبر المظلمة حيث ما زال الثلج يهطلُ بغزارة وشوارع نيويورك تبدو خاويةً، إلاّ من تلك القطط السوداء الفظيعة!

أخيرًا وصلتُ إلى منزل صديقي چايدن بعد رحلة استغرقت ثلاث ساعات على متن القطار الرّابط بين واشنطن ونيويورك، وقفتُ للحظات وأخذتُ أنظر مذهولًا لذلك البناء الضخم الكبير الماثل أمامي!

حدّثت نفسي بنبرة تتخلّلها الدهشة:

يبدو منزلًا بالغ الجمال والفخامة من الخارج فكيف به من الداخل! تُرى كيف استطاع چايدن أن يجد مثل هذا المنزل في غضون يومين من وصوله إلى هنا؟!

لا بد أنّ شخصًا ما قد أرشده إليه، فأنا أعرف صديقي جيّدًا لا يجيد عمل أيّة شيء إطلاقًا؛ خاصّة ما إذا كان الأمر متعلّقًا بالعقارات والأراضي؛ نعم لا زلت أذكر منزله الذي أقام فيه سلفًا في نيويورك، فلم يكُن هو من عثر عليه وإنّما صديقُنا آرثر هو من وجده، ولم يتردّد حينها في إرشاد چايدن إليه!

فقد كان المسكين - أعني چايدن - آنذاك تائهًا يبحث عن منزلٍ

يستقرُّ فيه بعد زواجه، آه ما أجملك يا آرثر لطالما كنت سبّاقًا في رسم ملامح البهجة والسعادة على أوجه الجميع؛ إنّ ابتسامة چايدن ودموع الفرح التي ملأت عينيه وقتها لا تزال عالقة في ذاكرتي حتى الآن!

ربّاه! لكم انفطر قلبي شوقًا لرؤية أصدقائي!

ولكن لِم الحزن الآن يا مايكل؟ ها أنت ذا تقِف أمام منزل واحدٍ منهم، أعلم تمامًا أنّك تود أن تلتقيهم جميعًا في ذات الوقت، ولكن عليك أن تسعد كثيرًا فعلى الأقل سترى أحدهم بع د لحظات وسنحدّد فيما بعد وبمشيئة الرّب موعدًا مناسبًا للقائهم جميعًا في مقهى «**ستيلا وفلاي**»! لطالما كان هذا المقهى مقرًّا لاجتماعاتنا ومناسباتنا الخاصة...

آه يا إلهي! كم أنا مغرمٌ به فقد احتضنت كل زاوية من زواياه ذكرى جميلة، أذكرُ أنّني ذهبتُ إليه بمفردي منذ نحو شهرين، ولكنّني ما لبثت أن غادرته، نعم غادرته بعد أن أخذت تلك الذكريات الباهتة بالظهور أمام عينيّ!

أعتقد لو أنّ تلك الذكرى التي تجلّت أمام عيني آنذاك كانت تتعلّق بأصدقائي سيكون وقعها أخفُّ عليّ إلى حدٍ كبير، فهم لا زالوا أحياء يُرزقون وسألتقي بهم يومًا ما بلا ريب، ولكن تلك الذكرى كانت مختلفة تمامًا، ذكرى لشخص فارق الحياة منذ أمدٍ بعيد تاركًا خلفه بقايا مؤلمة في أرجاء ذلك المقهى!

لا أُنكِر أنني تردّدتُ على هذا المقهى بعد وفاة ذلك الشخص

بفترةٍ طويلة، ولكنّني لم أكن لأجرأ إطلاقًا على الذهاب إليه بمفردي – باستثناء ذهابي إليه قبل شهرين من الآن – أعترف أن الشوق هو من حملني إليه حينها وليست قدماي.

لطالما اعتدتُ على أن أصطحِب أصدقائي معي عندما أذهب إليه، بل إنني من أرشَدَهم إليه بعد أن كُنّا نجتمعُ في مقهى «**لاكولومبي**» .

نعم أرشدتُهم لأنني لم أكن أريد أن أهجرُ ذلك المكان الذي التقيتُ فيه بتلك الروح الطاهرة البريئة!

أردت أن أكون مخلصًا ووفيًّا للمكان الذي أحبّته واعتادت على الذهاب إليه معي؛ وفي ذات الوقت خشيت أن تلتفّ بي تلك البقايا الأليمة التي لا تزال عالقة في الزوايا، وأكواب القهوة، وحلوى الشوكولا الباردة، وذلك المقعد، وتلك الورود المخملية الفاتنة في وسط الطاولة، وليس هذا فحسب؛ بل إنّ ذكراها قد علقت في كل ناحية من نواحي المقهى إلى درجة أنّني بتُّ أرى ذلك الوجه الجميل الطفولي الهادئ في كل الوجوه وإن كانت لا تشبهها إطلاقًا!

أجل أخشى أن تلتفّ بي ذكراها فتسحق قلبي دون ما رحمة؛ لذلك قرّرت الإشارة لأصحابي إليه، إذ إن وجودهم معي هناك يهوّن عليّ كثيرًا وطأة وتأثير تلك الذكريات، فالصخب الذي يحدثونه حولي كفيلٌ بعض الشيء بأن يشغل فكري وقلبي فيجعلني "**أتناسى**" وليس "**أنسى**" التحديق في تلك التفاصيل الصغيرة المؤلمة!

فما إن ندلف إلى المقهى حتى يبدأون بالثرثرة والضحك والمشاجرة حول نوع قطعة الحلوى التي يجب أن نتناولها سويًّا ومقدار السكر الذي يجب أن يوضع في كوب قهوة كل واحدٍ منّا، بل إنّهم يتشاجرون أيضًا على موقع الطّاولة التي سنجلس حولها بالإضافة إلى تلك النّقاشات التي تدور حول الكتب التي قرأها كل واحدٍ منّا خلال الشّهر الجاري.

جميع هذه الأشياء كانت تصرفني جُزئيًا عن الإبحار في عالم الذّكريات...

***

الضحك الهيستيري

وبينما كنتُ مُنهمِكًا في الحديث مع نفسي واسترجاع ذكريات الماضي شعرتُ بشيء غريب يلامس قدمي، شيء ملمسه أشبه بغطاء من الصوف الناعم، نعم كان ناعمٌ جِدًّا، إلى الحدّ الذي كِدتُ أجزم معه بأنّ رداءً صوفيًّا قد وقع من أحدهم على قارعة الطريق، فالتف حول قدمي أثناء مسيري ولم أشعر به إلاّ في هذه اللحظة!

قلت لنفسي بنبرة ساخرة:

أووه يا إلهي! يبدو أنّ الرّوايات قد جعلت منك شخصية احترافية تغوص في بحر الخيال يا مايكل!

رفعت يدي اليسرى وأصبحت أضغط بسبابتها على جبهتي حتى بات رأسي يهتز ناحية الخلف..

ثم أضفتُ قائلًا:

ها قد أطلقت العنان لهذا الدماغ بتأليف قصّة الرجل الذي سقط منه رداؤه في شارع القطط السوداء، وقد التفّ هذا الرداء مصادفة بأقدام أحد المارة! وماذا بعد! ماذا حدث بعد ذلك يا مايكل! أكان رداءً سحريًّا مليئًا بالخيرات والبركات، بحيث يدُر على مرتديه كمًّا هائلًا من

الكنوز والثروات، أم أنّهُ رداءً مشؤومًا مليئًا بالمتاعب والمهلكات، إذ يفتح لمرتديه أبواب لا تُغلق من الشرّ والحظِّ السيء!

اعتراني صمتٌ مفاجئ للحظات، ولكن سرعان ما ظهرت ابتسامة صغيرة على شفتيّ، وأخذت أنقل نظري تارةً نحو اليمين وأخرى نحو اليسار، دون أن أحرّك رأسي، كنتُ كمن يحاول جاهدًا أن يمنع أمرًا ما من الظهور دون أن يعلم أنه يظهر بتلك الحركات الغريبة بمظهر المهرّج السخيف!

إلاّ أنّ تلك الابتسامة الصغيرة التي ظهرت على مُحيايّ أخذت تتّسع شيئًا فشيئًا، وما لبث أن فغرت فاي ووضعت يدي اليسرى على بطني وانفجرتُ ضاحِكًا!

بدوت حينها كالأحمق المغّفل تمامًا، فكّرت بأنه لو رآني أحدهم على تلك الحالة فلن يتردد أبدًا في الاتصال بالمصحة النفسية لكي يحملونني معهم ويزجّوا بي في سجونهم القاتلة، ويخلّصوا البشريّة من شرّي كما يزعمون!

يا لهُ من مجتمعٍ مفتقرٍ للعدالة! فعندما يضحك المرء مع نفسهِ ومِن نفسهِ، فإنهم لا يبرحوا إلاّ أن يتّهموه بالجنون، وبأن حياته المعقّدة والمليئة بالمشكلات هي السبب الرئيسي في ما يؤول إليه الآن، هم يرون هذا الضحِك هيستيريًا، إذ يُعتبر لديهم بمثابة عرضٍ لأحد الأمراض النفسية!

ولكن أيُشترط وجوبًا وجود شخص بجوار المرء ليُضحِكه! أوَ ليس المرء هو الأولى بإضحاكِ نفسه!

أفَمِن العدالة أن يُطلق على كل شخص يضحك بمفرده مصطلح "**مجنون**" أو "**مريض نفسي**"!

لست أفهم هؤلاء البشر إطلاقًا، الحقّ أنّني لا أنكر وجود ما يسمى "**الضحك الهيستيري**"...

كما وأنّني لا أنكر حقيقة الدور الرئيسي الذي تلعبه مشكلات الحياة اليومية وصعوباتها في الإصابة به؛ ولكن ثمة فرق شاسع جدًّا بين ذلك النوع من الضحك والضحك العادي، إنه لمن الخطأ أن يخلط المرء بينهما فالعديد من النّاس يظنّون بأن الضحك الهيستيري مقترن تمامًا بضحك الفرد مع نفسهِ!

إنّهم حمقى بظنونهم السخيفةِ تلك، إذ إنه ليس شرطًا أن يكون الشخص الذي يضحك بمفرده مصابًا بضحكٍ هيستيري، وليس من المفترض أيضًا أن يضحك الشخص المصاب بالهيستيريا بمفرده!

أعرفُ شخصيًّا أشخاصًا قد أصيبوا بهذا النوع من الضحك المرضي إثر تعرّضهم لصدماتٍ مؤذية سواء فَقْد حبيب، أو خسارة في صفقة ما، وربّما إفلاس وخسائر فادحة في مجال العمل، بل وغيرها الكثير من الأمور المؤلمة، ومع ذلك لم يكونوا يضحكون بمفردهم في كل الأحوال!

نعم هذا ماكنت ألحظه أثناء وجودي معهم، فقد يكون الشخص المصاب هادئًا غارقًا في بحرٍ عميقٍ من الألم والأسى، ولكن بمجرّد أن يتحدّث إليه أحدهم يدخل مباشرةً في نوبات من الضحك الهيستيري الذي قد لايتوقّف بسهولة، وكأن هذا المتحدّث هو من أضحكه!

كما أنّ المصاب بهذا الضحك قد يهذي بكلماتٍ غريبة وفي أحيانٍ أخرى قد يعزف عن الكلام ويكتفي بالضّحك ممّا يدل على دخوله في حالةٍ نفسيّة مؤلمة، بخلاف الشخص الذي يضحك ضحكًا عاديًا ويتكلم بشكل طبيعي جدًّا بعد أن يتوقّف عن موجة الضّحك التي اعترته!

إنّ إطلاق مصطلح "**الجنون**" على هؤلاء الأشخاص وغيرهم مّمن يعانون من مشكلات نفسية يثير انزعاجي جدًّا، بل يجعلني اشتاظُ غضبًا، إذ إنّني لا أؤمن إطلاقًا بوجود شخص مجنون على وجهِ الكرة الأرضية، فالمجنون من وجهة نظري هو من لا عقل لديه كالبهائم تمامًا، أمّا نحن البشر فقد خلقنا الرّب وكرّمنا بنعمة العقل جميعًا، أجل إنّه العقل الذي يجعل المرء يتصرّف بشكل متزن في جميع أمور حياته، كما أنّه لا يوجد أبدًا أيّة بشري يفتقر لهذه النعمة العظيمة...

فكلٌّ مِنّا وُلِد وهو مزوّد بعقل مذهل وإن كان البعض عافاهم الرّب يعانون من بعض الاختلالات البسيطة التي نشأت نتيجة لعوامل معينة تعرّضت لها الأم أثناء فترة الحمل!

ولكنّهم لا يختلفون عن أصحاب العقول السّويةِ أبدًا، بل إنّهم في كثير من الأحيان يفوقون ذوي العقول السليمة ذكاءً ومعرفة، وما داموا يمتلكون عقلًا كغيرهم من بني البشر فلا يحق لأي شخص أن ينعتهم بالجنون مطلقًا!

ما أردت قوله هو أنّ الشّخص المصاب بمشكلاتٍ نفسية شأنه شأن الشخص الذي أقبل على الدنيا ولديه بعض الاعتلالات البسيطة في دماغه!

الأمر هنا خارج عن إرادة كليهما، فالأول ليس له يد فيما جرى له من آلام نفسية، خاصّةً ما إذا كان قد تعرّض في مرحلة الطفولة للكثير من المواقف والذكريات السيئة كتعرّضه للعنف من والده مثلًا أو انفصال الوالدين، بل والمزيد من الأمور المؤثرة التي قد لا تحضرني الآن، وهذا يوحي لنا بكُل تأكيد بأنّه لم يصنع طفولته بيديه وإنّما هي أمور خارجة عن إرادته تمامًا، لذا فإن هذه المشكلات النفسية الأليمة التي يعاني منه المرء؛ ما هي إلاّ تراكمات وصلت لذروتها وبالتالي فاضت على السطح!

وفي الجهة المقابلة، نجد الشخص الذي عاش طفولة سويّة، ولكن متاعب العمل والدراسة والحياة هي التي تسبّبت باعتلال صحته النفسية، صحيح أنّه لم يكن يأبه لأمرها ولم يرعها حقّ رعايتها وذلك بابتعاده عن كل ما من شأنه التأثير عليها من أمور الحياة، إلا أنّنا في

نهاية المطاف؛ نجد العديد من الأمور التي لا يستطيع المرء السيطرة عليها، فهي كفيلة بأن تجعله يدخل في حالةٍ نفسيةٍ سيئة، بل إنّها في أغلب الأحيان تُفقِده عقله، ومن هنا يبدأ الجميع بنعت هذا المسكين بالمجنون!

سحقًا لهم! هو ليس بمجنون! فقد كان عقله على أحسن ما يُرام، كان يمتلك عقلًا سويًّا كعقولهم، ولكن ما مرّ بهِ من صعوباتٍ وصدمات؛ جعلهُ يفقد السيطرة عليه حتى بات يتصرّف بشكل أكثر غرابة!

وكذا الشخص الثاني، أعني الذي أطلّ على هذه الدنيا وهو يعاني بعضًا من الاختلالات البسيطة في الدماغ، الأمر خارج عن إرادته أيضًا، إذ لم يكن بيده أيّة حلول يدفع بها العوامل التي ألمَّت بوالدته أثناء حملها، فهو آنذاك ليس سوى جنين لا حول له ولا قوة، نعم هو لم يختر ذلك لنفسه، ثم يأتي أحدهم ويصفه بالجنون، تبًّا لهؤلاء البشر!

اختتمت حديثي مع نفسي بتنهيدة أسفٍ على حال المجتمع المفتقِر للوعي في هذا المجال!

***

قطّةٌ بيضاء في شارع القطط السّوداء

وما إن أردت متابعة المسير إلى البوابة الأمامية للقصر، حتّى شعرت مجدّدًا بتلك الحركة المُريبة أسفل قدمي، إنّه ذات الملمس الذي أحسستُ به قبل لحظات، ولكنّني هذه المرة لم أطلق العنان لمخيّلتي، بل كُنت أكثر جدّية لمعرفة هذا الشيء وتبيّن ماهيته، لقد انسجمتُ تمامًا في الحديث مع نفسي؛ ممّا جعلني أنسى أمر ذلك الكائن الغريب الملتف حول قدمي!

نقلت نظري ببطء للأسفل، وذهني لا يزال يقذف إليّ بالعديد من الاحتمالات حول ذلك الشيء الغامض، يا إلهي! يبدو أنّ دماغي قد اعتاد الخيال، فحتّى لو لم أعطِه المساحة الكافية للإبحار في خيالاته، فإنّه لا يلبث إلاّ أن يمرّر العديد من الكلمات الخيالية، فلقد كنتُ أشدُّ حزمًا لاكتشاف ذلك الملمس الذي يحاوط بغرابة قدمي اليمنى، ومع ذلك لم يكُفّ عزيزي عن تمرير الكلمات، وشاح صوفي، معطف صوفي، كلب، لعبة طفل مصنوعة من الصوف، خيوط صوف...

ولكن ما إن استقرّ بصري على ذلك الملمس الصوفي الناعم حتّى تلاشت كل تلك الاحتمالات الخيالية من مخيّلتي واتّسعت حدقة عيناي، فبقيت أنظر إلى ما رأيتهُ مدهوشًا!

هتفتُ بنبرةٍ مُتعجِّبة:

مـ .مـ ..مـاذا؟ قطّةٌ بيضاء؟ ماذا تفعل في شارعٍ كهذا يا تُرى؟ إنّه لأمر عجيب حقًّا فهذه القطّة لا تُصدر صوت مواء كبقية القطط!

نعم إنّها قطّة صغيرة «بيضاء»، بدا واضحًا أنّها تشعر بالبرد؛ لذلك التجأت إليّ باحثةً عن دفءٍ تتنعمُ به، وكان معطفي خير ما قد وجدته لتنعم من خلاله بالقليل من الدفء!

فقد كنت أرتدي قميصًا قُطنيًا ذا لون أسود وبنطالًا أسود أيضًا من الخامة نفسها ولم أكتفِ بهما فحسب، بل إنّني وضعت فوقهما معطفًا أسودَ طويل يصل إلى كعب قدمي، كما أنّني قد تدثّرت بوشاح من الريش حول عنقي فضلًا عن تلك القبعة المصنوعة من الريش التي أضعها فوق رأسي، إنّ البرد قارسٌ جدًّا لذلك لا لوم أبدًا على تلك القطة الصغيرة!

أعتقد أنكم تتساءلون الآن، كيف شعرت بملمس القطة بالرغم من كل تلك الملابس التي كانت تغطّي جلدي!

حسنًا، ماذا لو أخبرتكم بأنّني لا أُحَبِّذ ارتداء البناطيل التي تغطّي الساق بأكمله؟

قد أبدو غريب الأطوار قليلًا، ولكنّها الحقيقة، فعندما أذهب للتسوّق وشراء ملابسي، فإنّني أبحثُ عادةً عن تلك البناطيل التي يكون فيها جزء من الساق مكشوف بحيث تكون مثنية من أطرافها!

لهذا السبب شعرت بملمس القطّة؛ إذ إنه ثمة مكان في بنطالي يظهر من خلاله جزء من جلدي، فكانت كلّما تحرّكت لامس ذيلها الطويل ساقي، وبهذا تمكّنت من تحسّسِ ملمسها، ولكن لم يخطر ببالي إطلاقًا أنّها قطّة، فهي لم تصدر أيّة مواء وهذا محيّرٌ إلى حدٍ كبير!

حقًّا إنّها قطّةٌ غريبة، صحيح أنّ شوارع نيويورك مليئة بقدْرٍ لا يُستهان بهِ مِن قِطط الشّوارع وخاصّةً ذوات اللون الأسود إلاّ أن الأمر في هذا الشارع خاصّة مختلف تمامًا حيث يطلق عليه معظم الأهالي هنا «**شارع القطط السوداء**»!

فهو مليء بمئات القطط السوداء المُخيفة، إذ إنه من النادر جدًّا أن يرى المرء فيه قطّةً بيضاء كهذه، نعم إنهُ مليء إلى الحد الذي يجعلك تجزم معه بأنك تتجوّل في مدينةٍ للقطط السوداء، مدينةٌ للقطط.. أوووه ربّاه ها قد عدنا للخيال مجدّدًا!

نظرت إلى ساعتي ثم **هتفت بحدّة وقد وضعتُ يدي على رأسي**:

آه يا إلهي! لقد تأخرتُ كثيرًا عن موعدي مع چايدن، فعلى الرغم من أنّني وصلت إلى هنا في تمام الساعة السابعة؛ إلّا أنّ الساعة الآن تُشير إلى الثامنة إلّا ربع، آه كم أنا أحمق! فلستُ أستلذّ الحديث مع نفسي وأحبّذه إلّا عندما أكون مُرتبطًا بموعدٍ ما مع أحدهم!

حملتُ القطّة بيدي اليسرى وأمسكتُ مظلّتي بيدي اليمنى، فقد أردت أخذ الإذن من چايدن بإطعامها ورعايتها في منزله وإن كنت

أشعر بأنها ليست قطةً طبيعيةً أبدًا، ولكنّني أردتُ فعل الخير على أيّة حال!

أسرعتُ فورًا إلى البوابة الأمامية للقصر، وما إن عبرت خلالها حتّى علت صرخة حادة غليظة صاخبة من مكانٍ ما، سحقًا لها فقد أفزعتني! أفزعتني فقط؟

بل كادت أن تودي بحياتي، إذ إنها صدرت على حينِ غفلةٍ منّي ممّا جعلني أقفز بعُنفٍ في مكاني وأشهقُ شهقة المودّع للحياة!

***

الحارس فوستر

شعرت بنبضات قلبي تتسارع بشدّة، تتسارع إلى تلك الدرجة التي تيقّنتُ معها بأنها ليست سوى لحظاتٍ معدوداتٍ ويقفز قلبي من بين قضبان القفص الصدري المُحيطةِ به، أخذ صدري يعلو ويهبط، بل إن أنفاسي بدأت تتلاشى شيئًا فشيئًا؛ حتى ظنَنتُ أنّني اختنقت!

بقيت متصلّبًا في مكاني دون أيّة حراك، فلم أكن أمتلك من الشجاعة ما يؤهلني للالتفات نحو مصدر الصوت إطلاقًا!

كما أنّ قدميّ قد خانتاني إذ لم تسعفاني لأركض نحو بوابة القصر حيث بدتا وكأنهما قد أصبحتا أسيرتين في مكعباتٍ من الثلج الصّلب المتسلّط الذي لن يطلق صراحهما حتى يرى النور!

نعم، أعني أنّه لن يعلن استسلامه ويبدأ بالذوبان حتّى يرى أشعة الشمس الدافئة حينها فقط سيمنح أسراه بطاقة الحرّية الصفراء!

ولكن سرعان ما سيطرت عليّ رغبة في الالتفات، الحق أنّني أردتُ الالتفات؛ لكي أُطمئن نفسي بأنه لا يوجد ما يخيف على الإطلاق، وفي ذات الوقت لم أكن أريد ذلك، فقد كنت أخشى أن أرى شيئًا يفقدني عقلي!

سحبتُ نفسًا عميقًا محاولًا تهدئة نفسي، وماهي سوى لحظات حتّى **سمعت همسًا يتردّد صداهُ في أعماقي**:

ما الذي دهاك يا مايكل! إلى متى ستظل واقفًا هكذا بلا حراك! لقد تأخرت كثيرًا عن موعدك مع صديقك! إن بقيت على هذه الحال فسيغضب منك بلا شك! ألا يكفيك أنك تأخرت عن الموعد ساعةً إلّا ربعًا!

عليك أن تستجمع شجاعتك حالًا وتلتفت إلى مصدر الصوت فلربّما أراد أحدهم أن يرشدك إلى أمرٍ ما! هيّا تشجّع ليس ثمة ما يُخيف!

لقد قرأت في كتبٍ عديدةٍ في مجال تطوير الذات أنّه لابد للمرء أن يستمع لصوته الداخلي؛ لذا قرّرت أن أنصت إليهِ جيّدًا هذه المرّة وأتّبع ما يمليه عليّ بكل رضا واطمئنان وتسليم!

حانت منّي التفاتة سريعة إلى مصدر الصوت الذي كان قادمًا بلا شكٍ من الجهة اليمنى لحديقة القصر، آه لا أعتقد أنّ بإمكاني أن أصف لكم الأصوات الغريبة التي أصدرتها رقبتي حال التفاتتي، لقد كانت شبيهة بتلك الأصوات التي تصدرها أقدامنا وأيدينا إذا ما بقيت فترة طويلة دون أي حراك، ولكن ماذا عن الرقبة!

لا أعلم تمامًا إن كنتم قد مررتم بمثل هذه الحالة من قبل، ولكنّها تعتبر جديدة ومخيفةً بالنسبة لي، لا زلت عاجزًا عن استيعاب الأمر، فقد بدت رقبتي وكأنّها لم تتحرّك منذ زمنٍ طويل، على الرغم من أنّني

كنت أحرّكها يُمنةً ويُسرى عندما كنت أتحدّثُ مع نفسي قبل لحظات!

أجريتُ جولةً سريعة ببصري حول مصدر الصوت الأجشّ الذي أرعبني لعلّني أجدُ صاحبه - متجاهلًا الأصوات التي ما زالت تنبثق من رقبتي - وما إن وقعت عينيّ على شخصٍ ما، حتّى بحركة تلقائية وسريعة ابتعدت عنه، ما الأمر؟ إنّه هناك!

ولكن سرعان ما سيطرت عليهما وأعدتهما حيث كان يقف ذلك الشّخص!

لقد كان ذلك الرجل يقف على عتبةِ حُجرةٍ صغيرة تقع في أقصى الجهة اليمنى من الحديقة، فأدركتُ على الفور أنّها غرفة الحارس، ولكنّها بدت حجرةً مريبة حيث كانت تغطّيها مجموعة من الأشجار الضخمة فلا يكاد المرء يرى منها سوى بابها الحديدي!

نظرَ أحدُنا إلى الآخر نظرات مُبهمة خالية من أيّة تعبير، وفي ذات اللحظة قفزت تساؤلاتٍ عدّة في ذهني، ماذا يريد؟ يا تُرى لِمَ صرخ تلك الصرخة الرهيبة؟!

وبينما كُنت شاردًا غارقًا في البحث عن إجاباتٍ لتساؤلاتي، قفزتْ القطة التي كنت أحملها واستقرّت على الأرض، فقد بدت وكأنّها مذعورة من أمرٍ ما، فأفقتُ فورًا من شرودي، وما إن عاودت النظر إلى ذلك الحارس حتى رأيتهُ يتقدّم نحوي بخطواتٍ ملؤها الحذر والاحتراس الشديدين، اقترب منّي على مضضٍ وهو يتفحّصُني بعينين

يقيظتين لا تنقصهما الحدّة مُطلقًا!

لقد كان رجل في مطلع السبعين من عُمرهِ، هذا ما بدا لي من هيئته الضخمة، والشعر الأبيض الذي كان يغطّي لحيتهُ، فضلًا عن تلك التجاعيد التي بدت كالحفر العميقة أسفل عينيه، وما إن انتصب أمامي مُباشرة حتّى أدخل يدهُ في جيبه وأخرج منه مسدّس من نوع **ماوزر** وأشار به في وجهي!

بقيتُ أنظر إليه بهدوءٍ على غير عادتي، كما أنّ علامات الدهشة والذهول قد بدت واضحةً جليّةً على ملامح ذلك الحارس، أعتقد أنّه قد تعجّب من صمتي وعدم إبدائي لأيّ ردّة فعل تجاه تصرّفه...

الحق أنّني دُهِشت من نفسي أيضًا، فقد كنتُ ثابتًا ساكنًا تمامًا على الرغم من الهلع المفرط الذي ينتابني عادةً عندما أرى مثل هذه الأسلحة؛ إلاّ أنّني في هذه اللحظة تحديدًا بدوت وكأنّني شخصٌ آخر، شخصٌ لا أعرفهُ أبدًا!

وبعد لحظات من الصمت المهيب، قرّر ذلك الرجل أخيرًا أن يتحدّث، **فقال بصوتٍ حاد، بل ومزعج في الوقت ذاته:**

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

أجبته فورًا وقد ارتسمت على مُحيّاي ابتسامة صغيرة:

- لقد دعاني سيّدك لزيارته هذه الليلة، لعلّهُ لم يُخْبرك بذلك!

أنزل سلاحهُ فورًا وقد أحمرّ وجههُ خجلًا من تصرفه السّاذج معي قبل قليل، ثم مضى **يقول بنبرةٍ لطيفةٍ مُرحِّبة:**

- آه، إذًا أنت القبطان مايكل، مرحبًا بِك يا سيّدي، لقد أنرتَ المكان بقدومك، كلّا ليس الأمرُ كما تظُن؛ فقد أخبرني سيّدي أنّك قادِمٌ إلينا هذه الليلة، ولكن .. ولكن كُل ما في الأمر أنّك أثرت شكوكي بوقوفك الطويل أمام البوابة الأمامية؛ فقد كُنت أراقبكَ منذ أن وصلت إلى هُنا، ثُمّ إنّك أثرت ريبتي أكثر عندما دخلت إلى الحديقة خِلسة!

أرخى رأسه وصمت للحظات **ثم أردف قائلًا:**

- اعذرني يا سيّد على وقاحتي، ولكن كان ينبغي عليك أن تقرع الجرس الخارجي للقصر، صحيح أنّ البوابة كانت مفتوحة، ولكنّ هذا لا يعني أن يتجاوز الواحد منّا حدوده ويدلف إلى البيوت بلا استئذان فإنّ لها حرمتها على أيّة حال، لستُ أعلم تمامًا أغاب الأمر عن ذهنك حينها، أم أنك قد رأيت بأنّه لا حاجة لذلك بما أنّ الدار دارُ صديقك، أكرّر اعتذاري يا سيّد فأنا هنا لستُ سوى عبدٌ مملوك ينفّذ الأوامر فحسب!

قلتُ بنبرة ممتلئة بالهدوء واللا مبالاة:

- ربّما..أعني..ربّاه! ماذا كنت سأقول؟ نعم أردت القول أنّه ربّما غاب قرع الجرس عن ذهني!

أومأ برأسه، **وقال بنبرة مُتفلسفة:**

- لا بأس عليك! فعادةً ما يغيب أمرُ قرع الجرس والاستئذان عن أذهان البعض، يا سيّد مايكل إنّ الشخص الذي لا يطلب الإذن قبل دخوله ليس بالضرورة أن يكون شخصًا سيئًا؛ فمن الممكن أن يكون شاردًا في أمرٍ ما من أمور الحياة المُضنية؛ مّما يجعله يغفل تمامًا عن فعل ذلك!

كما أنَّه قد تنتاب المرء أحيانًا لحظات يسير فيها بشكل لا إرادي فهو ليس بشارد الذهن الغارق في مشكلات الحياة، وليس بحاضر الذهن الذي يتميّز بخلو عقله من كل ما يكدره، تجده في المنتصف لا إلى هذا ولا إلى ذاك!

فحالما تراه تشعر وكأنه آلةٌ صمّاء يتحكّم بها شخص ذا سُلطة فهو لا يملك من أمره سوى السّير نحو وجهته المحدّدة، الحقيقة يا سيّد مايكل أنّني حاولتُ مِرارًا إيجاد تفسير لتلك الحالة التي لطالما كنت ألحظها في الكثير من الضيوف الذين كانوا يتوافدون إلى سيّدي الذي كنتُ أعمل لديه سلفًا، ولكن دون جدوى، فلم أتوصّل لأي نتيجة مُقنِعة!

قلتُ – وقد انحنيت إلى الأسفل لأحمِل القطّة التي بدا واضحًا أنّها هالكةٌ من البرد والجوع لا محالة – :

- المعذرة، ولكن ألا ترى بِأنكَ تُبالغ قليلًا يا عزيزي، أقصد أنّ الباب الأمامي المفضي إلى الحديقة مفتوحٌ دائمًا!

فماذا تراها تعني البوابة المفتوحة لكل شخص يراها؟ نعم كل شخص أيًّا كانت صلته بچايدن، جارًا كانَ أم صديقًا، ولربّما ضيف أو عابر سبيل، بكل تأكيد تعني أنّهُ بإمكانكم الدخول دون قرع الجرس!

"لماذا اختُرِعت الأجراس؟"

أعتقد بأنّنا لو سألنا أنفسنا هذا السؤال لبدا الأمر أكثر وضوحًا، وتبيّن أنّنا كُنّا نفكّرُ بطريقةٍ خاطئةٍ جدًّا، والأدهى من ذلك هو أنّنا نعتب ونسخط عندما نرى أحدهم يدخل من البوابة دون أن يقرع الجرس!

حسنًا إن جواب هذا السؤال سيكون بكل تأكيد وبلا أدنى شك "**تنبيه أهل المنزل بوجود زائر في الخارج يرغب بالدخول أن افتحوا له الباب**" وأنتم هنا باب حديقتكم مفتوحٌ للجميع!

إذًا أخبرني باللّه عليك! ما هي الفائدة من قرع الجرس؟ لا تضخّم الأمر يا رجل فأنت المخطئ في نهاية المطاف، تترك الباب مفتوحًا هكذا ثم تأتي وتلقي اللوم على كل من دخل ولم يقرع الجرس!

لا تكُن ساذجًا، فالنّاس عادةً يضعون الأجراس ليتسنّى استعمالها عندما يكون الباب مغلقًا وليس مفتوحًا!

أضِف إلى ذلك أنّ الباب الداخلي الخاص بالقصر مغلقًا، وبهذا لن يستطيع أي شخص تمكّن من عبور البوابة الأمامية من الدخول إلى القصر قبل أن يؤذن له بذلك، فاطمئن..!

اختفى صوتي فجأة فتنحنحت فورًا محاولًا استعادته، وما إن

استعدته حتّى **أضفتُ بنبرةٍ ساخرة:**

- أرى أنك تخاف كثيرًا، بل تحمِلُ سلاحًا أيضًا، مع احترامي يا سيّد، ولكنّك تبدو مثيرًا للضحك! من يراك هكذا يظنُّ بأنّك ما تزال عائشًا في زمن الحروب والسطو على المنازل!

ثُم إذا ما كُنت شديد الهلع هكذا، لِمَ لا تُغلِق البوابة وتُريح رأسك!

أنهيتُ حديثي ومع ذلك بقي ذلك العجوز يتأملني بشكلٍ مريب، كنتُ قد لاحظت تلك النظرات العجيبة التي ظلّ يرمقني بها منذ أن بدأت الحديث، كما أنّني قد فهمت المغزى من ورائها، ومع ذلك تظاهرت بالغباء وعدم الفهم، يبدو أن ذلك الحارس الخَرِف لا يعلم تمامًا أمام من يقف!

أعترفُ بأنني شخصيّة شديدة الملاحظة، إذ لا تفُتني إطلاقًا تلك التفاصيل الصغيرة لدى مستمعي وكذا محدّثي!

وبالرغم من انشغاله بالتفكير بذلك الأمر – الذي ظنّ هذا المعتوه بأنّني لم أتمكّن من قراءته في عينيه – إلّا أنّه كان يصغي باهتمامٍ لكل كلمة نبست بها شفتاي والدليل على ذلك **ما قاله عندما أفاق من تأمُّلِه:**

- يا سيّد مايكل أنا لم أُلقِ باللوم على أحد كما أنّني لستُ مخطئًا في تفكيري، ولكي أكون صادقًا معك فأنا لا أؤيد بتاتًا انحصار استخدام الأجراس على الأبواب المغلقة فقط!

لن أخوض كثيرًا في هذا الأمر، فإذا ما فعلتُ ذلك فإنّني سأدخُل

معك في حوارٍ عقيم؛ حوار لا فائدة تُرجى منه إطلاقًا، ولا سيما أنّ كل واحدٍ منّا متمسِّك بقناعاته الخاصة!

ابتلع ريقه على حين غفلةٍ، **ثم أكمل**:

- وإيّاك يا سيّدي أن تظُنّ بأنّني المسؤول عن فتح الباب وإغلاقه، فلو كان لي من الأمر شيء لكُنت أغلقتُه وأرحتُ بالي!

ولكنّ الأمر كلّه بيد السيّد چايدن، فهو الذي أمر بترك البوابة الأمامية مفتوحة على الدوام، تحدّثتُ معهُ كثيرًا بهذا الشأن، كما أنّني حاولتُ إقناعه بتزويد أسوار القصر بأسلاكٍ كهربائية؛ إذ إنّ إغلاق البوابة وحدها ليس كافيًا!

ولكن دون جدوى لم يقتنع مطلقًا بكلامي، فقد كان يقول لي في كُل مرّة: "**أووه يا عزيزي فوستر! الحذر الزائد مُميت، وبما أنّ الباب الزجاجي للقصر مغلق فلن يتمكّن أيّ امرئٍ من الدخول، حتى لو تمكّن من عبور الحديقة**".

قد ترى أنّ كلام صديقك عين المنطق والصواب، فهو مماثلٌ تمامًا لكلامك قبل لحظات، ولكنّكما في نهاية المطاف لا تنظران إلى الأمر من الزاوية التي أنظر إليه من خلالها! يا سيّدي العزيز، أنا كما ترى رجلٌ كبيرٌ في السّن، وعادةً ما يغلِبُني النُّعاس في أوقاتٍ مُبكِّرةٍ من الليل إلاّ أنّني أتحامل على نفسي وأظل متماسكًا، ولكن ما إن ينتصف الليل تخورُ قواي فأستسلم مباشرةً لنومٍ عميق من غير أن أشعر، حينئذٍ من

تراه سوف ينوب عنّي في حراسة المكان؟

لا أحد بالطبع! حينها سيبقى المكان خاويًا ومهيّئًا تمامًا لكل من أراد التسلّل إلى القصر من المغفّلين واللصوص، صحيحٌ أنّ الباب الزجاجي مغلقًا كما تقولان، ولكن جميعنا يعلم بأن للمجرمين واللصوص طرقهم الاحترافية في فتح الأبواب المؤصدة بهدوءٍ دون أن يتنبّه لذلك أهل الدار، ولا تنسَ يا سيّدي العزيز بأنّ الباب الداخلي مصنوع من الزجاج، وهذا سيجعل مهمة الأوغاد أكثر سهولة ويسر!

ولكنّنا إذا ما أغلقنا البوابة الأمامية حديدية الصنع، بأقفالٍ كبيرة يصعُب فتحها لمن أراد التسلّل، ووضعنا تلك الأسلاك الكهربائية على الأسوار؛ فإن الأمان سيعُم أرجاء القصر وسأحظى شخصيًّا بالراحة والنوم خلال ساعات الليل الطويلة!

توقّف فجأةً، وأخذ يفتح الأزرار الثلاثة الأولى لمعطفه، ثم سحب نفَسًا، بدا واضحًا أنه قد اختنق من ذلك المعطف الذي دُفِنت فيه رقبتهُ دفنًا، **ولكنّه ما لَبِث أن أضاف**:

- آه حسنًا ربّما قلت في أعماقك قبل لحظات بأن صديقك قد ارتكب خطأً فادحًا بتوظيفه لحارسٍ عجوزٍ مثلي، لا يكاد يستغني عن النوم كمتطلب أساسي للحفاظ على صحته!

وربّما قلتَ أيضًا أنّهُ كان من الأجدر بصاحبك أن يوظّف حارسًا في مقتبل العمر؛ إذ أنّ الشبابَ أكثر حيويةً ونشاطًا، كما أنّهم يفضّلون

السهر على نوم الليل ...

كُنت أستمع إليه وأنظر بأسى إلى حذائي الجديد الذي قد تلوّث بالوحل؛ ولكنّني سرعان ما رمقتُه بنظرةٍ مليئةٍ بالدهشة والتّعجب عندما قال بكُل بساطة ما كان يجولُ في أعماقي، سُحقًا كيف استطاع هذا العجوز الأخرق قراءة أفكاري!

نظر إليّ بإمعانٍ شديد، **ثم مضى يقول:**

- دعني أُخبرك شيئًا يا سيّدي...

اقترب منّي أكثر وحدّق بي فتراجعتُ فورًا إلى الخلف، **ثم أشار بسبابته قائلًا:**

- حتّى لو وظّف السّيد چايدن حارسًا شابًا كما قلت فلك أن تعلم بأنّ هذا لن يغيّر من الأمر أيّ شيءٍ يا عزيزي ، وستظل المشكلة قائمة وربّما تفاقمت وازداد الوضع سوءًا ، فهؤلاء الشباب الذين تضعون الأمل فيهم ليسوا صالحين أبدًا لتولّي أمر على قدر عظيم من المسؤولية كالحراسة؛ فهم لا يأبهون لأية شيء على الإطلاق، وكُل ما يُفكّرون به هو الكيفية التي سيقضون بها ساعات الليل الطويلة سواء أكانت بمشاهدة الأفلام، أو سماع الموسيقى الصاخبة التي تمنع المرء عادةً من سماع ما قد يجري حوله من تحركات مريبة، أُجزم لك بأنّهم قليلوا الملاحظة وهذا يعني أنّهم لن ينتبهوا لأدق التفاصيل التي قد تحدث أمام البوابة ، ثمّ إنّ...

قاطعتهُ بسرعة قائلًا:

- رُبّما كُنتَ مُحِقًّا في ذلك!

انفصلتُ عن ذلك الحارس المُمل في محاولة للتملُّص من حديثٍ باهت قد اكتساهُ الملل حتّى بات من طرفٍ واحدٍ فقط، مُعتذرًا بأنّني قد تأخرتُ عن موعدي مع صاحبي چايدن الذي فتح الباب الزجاجي للتّو وراح يلوّح لي بسرور من هناك!

***

التقاء الصّديقين

فقدت السيطرة على نفسي تمامًا عندما رأيت وجه صديقي الباسم ولنقل أنّني استسلمت لمشاعر السعادة التي غمرتني حينها، نعم استسلمت إلى الحد الذي بدوت فيه كطفلٍ مُدلّلٍ يحمِل قطّته الصغيرة بين يديه ويركض باتجاه مسكنه وملاذه الآمن!

لطالما كان چايدن ملاذي وملجأي، سكني ومسكني الممتلئ بالنور والكثير من الطمأنينة بعد الرّب جلّ جلاله.

صعدت الدرجات الثلاث المفضية إلى القصر بلهفةٍ شديدة، فقد كنت مشتاقًا جدًّا لرؤيتهِ ومعانقته والتّحدث إليه، بل والجلوس معه لزمنٍ طويل أيضًا، نعم زمن لا ينتهي!

وما إن وصلت إليه حتى أحاط كتفي بيده، وأدخلني بسرعة إلى القصر وأغلق الباب، فقد كان الجوّ في الخارج شديد البرودة، فضلًا عن حبّات الثلج الصغيرة التي لم تتوقّف عن الهطول منذ أن وصلت إلى نيويورك!

وفور دخولي ألقيت بمظلّتي ذات اللون الرّمادي في سلّة المظلّات المجاورة لدولاب الأحذية ومن ثمّ انحنيت بهدوء إلى الأرضية لأضع

تلك القطة المسكينة جانبًا؛ ريثما أُنهي عناقي واحتفائي بصديقي چايدن!

نزعتُ وشاحي الذي كُنت أضعهُ حول رقبتي وغطّيت به القطّة الصغيرة، وما إن نهضت مُجدّدًا؛ لأُعانِقَ ذلك الصديق الذي لم ترهُ عيناي منذ ثلاث سنوات حتى فوجئت بعينيه الغارقتين في دمعها!

قلت بعد أن اقتربت مِنه وأمسكت بيديه:

- چايدن ما بِك! چايدن ها أنا ذا مايكل أمامك فَلِمَ البُكاء يا صاحبي؟

لم يُرِد أيّة جواب عن سؤالي، وإنّما أخذ يمسح الدمع المُنهمر من عينيه الزرقاوين على وجنتيه بطرفِ كمِّ معطفه!

بقيت أتأمل عينيهِ الباكيتين المُرهقتين؛ لعلّهما تخبرانني شيئًا ممّا قد لا يستطيع أن ينطق به لسانه، أجل كانت عيناهُ تتحدّثان إليّ وإن لم ينطق لسانه، فقد حدّثتني عن حرارة الدّمع الذي ظلّت تسكبهُ إثر حُزن صاحبها، حدّثتني أيضًا عن تلك الهالات السوداء التي أحاطت بها نتيجة سهر ليالٍ طويلة من الفقد والاشتياق والغُربة.

حاولتُ الإنصات للمزيد مِمّا قد تحكيهِ لي، ولكنّ عيناي ما لبثت أن غرقت بدمعها هي الأخرى أيضًا!

وما إن رآني چايدن أذرِف الدمع حتى شدّني إليه وعانقني بحرارةِ عناق الأب الذي لم يرَ ابنهُ المسافر منذ أمدٍ بَعيد!

قال بصوتٍ مُرتجِفٍ وهو لا يزال يحتضنني:

- أرجوكَ يا عزيزَ صاحِبك إهدأ! إنّك تقطع نياط قلبي ببكائك هذا! ثم من ذا الذي كان يُسكِّنني قبل لحظات!

رفعت رأسي الذي كُنت أضعهُ على كتفه، وابتسمتُ ابتسامةً حزينة مختلطة بدموع الشوق والحنين، **فأجبتُه بصوتٍ مبحوح**:

- فلتهدأ أنت أولًا حينها أنا سأهدأ!

ابتسم ابتسامة حنونة ثم قال:

- ما تزال طِفلًا كما تركْتُك يا مايكل، لطالما عَشِقت الجانب اللا منطقي والطفولي من شخصيتك.

وضع كفّيه بحنانٍ على وجنتيّ مُكفكِفًا الدّمع عن عينيّ بأصابعه الدافئة، **ثم تابع حديثهُ قائلًا**:

- إيّاك أن تُغرِق هاتين العينين الجميلتين بالدموع مُجدّدًا، ويحك إن أمسكتُ بك يومًا ووجدتُك تُرهقهما بالبكاء، لن أغفِر لك حينها أتفهمُ ذلك!

وما إن قال جملتهُ الأخيرة تلك حتى أعادني إلى صدره مرّةً أُخرى، آه يا إلهي، لا أظنُّ أنّ بإمكاني أبدًا وصف السكينة والطمأنينة التي أشعرُ بها حينما أرتمي إلى أحضانِ صديقي، لم يكن چايدن رفيق قلبي فحسب، بل كان لي الأب والأم، الأخ والأخت، بل إنّني أُجزمُ بأنّه

عوضًا جميلًا تكرّم به المولى جلّ جلاله عليّ، ليعوّضني دفء العائلة الذي لم أشعُر به منذ أن فتحت عينيّ على هذه الدُنيا!

تذكّرتُ القطّة المسكينة فرفعتُ رأسي الذي كُنت أدفِنهُ في صدر صاحبي، **وهتفتُ**:

- ربّاه! القطّة.. القطّة.. أرجوك يا چايدن! إنّها تكادُ تهلك من البرد والجوع، لقد أردتُ أخذ الإذن منك بإطعامها وإيوائها هُنا فهلّا سمحت لي!

ضحك چايدن بِعُنف وهو يضعُ يدهُ على معدتِه وينحني عليها وكأنّهُ يعتصِرُ ألمًا مِنها:

- إنّك تُضحِكُني أيّها الأحمق، ألم أقُل لك بأنّك ما تزال طفلًا، وليس أيّ طفل، بل طفل يعشق اقتناء وتربية الحيوانات الأليفة!

احمرّت وجنتيّ خجلًا من الموقف الذي كنت قد وضعت نفسي فيه أمام صاحبي، فقد كان مُحِقًّا في كلامه، إذ أنّني بدوت فعلًا كالطفل الشغوف بتربية الحيوانات!

وضعتُ سبابة يدي اليمنى بمحاذاة الأخرى في اليد اليسرى، ثم **قلتُ محاوِلًا تدارك الأمر**:

- إنّ العناية بالحيوانات ليست محصورةً بعُمرٍ محدّد يا صديقي، فهناك الكثير ممن قد تجدهم يهتمّون بمثل هذا الأمر من البالغين والراشدين ولا تنسَ كبار السّن أيضًا كما أنّ...

اتكأ بيده على دولاب الأحذية وانفجر ضاحِكًا قبل أن أُنهي حديثي فبقيتُ أنظرُ إليهِ مدهوشًا فأنا لم أقُل بتاتًا ما يُثير الضّحك، رمقني بنظرةٍ سريعة وهو يتمايل يمينًا ويسارًا من شدّة الضحك، **ثم قال:**

- **دعكَ** أيُّها الطفل المُدلّل مـ .. من هؤلاء النـ.. اس، احم احم النَّاس، يا إلهي! إنّني أكاد أفقدُ صوتي من شدّة الضحك، صحيحٌ أنّهم يهتمّون برعاية الحيوانات أقصد أولئك البالغين والراشدين وكبار السن الذين أشرت إليهم قبل قليل، ولكنّهم لا يتصرّفون في نهاية المطاف بشكلٍ مشابهٍ لتصرفاتك الطفولية، فهم على سبيل المثال لا يفزعون ولا يصرخون إذا ما نسوا إطعام قططهم وتدفئتها أليس كذلك يا طفلي!

رمقتهُ بنظراتٍ غاضبة **وقلتُ بنبرةٍ مُنزعِجة:**

- كفى يا چايدن كُفَّ عن مُناداتي بالطفل، أودُّ إخبارك بأنّك تُثيرُ غضبي بقولك هذا إن كنت لا تعلم!

فتح دولاب الأحذية وأخرج خفّين أسودين من بين مجموعة كبيرة من الأخفاف القطنية الملوّنة والتي تُرتدى عادةً داخل المنازل ثمّ وضعها أسفل منّي **وهو يقول:**

- أحقًّا غضِبت يا حبيب صديقك؟ هذا سيءٌ جدًّا، لقد كنتُ أُداعِبك فحسب، إذ أنّني لا أحتمِل البتّة أن أرى صاحبي "**الطفل**" غاضبًا منّي.

وسرعان ما أطلق ضحكة عالية تردّد صداها في أرجاء المدخل الذي كُنّا نقِفُ فيه، لقد بدا چايدن مُستفزًّا على غير عادتِهِ ومع ذلك كان قلبي يتراقص فرحًا بعودة الابتسامة إلى مُحيّاه، وبسعادةٍ بالِغةٍ **قلتُ في أعماقي**:

- فلتضحك ولتسعد ولتفعل ما يحلو لك أيُّها الصاحبُ الوفي!

تقّدمتُ باتجاه الكرسي الخشبي الموجود بجانب الدولاب فجلستُ عليه وأخذتُ أفتح رِباط حذائي ذا اللون الرّمادي الذي كنت قد أسِفتُ عليه جدًّا؛ لِتلوّثه بالوحل والأعشاب، أخرجت قدميّ منه وأدخلتُهما مباشرةً في الخف الصوفي المُقدّم إليّ من قِبل چايدن الذي لم أعُد أسمع قهقهته، فرفعتُ بصري في الحال لأرى السّر وراء خفوته المفاجئ، فإذا به قد حَمَل القطّة بين يديه وراح يمسحُ بِرفقٍ على رأسها!

ابتسمتُ لِمَا رأيتهُ، **ثم قلت**:

- وماذا بعد؟ ها قد ارتديت الحذاء، ألن تصحبني إلى الداخل الآن يا چايدن؟

رفع نظرهُ إليّ، **ثم قال بنبرةٍ مُعاتبة**:

- ما هذا الكلام يا رجُل؟ الدارُ دارك تستطيع أن تتحرّك فيها كيف ما شئت ومتى ما شئت، هل كلامي واضح؟!

انحنى وأعاد القطّةَ إلى مكانها الذي كُنت قد وضعتها فيه ثم رفع

رأسهُ إليّ **وهو يقول**:

- مايكل يا صديقي، أأُعيد إليك وشاحِك أم أغطّي به القطّة؟

هززتُ رأسي بالنفي، **وسرعان ما أضاف قائلًا**:

- إذًا سندعها هُنا الآن وسأُرسِل الخادمة بعد لحظات لتحمِلها إلى الداخل وتطعمها، طبعًا إن كُنت لا تُمانع في ذلك.

قلتُ وقد نزعت قُبعتي التي كنت أضعها فوق رأسي:

- بالتأكيد، ولكن أرجوك يا چايدن قُل لها ألّا تتأخر، أخشى أن تفارق هذه القطّة الضعيفة الحياة حينها سيؤنبني ضميري كثيرًا، إذ إنّني لم أتمكّن من تقديم العون لها!

قلتُ جُملتي الأخيرة عندما أمسكني چايدن بيدي وقادني عبر ممّر ذو إضاءة هادئة مُريحة تبعث على النّوم، لا أنكُر أنّني شعرتُ حينها برغبة عارمة في الاستلقاء والخلود إلى النوم، كما أنّ ذلك المّمر كان شبيهًا إلى حدٍ كبير بِممرّات معارض اللوحات الفنية، إذ كان يزخر باللوحات الفنّية التي عُلِّقت على جُدرانه من كُلِّ جانب، في الواقع أنّني لم أكُن من هواة الفن؛ لذلك لم تُثِر تلك اللوحات إعجابي واهتمامي، فقد اكتفيت بالمرور عليها بعينيّ مرور الكرام دون أيّة دهشة أو حتى ذهول، وبالرغم من ذلك كُلّه استوقفتني لوحة قد عُلِّقت على مقربةٍ من نهاية المّمر، لوحةٌ مُثيرة! مُثيرة بِكُل ما تحمِلهُ الكلمة من معنى! توقّفت للحظات ورحتُ أتأمّل تفاصيلها المُبهرة لقد أثارت فضولي

حقًّا، فأطلقتُ على الفور العنان لعقلي ليقوم بتحليلها وتخمين المغزى المختبئ خلف رسمها، وإن لم أكُن حاذقًا في تحليل الرسومات على الإطلاق ولكن لا بأس بالمحاولة!

***

ما المعنى المُختبئ خلفها؟

صحيحٌ أنّها كانت لوحة ذات ألوان مُخيفة تبعث القلق والرّعب من أوّلِ وهلة في نفس ناظرها، إلاّ أنّ ما أثارني ولفت انتباهي ليس الألوان فحسب وإنّما ذلك الشّخص غريب المظهر والأطوار الذي كان يظهر فيها!

لقد كان بشريًا ذا وجهٍ مذعور بملامِحٍ مطموسة، بشرتهُ شاحبة وبالصفارِ مكسوّة، عيناهُ جاحظتان، وبالإرهاق مغمورة، لا شعر يغطّي رأسه، ورموش عينيه ممحوة!

بدا هذا الآدمي وكأنه يريد قولَ شيءٍ ما، شيء قد أرهقهُ كِتمانه، لديه صديقان يقفان خلفه، ولكنّه لم يرد أيّة شخص حاضر بجسدهِ غائبًا بشعوره، إنّما أراد من يفهمهُ ويرعى شعوره، ومن بحر الأحزان والآلام ينتشلُه؛ ولكن بدا واضحًا أنّ جميع محاولاته لإيجاد شخص كهذا كانت بالبائسة اليائسة موصوفة!

فما كان أمامه أيّ خيارٍ آخر سوى أن يكسر حواجز الصمت والكتمان التي لطالما أثقلت كاهِله، نعم قرّر أن يكسرها بصرخةٍ ممتلئة بالحزن والأسى على حاله!

وبحزنٍ وضع كفّيه على أذنيه راجيًا أن يرتاح مِمّا يؤلِمهُ ويؤذيه، فراح يصرخُ بألمٍ وحسرةٍ على جسرٍ خشبي الكآبةُ القاتلةُ تعتريه، والبحرُ خلفهُ يتأجّجُ غضبًا يشكو من قضبانٍ حديديةٍ كبّلت بِعُنفٍ حُرّيته، فما لبثت أمواجهُ أن عتت وتلاطمت باكية على حالهِ، المكانُ مُخيفٌ من حولهِ، ألوانهُ مُرعبة، سماؤهُ مدمية، والأقسى من هذا وذاك صرختهُ المُدويّة!

وما إن أنهيتُ وصف حالة تلك الشخصيّة حتّى **صِرت أُفكر بصوتٍ عالٍ وأسألُ نفسي**:

ماذا يا مايكل؟ فأنت لم تُحدّد بعد جنس الآدمي الذي كان يظهر في الصورة! أتراهُ سيّدًا أم سيّدة! إنّهُ سيّد بلا ريب، لا لا، بل سيّدة هذا مؤكد! إنّهُ سيّد لا محالة! ولِمَ لا تكون سيّدة؟

أمسكتُ برأسي **وصرختُ بصوتٍ عالٍ**:

آهٍ يا رأسي! إنّه يكادُ ينفجر من حيرتي، ما بِك يا مايكل على البرّ فلترسي!

أؤكد بأنّ السبب خلف حيرتي هذه هو افتقار ذلك البشري لوجود شعر يُغطّي رأسه، ففي بداية الأمر أدركت أنّهُ سيّد؛ إذ أنّ الرجل عادة لا يُبالي بأمرِ شعرِ الرأس، حتّى لو ولِد وخرج على وجه الدنيا وهو أصلع لا شعر لديه، تجدهُ يُمارس حياتهُ بشكلٍ طبيعي بحيث لا يعيقهُ ذلك عن مُتابعة شوؤنه بسلاسةٍ ومرونة، كما أنّنا قد نجدُ أيضًا بعض الرجال ممّن يمتلكون شعر رأسٍ خشِنٍ يتذمّرون منه؛ لذا يسارعون عادةً بالتخلّص

منه عن طريق حلاقته بالكُليّة بحيث لا تبقى شعرةً واحدة!

أمّا النساء عندما يتعلّق الأمر بشعور رؤوسهن فإنهُن يُصبن بضربٍ من الجنون؛ لذا لا أعتقدُ مُطلقًا بأنّ الشخصية التي تظهر في الصورة كانت لسيّدة، إذ أنّ السيّدات عادةً ما تكون شعور رؤوسهن طويلة وكثيفة أو ربّما كانت قصيرة وفي ذات الوقت كثيفة من يدري المهم أنّهُن يمتلكنها!

ولو افترضنا أنّ امرأة مُصابة بمرضٍ ما أفقدها شعرها أو أنّها لم تحظَ بشعر كبقية النساء جرّاء أسباب وراثية، أقصد أنّهُ من المُمكن أن يكون أحد أفراد أسرتها مُصاب بالقرع وعن طريق الوراثة انتقل إليها فباتت بلا شعر، فإنّها في هاتين الحالتين ما كانت لتتسكّع وتسير في الطُرقات دون أن تضع شعرًا مُستعارًا يُغطّي رأسها، ومن هُنا يُمكنُني القول بأن تلك الشخصية التي رُسِمت كانت لسيّد وليست لسـ...

توقّفتُ لوهلةٍ وكأنّ نورًا ساطعًا أضاء في ذهني مشيرًا إلى حقيقةٍ جديدةٍ لم أُفكّر بِها بتاتًا!

أووه! كيف غاب مثل هذا الأمر عن ذهني! فمن المُمكن أن تكون تلك اللوحة قد رُسِمت لسيّدة عانت من مرضٍ ما أفقدها شعرها، فأتت هذه اللوحة لتصِف مقدار الألم والبؤس الذي كانت تشعُر بِهِ حينها، ولربّما كانت أيضًا لسيّدة مُصابة بالقرع – الذي تحدّثتُ عنهُ قبل قليل – تعرّضت للكثير من الإساءات والتنمّر من المجتمع المُحيط بها فكانت

تلك الرّسمة تعبيرًا عمّا قاستهُ في حياتها من صعوباتٍ وأحزان!

يا إلهي إن التّفكير في هذا الأمر يكادُ يُفْقِدُني صوابي، لا بُدّ أن أعرف المعنى المُختبئ خلفها!

وعلى حين غفلةٍ وبينما كُنت تائهًا في تفكيري غارقًا في أسئلتي همس صوتٌ أنثوي ناعِم:

- سيّد مايكل.. سيّد مايكل!

***

رائحة الطّعام لا تُغني عن تناوله

استدرت فورًا إلى الخلف لأتبيّن صاحبة الصوت فإذا بي أرى فتاةً حسناء بدا واضِحًا أنّها في مُقتبل العمر، كانت ترتدي الثياب التي ترتديها الخادمات عادةً، فأدركت على الفور بأنّها الخادمة التي أخبرني چايدن بأنّهُ سيرسلها لتعتني بالقطة وتطعمها.

وما إن فتحت فمي لأوصيها بأن تهتمّ بالقطّة جيّدًا حتّى **سبقتني بالحديث قائلة:**

- لقد أرسلني سيّدي چايدن لاصطحابِك.

آه يبدو أنّني قد انسجمتُ تمامًا في التحليل والتفسير ونسيتُ كوني ضيفًا في ضيافة صديقي، أعترِف بأنّني قد غرِقت في تفاصيل تلك اللوحة، لطالما كنتُ أغرق في تفاصيل الكثير من الأشياء، قهوة، كتاب، سماء مُلبّدة بالغيومِ البيضاء، نجوم، رائحة مطر، وفي أحيانٍ كثيرة كنتُ أغرق في تفاصيل العيون التي أُحِبّها، ولكن هذه هي المرّة الأولى التي أكتشف فيها بأنّه يمكن للمرء أن يغرق في تفاصيل لوحة!

لم أُرِد تعليقًا على كلامها وإنّما **سألتُها بلهفة:**

- ولكن ماذا عن القطّة؟! هل أخبركِ سيّدك بأمرها يا آنسة؟

هزّت رأسها بالإيجاب قائلة:

- نعم يا سيّد وسأذهبُ إلى هُناك لأخذها، ولكن ليس قبل أن أصطحبُك حيث يجلِس سيّدي.

نقلتُ نظري ناحية اليمين حيث كانت تلك اللوحة مُعلّقة ورمقتها بنظرةٍ مُحمّلة بالودّ وكأني أودّعها عندما **قالت الخادمة بنفاد صبر:**

- هلاّ تفضّلت معي الآن يا سيّد! ما الأمر هل سَتُطيل الوقوف هكذا!

شعرت حينها بالخجل من نفسي ولم أنبُس ببنت شفّة، بل تبعتها بهدوء حيث ذلك الباب المفتوح في نهاية الممرّ والذي خمّنت أنّه ربّما كان يفضي إلى الصالة إلاّ أن تخميني لم يكُن في محلّه!

فما إن دلفت من خلاله بصحبة الخادمة حتّى فوجئت بأنّني في المطبخ حينها توقفنّ الخادمات عمّا كُنّا يفعلنه وأخذن يرمقنني بنظراتٍ فضوليةٍ مُتعجِّبة! ...

فقالت إحداهن بصوتٍ أقربُ للهمس:

- يا إلهي! ما هذا الحظ! يبدو أنّنا سنعمل كثيرًا هذه الليلة.

بادرت الخادمة التي أتت لاصطحابي بتوضيح الأمر لهُنّ **قائلة:**

- إنّهُ السّيد مايكل ضيفٌ لدى السيّد چايدن، فلتُحسِنَّ استقباله.

نظرت كلّ واحِدةٍ منهُنّ إلى الأخرى وبصوتٍ واحدٍ **ألقين التحية:**

- عُمت مساءً يا سيّد مايكل، نرجو لك وقتًا مُمتِعًا.

دسستُ يدي في جيبي، وقلتُ ببرود:

- شكرًا لكُنّ.

كان المطبخ يعُج برائحة الطعام، لدرجة أنّني خرجتُ منه وتلك الرائحة الزّاكية ما تزال عالقة في أنفي!

ربّاه! إنّني أتضوّرُ جوعًا، إذ لم أتناول شيئًا منذ صباح اليوم، صحيح أنّ القطار الذي أتيت به إلى نيويورك يُقدّم خدمات طعام للرُّكاب، ولكنّني لا أُحبذ طعامهم إطلاقًا.

بقيت أسير على أثر تلك الخادمة الحسناء، وتفكيري كله يتمحور حول الطّعام، تمنّيت حينها أنّني لم أدخل إلى المطبخ فقد زادت رائحة الطّعام من جوعي!

يا إلهي! كيف يقول الطّباخون بأن رائحة الطعام وحدها كفيلة بإشعار كل من يشمُّها بالشّبع!

ها أنا ذا قد شممتُ رائحة الطعام ولم أشعُر بالشّبعِ أبدًا، بل إنّني قد ازددتُ جوعًا على جوعي، نعم ازددتُ جوعًا لدرجة أنّ مَعِدَتي قد بدأت تُصدِر أصواتًا تنمُّ عن رغبتها العارمة في تناول الطّعام ويا ليتها بإصدار الأصوات اكتفت، بل صارت تعتصرُني ألمًا وحُرقة حتّى أقدّم لها الطَعام!

يا لحماقةِ هؤلاء الطبّاخين! فكيف يُعمّمون تجاربهم الخاصة على النّاسِ جميعًا، فمن المُحال أن يشبع الشخص تمامًا بمجرّد أن يشتمّ رائحة الطعام حتّى وإن حصل وشعر أحدهم بالشبع فإنّهُ سيأتي بعد لحظات قليلة، قليلة جدًّا ويطلب الطعام، إذ إنّ ما شعر به في أوّل الأمر لم يكُن شبعًا كُلّيًا وإنّما كان لحظيًّا!

ولذلك فإنّني لا أؤمن بهذه المقولة التي بها من خداع النفس ما لا يمكن وصفه، أعتقد أنّ الكثير من الأشخاص قد برمجوا عقولهم بناءً عليها، أذكرُ أنّ زميلًا لي أخبرني ذات يوم أنّه كان عندما يعود إلى المنزل مُرهقًا جائعًا يذهب حالًا إلى المطبخ ليستنشق رائحة الطعام الذي لم يجهز بعد، ويخلد فورًا إلى النّوم مُتظاهرًا بأنّ هذه الرائحة كانت كفيلة بإشباعه!

لستُ أعلم الطريقة التي يُفكّر بها هؤلاء النّاس! ألم يتساءل أحدهم يومًا كيف لجسمِه أن يحصل على العناصر الغذائية اللازمة وهو يكتفي بشم رائحة الطّعام؟!

أتراها تنتقل تلك الفيتامينات والمُكمّلات الغذائية بهذا الشّكل؟

منذ متى أصبح الأنف يأكُل الطّعام عِوضًا عن الفم!

أظن أنّ هُناك مقولة أخرى سخيفة سمعتها مؤخرًا في إحدى القنوات التلفزيونية تدور حول هذا الشأن، لقد كانت إن لم تخُنّي الذاكرة العين تأكُل.. تأكُل... تأكُل ماذا، ماذا؟

هيّا تذكر يا مايكل!

مرحى مرحى! ها قد تذكّرتها لقد كانت "**إنّ العينَ تأكُل قبل** ..

تلبّثت فورًا عن إكمال المقولة عندما توقّفت الخادمة فجأةً أمام حُجرة مغلقة وأشارت بيدها **قائلة بنبرة حادّة**:

- السيّد چايدن ينتظرك هُنا بإمكانك أن تتفضل يا سيّدي!

قلت لها عندما رفعتُ يدي لأطرُق الباب:

- شُكرًا لكِ يا آنسة، ولكن أرجوكِ لا تنسي الذهاب لإحضار القطّة!

هزّت رأسها بالإيجاب، وما إن أدارت ظهرها لتنصرف حتّى **هتفتُ قائلًا**:

- يا آنسة سأكونُ مُمتنًا لكِ إن أطعمتِها جيّدًا وآويتها في مكانٍ دافئ!

***

لقد وقعتُ في حُبّها

أكملت مسيرها وهي **تُتمتم قائلة:**

- هذا ما كان ينقُصكِ يا إيميليا «الاعتناء بقطّة!» يبدو أن سيّدكِ يُصاحب شابًا بعقلِ طفل!

مكثتُ رافعًا يدي التي أردت أن أطرق بها الباب ليأذن لي صاحبي بالدخول وفي ذات الوقت كنت أنظرُ بذهول حيث كانت تقف تلك الفتاة المُتعجرفة، عجبًا فمن هي التي أمرت الخادمات قبل قليل بأن يُحسِنَّ استقبالي؟!

إنّها خادمة سيئة الخُلق على الرغم من جمالها الباهر، يبدو أنّها لا تجيد شيئًا سوى أن تهُزّ رأسها، إنّني لأتعجّب من صديقي كيف سمح لها هي وذلك العجوز الأخرق فوستر بالعمل هنا!

فتح چايدن الباب قبل أن أطرقه، وما إن رآني بتلك الهيئة التي بدوت فيها كالتّمثال تمامًا حتّى انفجر ضاحِكًا، ثم **راح يقول:**

- مايكل يا رفيقي ما الذي أصابك؟ لِمَ تقف هكذا؟ فقد ظننتُك تمثالًا حقيقيًا..

وسرعان ما عاد للضحك مُجدّدًا!

أمّا أنا فقد أنزلت يدي **وقلت بنبرة غاضِبة والشّرر يتطاير من عينيّ:**

- فلتضحك كما شئت فأنت عزيزُ قلبي، ولكن لا بد أن تطرد تلك الخادمة السيئة في أسرعِ وقت مُمكِن!

توقّف چايدن بغتة عن الضّحك **ونظر إليّ بإمعانٍ قائلًا:**

- ما الأمر؟ أتعني إيميليا! تُرى ما الذي فعلتهُ لك تلك الفتاة حتّى غضِبت هكذا؟

اقتربت مِنه وصرختُ بحدّة:

- إنّها ليست مهذبة على الإطلاق، فهي لا تحترم الضيوف ولا حتّى تتعامل معهم بلُطف!

أضف إلى ذلك أنّها متناقضة فهي تنصح غيرها بما لا تفعله، لقد كان بمقدوري التّلفُظ عليها كما فعلت معي، ولكنّ أخلاقي لم تسمح لي بذلك بما أنّي ضيفٌ قي قصرك!

وضع چايدن كفّه اليمنى بكفّي، وصار يربِتُ على هذه الأخيرة بِبطن كفِّه الأخرى ثم **قال محاولًا امتصاص غضبي:**

- يا عزيزي دعنا نلِجُ إلى الحُجرة الآن ونحتسي كوبًا ساخِنًا من الشاي، وسنناقش بعد ذلك هذا الأمر إلى أن يحين وقت العشاء، **اتفقنا؟**

وكالمعتاد نجح چايدن في إخماد نار الغضب الملتهبة في داخلي،

كما أنّه قد تمكّن من رسم الابتسامة على مُحياي، **فقلتُ بنبرةٍ هادئة:**

- اتفقنا!

دخلت معه إلى الحجرة التي كانت عبارة عن مكتبة ذات ألوان جميلة ومتناغمة تبعث الهدوء والسكينة في نفس قاصدها، فكان أوّل ما وقعت عليه عينيّ مكتبٌ ضخم مصنوع من الخشب الطبيعي الباذخ، ألقيت نظرةً سريعة على الأثاث لأتأكّد إن كان قد صُنِع هو أيضًا من الخشب ذاته!

وما إن تبيّنت ولاحظت أنّه قد صُنِع هو الآخر من نفس النوع حتّى أدركت بأن الطراز الذي قد صمّم صديقي مكتبةُ بناءً عليه هو الطراز الأمريكي الحديث، الحق أنّهُ ما من صعوبة واجهتني في اكتشاف نوع الطّراز المتّبع في تصميم الحُجرة؛ إذ أنّني أعرف حقّ المعرفة بأنّ الخشب الطبيعي هو السيّد المهيمن على هذا النوع من الطراز!

قال چايدن وقد اعتلت شفتاهُ ابتسامة لطيفة:

- ما الأمر يا مايكل؟ هل ستظل واقِفًا هكذا؟ ألا تُريد الجلوس يا رجُل!

قلت وأنا أسير باتجاه أحد الكراسي:

- يبدو أنّني قد اعتدت على الوقوف، رُبما تُدهش إن أخبرتك بأنني لم أجلس منذ أن وصلتُ إلى هنا!

جلس خلف مكتبهِ ورفع سماعة الهاتف وراح يطلب رقمًا ما **وهو يسألني**:

- وماذا عن جلوسك على ذلك الكُرسي الخشبي لارتداء خفّيك؟

جلستُ على الكرسي المحاذي له بينما **أجبتهُ قائلًا**:

- آه لم يكُن ذلك بالجلوس الطويل الذي ينعم به المرء على أيّة حال!

نقل السّماعة إلى أُذنهِ اليسرى بعد أن كان يضعها على اليمنى **وقال بنبرة مهذّبة**:

- من فضلكِ يا دوليريس أحضري كوبين من الشاي الساخن، بسكويت! بسكويتُ ماذا؟ شوكولا؟ آه نعم لا بأس، حسنًا لا تتأخري!

وريثما ينهي حديثه مع الخادمة قرّرت أن أتجوّل بنظري في أرجاء الحجرة التي كانت تضم مجموعة من الكراسي الخشبية المُغطّاة بجلدٍ طبيعي فاخر والملتفّة حول طاولة نصف دائرية، كما أنّ الأرضية كانت مفروشة بموكيت ذا لون أزرق هادئ يتناسب تمامًا مع لون الخشب الطبيعي للمكتب والأثاث!

بالإضافة إلى رف يحوي كَمّ لا يُستهان به من الكتب التي لم أتعّجب من عددها الهائل؛ فأنا أعلم جيّدًا بأنّ صاحبي چايدن مغرم بالقراءة منذ أن كان طفلًا صغيرًا، وهذا الأمر يُحتسب ضمن قائمة الأمور الجميلة

المُشتركة بيننا كأصدقاء!

وضع سماعة الهاتف وضرب رأسهُ بيده وكأنه **قد تذكّر شيئًا مُهمًا**:

- أوه صحيح! لقد نسيت أن أسألك، لِمَ توقّفت عن اللحاق بي؟ ما الذي استرعى انتباهك في ذلك الممرّ يا صاحبي؟

فقد عبرت الباب المُفضي إلى المطبخ، وأخذت أتكلّم وأصف لك مداخل المنزل ومخارجه، لا أعرف ما الذي كان يمنعني من الالتفات إليك حينها، ولكنّني كنت على ثقةٍ بأنك تقِف خلفي، فلم أكن لألحظ اختفائك، لولا أن سألتني كبيرة الخدم عن حالي وإن كان هناك شيئًا ما يُزعجني!

فقد ظنت المسكينة بأنّني أُصِبت بمسٍّ من الجنون جعلني أتحدّث مع نفسي بهذه الطريقة!

أطلق ضحكة قصيرة، **ثم تابع قائلًا**:

- وبناءً على أسئلتها تلك أدركت حتمًا بأنّني أتحدّث مع نفسي فالتفتُ بحركة لا إرادية إلى الخلف لأتحقّق من ذلك وبالفعل لم أجدك، أردتُ العودة لاصطحابك، ولكن أوقفتني الخادمة إيميليا التي جاءت تركض مُسرعةً قائلةً بأنّ أحدهم يطلبني على الهاتف لأمرٍ ضروري جدًّا، فما كان أمامي إلاّ أن آمرها بمرافقتك وذهبتُ على عجل لتلقّي تلك المُكالمة!

اعتدلتُ في جلستي وكأنّني أستعد للحديث عن شيء مُمتع،

ومضيتُ قائلًا:

- تلك اللوحة.. تلك اللوحة البديعة يا چايدن هي التي استوقفتني!

لا زِلت أحمِل في أعماقي الكثير من التساؤلات حولها يا صاحبي وعليها يا عزيز روحي فلتُجبني!

ظهرت علامات الدّهشة فورًا على وجه چايدن، **فتساءل:**

- أيّ واحدةٍ تقصد؟ ثم منذُ متى كنت تكترث لأمر اللوحات والفن أيّها المُغفّل!

أجبتهُ بحماسةٍ بالغة:

- تلك التي رُسِمَ فيها بشريٌّ يضع يديهِ الواهنتين على أُذنيه ويصرخُ عاليًا، في الحقيقة كنت أسمعُ صراخهُ المؤلم في أُذنيّ عندما كُنت أتأمل اللوحة، أجل كان صُراخًا مدويًّا صدّقني يا چايدن!

أما فيما يتعلّق بعدم اكتراثي باللوحات والفن فأنت مُحِقٌّ تمامًا فيما تقول، فأنا شخصيًّا لم أكُن لأُبالي قبل اليوم بالفن والفنانين؛ إذ كنتُ أنظرُ للفنّ على أنّهُ مُجرّد سخافات لا معنى لها، كما أنّني كنت أشعر بالأسفِ على أولئك الفنّانين الذين يهدرون أوقاتهم عليه دون أيّ فائدة تُرجى، ولكن الآن وبعد أن شاهدت تلك اللوحة لا أعلم ما الذي حلّ بي! أحسبُ أنّ منظوري تجاه الفنّ قد انقلب رأسًا على عقِب!

توقّفت للحظات في محاولة لاسترداد أنفاسي التي كادت أن تنقطع؛

إذ أنّهُ عندما تجتمع الحماسة مع الحديث عادةً يشعر المرء وكأن أنفاسهُ تتلاشى!

أطلق چايدن ضحكة قصيرة ساخرة، **ثم قال**:

- على رسلِك يا رجل لا تخف! فسوف أستمِعُ لكل ما تودّ إخباري به، إنّني باقٍ هنا فليس لديّ جناحان لأطير بهما!

لم أُرِد تعقيبًا على كلامه، بل إنّني **تابعت حديثي بالحماسةِ ذاتها**:

- أتعلمُ ما المُدهش يا چايدن؟ المُدهش حقًّا أنّني قد تمكّنت من تحليل تلك الرسمة بشكلٍ تلقائي، قد لا أستطيع الجزم بشأن تحليلي إن كان صائبًا مُتكامِلًا؛ فأنا في نهاية المطاف لستُ خبير رسوماتٍ حاذق، ولكن ما يُسعِدني فعلًا هو أنّ هذه المرّة تُعتبر هي المرّة الأولى التي أغرق بها في تفاصيلِ لوحة!

وليس هذا فحسب، بل إنّ محاولتي لاستخراج المغزى المُختبئ في باطِنها يُحتسب إنجازًا رائعًا بالنسبة لي، فما أجمل أن يقع المرء في حبِّ شيءٍ كان يراهُ يومًا ما سخيفًا وبلا أيّة فائدة!...

عجبًا! فكيف للوحةٍ واحِدةٍ فقط أن تجعل المرء يقع في حُبِّ عالم اللوحات بأسرِه، يا صديقي عندما وقفت مُتأملًا لتلك اللوحة كنت قد سافرتُ إلى داخِلها، شعرت وكأنّني أنتمي إليها، أحسستُ بأنّني جزءٌ لا يتجزأ منها، فقد كنتُ أقفُ على ذلك الجسر وأنظرُ إلى البشري غريب الأطوار، كنتُ لألَمِهِ المرير قد تألمت، أردتُ تقديم العون إليه، ولكنّني

أبدًا ما استطعت!

حينها فقط أدركت بأنّني كنتُ مُخطئًا عندما حكمت على الفن بالسوء من أول وهلة، دعني أُخبِرك الآن بتحليلي لتلك اللوحة!

كان چايدن يُنصِتُ إليّ باهتِمام شديد، وما إن هممتُ بعرض التحليل عليه حتّى طُرِق الباب ودخلت خادمة ذات وجهٍ بسيط الجمال سمح المُحيا، تحمِلُ بين يديها صينيةً بها كوبان من الشاي السّاخن وبعض البسكويت!

بدا واضِحًا أنّها أكثرَ لُطفًا وتهذيبًا من تلك الخادمة المُتعجرفة إيميليا فقد قدّمت لي الشاي أولًا حتّى قبل أن يطلُب منها چايدن أن تفعل ذلك ثم راحت بأدبٍ تُقدِّم الكوب الآخر لسيّدها، إنّها تعرِفُ فعليًّا كيف تتعامل مع الضيوف بلباقة، بخلاف تلك الحسناء ذات الخلق السيء!

وقبل أن تنصرف ابتسمَتْ بعذوبةٍ ورقّةٍ **قائلة**:

- هل تُريدان منّي أن أُحضِر لكما شيئًا قبل أن أنصرف؟

وبِذاتِ الصّوت والكلِمات أجبناها وكأنّنا قد **اتفقنا على ردٍ واحد**:

- شُكرًا جزيلًا يا آنسة.

استدارت مُنصرِفة وبهدوءٍ أغلقت الباب خلفها.

أمّا أنا فقد قضمتُ قطعةً صغيرة من البسكويت وارتشفتُ القليل من الشاي وذهبتُ أعرض بلهفةٍ تحليلي المُتواضع لتلك اللوحة الآسرة

على صديقي، وما إن انتهيت من سرد تفسيراتي وتحليلاتي حتّى **أتممت حديثي بقولي:**

- والآن أرجو أن تُخبرني بالقصّة الكاملة التي رُسِمت بناءً عليها تلك اللوحة يا حبيب صاحبك، أريدُ أن أعرف كل شيءٍ عنها فقد.. فقد وقعتُ في حُبّها!

***

ولكنّهُ لم يكُن يتنفّس!

لم أسمع منه أيّة ردٍّ على كلامي وما إن رفعت بصري الذي كان مُرتكِزًا على البسكويت حتّى صُعِقت مما رأيت!

فقد أنهى چايدن كوب الشاي الساخن برشفةٍ واحدة لدرجة أنّ بلعومه قد أخذ يصدِر أصوات فظيعة ومُثيرة للضحك!

أطلقتُ ضحكة مُدوية عمّت أرجاء المكان، لكنّني حاولت سريعًا التوقّف عن الضّحك بهذه الطّريقة السّاخرة، وما إن تمكّنت فعلًا من كبح ضحكي **حتّى قلت**:

- ما بِك يا چايدن! على رسْلِك يا رجُل! فليس لكوب الشاي أقدامٌ يمشي بها حتّى يهرب منك فاطمئن، آه إننّي آسف لبلعومِك المسكين!

انفجرتُ ضاحِكًا مرّة أخرى، ولكن هذه المرة لم أستطع التحكم في نفسي فقد أغمضتُ عينيّ وأخذت ألتفُّ يمينًا وشِمالًا، بل إنّني سقطت على الأرض ورحت أضرِب المنضدة الصغيرة بيدي من شدّة الضّحك حتّى باتت تهتز!

وما هي سوى لحظات حتّى دوى صوت كسر، توقّفت عن الضحِك

وفتحت عيناي بسرعة وما إن نقلت نظري إلى أسفل حتّى رأيت شاي مسكوب وزجاج مُتهشّم!

قد كُسِر الكوب وتطايرت قطرات الشّاي السّاخنة على ملابسي ولأنّني كنت أرتدي الصوف الثقيل الذي كان كفيلًا بامتصاص كل ما يُسكب عليه لم أشعر بأيّة حرارة حارقة على جلدي، تطلّعتُ مباشرةً إلى چايدن الذي كان يتطلّع إليّ هو أيضًا، هيمن الصمت بيننا للحظات ومن ثم انفجر كلانا ضاحِكًا!

قال چايدن وهو ينهض من مقعدِه:

- ها قد استهزأت بي وما لبِثتَ أن نِلت جزاءً عادلًا، فلم يعد بإمكانك تناول الشّاي أيُّها الأبله، فلو أنكَ فعلت مثلي وارتشفته دفعة واحدة لما حصلَ كلّ هذا!

توقَّفَ قليلًا، **ثم أردف**:

- ولكن أتعلم ما هو الشيء الجميل الذي حظيتُ به من سخريتك هذه؟

كنت قد قمتُ من على الأرض وجعلتُ أُنشِّف ملابسي بمنديلي القماشي الذي كنت أحمله في جيبي عندما **قلت بتعجّب**:

- وما الذي عساك حظيت بهِ من وراء سخريتي منك؟

ابتعد عن مقعده وهو يحمِل كوبه بين يديه، **ثم أجابني**:

- ضحكتك، فعندما رأيتك تضحك، ما برحت أن قلت في أعماقي ها قد ضحِكت الدنيا!

ضحكت ضحكة قصيرة خجولة، **فقلت:**

- چايدن، إنّك تخجِلني فلست أدري ما أقول أمام مشاعرك اللطيفة هذه، ولكن كل ما يسعُني قوله على أيّة حال هو حمدًا وشكرًا للرّب الذي أكرمني بصحبتِك!

أعاد چايدن كوبهُ إلى الصينية التي كانت الخادمة دوليريس قد وضعتها فوق المنضدة الخشبية الموضوعة بين الكرسيين الموجودين أمام المكتب، وما إن جلس على الكرسي المُقابل لي حتّى **قال:**

- عندما نخرج لتناول العشاء سأطلب من الخدم أن ينظفوا المكان.

والآن دعنا نكمِل حديثنا الذي كُنا قد قطعناه بسبب المعمعة التي حدثت قبل لحظات!

قلت باندفاع:

- نعم، صحيح، كنت أرجوك أن تخبرني بالمغزى الذي رسم الفنّان لوحتَهُ بناءً عليه!

قال وقد أسند ظهره:

- آه يا عزيزي! أتمنّى لو كان بمقدوري حقًّا تزويدك بقصّتها،

ولكن في الحقيقة لست أعلم عنها شيئًا، صحيحٌ أنّني أهوى مشاهدة الفنون وتأمُّلها؛ ولا سيما أنّها تُعتبر بمثابة تغذية بصرية للإنسان، خاصّة ما إذا كانت تصِف جمال الطبيعة ومع ذلك فلست مهتمًّا على الإطلاق بالأسباب أو القصص المُختبئة خلف رسمها!

سعل بهدوء، ثم تنحنح **وأكمل قائلًا**:

- ولكن لا تبالِ سأطلب من لورين أن تخبرك بمغزاها، فهي شديدة الحذق باللوحات وتحليلها، كما أنّها هي التي اختارت تلك اللوحة لتُعلّق في الممرّ، أظنّها أخبرتني حينها عن تفاصيل الرّسمة والأسباب التي تكمن وراء رسمِها، ولكن يبدو أن ذاكرتي لم تعد كما كانت عليه في السابق!

قعِدتُ على الكرسي بإحباطٍ شديد، فقد كنت توّاقًا لمعرِفة سر تلك اللوحة، **فقلت بحنق**:

- ومتى سأقابل لورين هذه؟ ثم من تكون تلك المرأة!

ضحِك چايدن بسخريّة، **ثم قال**:

- أحقًّا لا تعلم من تكون لورين أيُّها الأحمق!

قلت بنفاد صبر:

- لا لست أعلم، باللّه عليك أخبرني وأرِحني!

ابتسم قائلًا:

- إنّها زوجتي أيُّها المُغفّل! أم نسيتَ أنّني متزوجٌ أيضًا يبدو أنّك تعاني من ضُعفٍ في الذاكرة، أوصيكَ بِتناول المُكسّرات يا عزيزي فهي جيّدةٌ جدًّا في تحسين وتقوية الذاكرة!

هتفت بحدّة:

- أووه! چايدن إن لم تكف عن استفزازي فسوف أقلبُ عليك المكتب رأسًا على عقِب، فأنا لم أكن أعلم باسم زوجتِك من الأساس حتّى تظُن أنّني نسيته، قُل لي بربّك كيف ينسى المرء شيئًا لم يعرفه يومًا؟ هذه **النقطة الأولى!**

ابتسم چايدن ابتسامة مُستفزة قائلًا:

- وما هي الثانية!

تجاهلته تمامًا وتابعت:

- أمّا **النقطة الثانية** فهي أنّني كنت أول المُهنّئين، بل والحاضرين لحفل زفافك، لذا لا يحقُّ لك بتاتًا أن تتهمني بنسيان ذلك؛ فكيف لي أن أنسى ذلك اليوم السعيد الذي زُفَّ فيه رفيق قلبي وبهجة روحي، وبالنسبة لـ..

قاطعني ثانية قائلًا:

- دعني أكمل بالنيابة عنك "**للنقطة الثالثة** ".

صِحتُ بحدّة قائلًا:

- تبدو مستعجلًا لمعرفة هذه النقطة، حسنًا سأخبرك بها حالًا، **النقطة الثالثة** يا سيّد فؤادي تنص على أنّ الأولى بتناول المُكسّرات بكثرة هو أنت أيُّها المُستفّز؛ إذ إنه من الواضح جدًّا أنك تُعاني من ضُعفٍ حادٍ في الذّاكرة، والدليل على ذلك أنّك قد نسيت قصّة تلك اللوحة التي أخبرتكَ بها زوجتك، مع العلم أنّه لم يمضِ على انتقالك لهذا المنزل سوى أسبوعين تقريبًا، ولا شكّ بأن زوجتك قد حدّثتك عنها خلال هذين الأسبوعين، فإذا كانت ذاكرتك قد محت ما حدث خلال أسبوعين، فكيف بما حدث خلال السنوات الماضية، آه كم أخشى أن يأتي اليّوم الذي تنساني فيه أنا أيضًا!

قلت جملتي الأخيرة عندما ابتسمت ابتسامة مثل تلك التي يستفزُّني بها عادةً!

أغمض عيناهُ مبتسمًا ابتسامة هادئة، **ثم مضى يقول:**

- أتحسب أنّك سوف تستفِزُّني بمثل هذا أيُّها الأخرق؟ كلّا لن يكون لك ذلك فلست ممن يسهُل استفزازهم أعتقد أنّك أكثر شخص يعلم ذلك!

تنهّد تنهيدةً حزينة، **ثم أضاف:**

- آهٍ يا مايكل لقد اشتقت كثيرًا لِمشاجرتك كما أنّني اشتقتُ لأن تصرُخ في وجهي كما فعلت قبل قليل، الحقّ أنّني تعمّدت إثارتك

لأحظى بذلك وأُخمِد نار الشوق التي تتوقّد منذ زمنٍ في داخلي!

كنت قد نهضتُ من مقعدي ودنوتُ مِنه **عندما قلت:**

- يا لك من ثعلبٍ ماكر! أتُتلِف أعصاب صاحبك باستفزازه! ومن أجل ماذا؟ من أجل أن تطفئ نيران شوقك! ألا تعلم بأنّ لساني يبذل مجهودًا مُضنيًا عندما يخوض حديثًا مع شخصٍ ثرثارٍ مثلك!

قلت جملتي الأخيرة عندما سحبته مع شعره ولكمته على وجهه، إلاّ أنّني سرعان ما ضممت رأسه إلى صدري، **وقلت مبتسمًا:**

- بصراحةٍ.. بصراحةٍ، أنا أيضًا اشتقت لحماقاتك المضحكة، ولك أن تعلم يا بهجة أيامي بأنّني أشعرُ بالحنين إليك الآن على الرّغم من وجودنا معًا!

أمسك بيديّ اللتين كنت قد أحطته بهما عندما ضممته إليّ، **وقال متسائلًا:**

- ولكن ما ليَ أرى لكمتك ضعيفة على غير عادتها؟ أذكر أنّها كانت قبل سفري قويّة تُحطّم عظام الفك!

ثمّ ما هذه اللكمة التي يأتي بعدها عناق! إنّني لآسِفٌ على تلك العضلات التي باتت بلا فائدة! فصاحبها الذي يبرزها غاية في الرّقة ولا يحبّذ العُنف!

عظيم ها قد نجح چايدن في إثارة انفعالي مجدّدًا!

وبحركة سريعةٍ رفعت رأسه عن صدري، وبكلتا يدي أمسكت فكّيه وضغطت عليهما بكل ما أوتيت من قوة، **فقلت وقد عضضتُ على شفتيّ:**

- ما الأمر؟ أراك عُدتَ لإثارة غيظي مرّة أخرى!

أنصحك ألاّ تُكرّر الكَرّة ثانيًة لأنك لن تخرج من هنا سليمًا مُعافى، هاه ماذا قلت؟ ليلة مليئة بالرضوض والكسور والآلام؟ أم ليلة هادئة مليئة بالعافية والكثير من السلام؟ هيّا يا رفيق القلب عليك أن تختار!

أشار إليّ بيده راجيًا أن أُبعِد يديّ عن فكّه؛ إذ لم يستطع بسبب قبضتي المُحكمة أن ينبس ببنتِ شفّة، وما إن أبعدتهما حتّى ضحك ضحكة عاليةً، بل شديدة الصّخب اخترقت أذني لدرجة أنّني أحسست بوقعها في دماغي!

فقال بصوتٍ عالٍ وكأنّه يتحدّث إليّ من مكان بعيد:

- كنت أمازِحك فحسب فمن ذا الذي لا يحبّذ العافية والسلام كما أن ...

قاطعته قائلًا:

- ولكن لِمَ هذا الصوت المُرتفع؟ ألا ترى جيّدًا أنّني قريبٌ منك!

ماذا؟ أتظن نفسك في بئر أيُّها الغبي؟ إنّ طبلة أُذني تكادُ تنفجر من هذا الصّخب الذي أحدثته!

تنحنح محاولًا التخلّص من البحّة التي راحت تسيطر على صوته نتيجة ضحكه الصاخب وما إن تمكّن من ذلك حتّى **قال معتذرًا**:

- إنّني آسِفٌ حقًّا؛ فهذه هي مشكلتي الأزلية منذ القدم فأنا لا أجيد التّحكم بمستوى صوتي إطلاقًا، فقد تراني أتحّدث معك بهدوء ثم على حين غفلة؛ تجد أن صوتي قد ازداد ارتفاعًا وصخبًا، لستُ أعلم السّبب في ذلك، ولكنّني سأكتشفه يومًا ما بإذن الرّب، وسوف أعمل حينها على معالجته!

ألقى نظرة سريعة على ساعته، **ثمّ استئنف حديثه**:

- تبقّى نِصف ساعة فقط على عودة لورين فالساعة تُشير الآن إلى العاشرة والنّصف، وحلوتي قد أخبرتني بأنها ستنتهي من اجتماعها الثّقافي عند الحادية عشرة إلّاربعًا؛ وريثما تصِل إلى هُنا تكون الساعة قد شارفت على الحادية عشرة تمامًا!

نظر إليّ متفحّصًا:

- يبدو أنّك تتضوّر جوعًا يا صديقي فإن أردت أن نتناول العشاء قبل عودة لورين فلا بأس بذلك!

أجبتُ وقد عبرت الحُجرة باتجاه رفّ الكتب:

- الحقّ أنّني كنت قد تضوّرت جوعًا أثناء مروري بالمطبخ، ولكن حاليًا وبعد أن تناولت هذا البسكويت اللذيذ الذي جاء في

وقته تلاشى جوعي تمامًا!

وما إن قلت جملتي تلك تحديدًا حتّى أصدرت معدتي صوتًا قويًّا وكأنّها تعاندني، أحسست لحظتها بحرارة فظيعة تجتاح وجهي من شدّة الخجل؛ حتّى أنّ جبهتي قد باتت تتصبّب عرقًا، ومع ذلك كلّه **أكملت حديثي** متظاهرًا بعدم الاكتراث:

- لذلك دعنا ننتظِر لورين!

سحبتُ كتابًا من الرّف ووجّهت بصري باتجاه چايدن الذي كان يضع كفّيه على فمّه وينظر ناحيتي وقد اتسعت عيناه بشكل رهيب!

قلت بنبرةٍ قلقة:

- چايدن، أيؤلِمك شيءٌ يا صديقي! ما لي أراك شاحبًا هكذا!

لم يُرِد أيّة جواب، بل إنّهُ لم يُحرِّك ساكنًا، **فهتفت مذعورًا:**

- چايدن، چايدن لِمَ لا تجيب؟ چايدن يا عزيز صاحبك أجبني!

ألقيتُ بالكتاب الذي كنت أحمله بين يدي على الأرض، وتقدّمت بخطوات مُرتجِفة حيث يجلس!

أمسكت بكتفه وهززته بعنف **قائلًا:**

- چايدن! چايدن! چايدن، أرجوك يا چايدن رُدّ عليّ!

فكرت بهلعٍ أنّهُ ربّما قد أصيب بنوبة قلبية أفقدته الحياة، لحظة..

لكنّه إذا ما كان قد فقد الحياة حقًّا فلماذا لم يسقط أرضًا عندما هززته؟

ركّزت نظري حتمًا على أنفاسه لأتأكّد ما إن كان يتنفّس أم لا، إلّا.. إلّا.. أنّه لم يكُن يتنفّس!

***

چايدن يرفض طرد إيميليا

صرخت بصوتٍ عالٍ جدًّا وقد جثوت على ركبتيّ:

- چايدن يا عزيز روحي لا ترحل!

وما إن كشفت كُمّ يده اليسرى لأتحسّس نبضه حتّى وثبَ من مكانه، **ثم ضحِك عاليًا قائلًا:**

- آه لقد تمكّنتُ من خداعِك بسهولة، أحقًّا تخاف عليّ يا مايكل؟ في الواقع أنّني لم أكن أنوي خِداعك، فكلّ ما في الأمر أنّني أردت إخفاء تلك الضحكة التي باغتتني حالما سمعت صوت معدتك عندما افتضحت أمرك وأثبتت عكس ما تحدّثت به عندما قلت بأنّ جوعك قد تلاشى، فلم أرغب في إحراجِك؛ لذا فضّلت أن أتغلّب على ضحكي، ولكن حينما رأيتك تنظر إليّ بقلق وتُجلجل خوفًا عليّ قررت أن أستمِرّ بنفس الوضعية لأتعرف على المزيد من ردود فعلك تجاه وفاتي وغيابي عن الحياة، من يدري فقد يحدث لي شيئًا من هذا القبيل في المُستقبل حينها لن أكون قادرًا بكل تأكيد على رؤية حزنك وخوفك عليّ، فما المانع من أن أرى ذلك الآن بما أنّ الفرصة قد سنحت لي؟

انتصبتُ سريعًا وقد اشتعلتُ سخطًا:

- چايدن سأُبلغك أمرًا لا.. لا أعتقد بأنّ أحدهم أبلغك عنه قطُّ من قبل أنت.. أنت سخيف، بل سخيفٌ إلى حدٍ كبير، أتراه يجوز المُزاح في أمورٍ مُروّعة كهذه!

بوسعك أن تتبيّن ردّة فعلي في أيّ شيء آخر عدا الموت، لقد كاد قلبي أن يتوقف بسببِك، لنفترض أنّ الخوف الذي شعرت به لحظتها قد أوقف قلبي فعلًا وأفقدني حياتي، حينها ما الذي سيحدث برأيك؟ سوف تُساق إلى السجن أيّها الأهوج، وهذا ما لا أرضاه إطلاقًا!

سَكتُّ قليلًا، **ثمّ تابعت:**

- نعم، إنّني لا أطيق أن تتعرّض للأذى بسببي، لست مُكترثًا إن كنت سأفقد حياتي أم لا؛ ولكن يهمُّني ألاّ يُتّهم صديقي بأنّهُ قتلني بموقفٍ ساذج كهذا الذي فعلته قبل قليل!

بدا واضحًا أنّ چايدن قد أدركَ أنّهُ على خطأ، **فقال محاولًا تلطيف الموقف:**

- بلى أنت على حق يا عزيزي، هيّا الآن خُذ نفَسًا عميقًا وهدِّئ من روعِك!

سحب كلانا نفَسًا عميقًا، **ثم أضاف چايدن مُتسائلًا:**

- أخبرني ما هو ذاك الكتاب الذي جذبته من رفّ الكتب!

تطلّعت صوب الكتاب الذي كنت قد رميت به على الأرض:

- في الواقع أنّني لم أقرأ عنوانه أو ألقي أيّة نظرة عجولة عليه، أضف إلى ذلك أنّني استخرجته من بين الكتب بطريقة عشوائية، أجل فأنا لم أختره بحد ذاته!

ابتسم چايدن ابتسامة عريضة فقال:

- من الطبيعيّ جدًّا أن يجتذب المرء كتابًا من بين مجموعة هائلة من الكتب دون أن يتبيّن اسمه أو حتّى شكله، ولا سيما عندما يقع في موقِفٍ محرج فتجده يُعمِل عقله للتفكير في طريقة يتفادى من خلالها ذلك الموقف المُخجل بحيث تتحرّك جوارحه بطريقة تلقائية وكأنّها تسعى جاهدة لفعل كُل ما من شأنه أن يخفف من حدّة الموقف الذي وقع فيه!...

أعتقد أنّ هذا هو ماحدث معك حينما أصدرت معدتك ذاك الصّوت الذي كان دليلًا واضحًا على عدم صِدق كلامِك عندما قلت بأنّ "**جوعك قد تلاشى**"!

حدّقتُ فيه طويلًا دون أن أنطق بكلمة واحدة، فلست أعلم إن كان يحاول استفزازي بحديثه هذا أم أنّه أراد توضيح الأمر لا أكثر.

ذرع چايدن الحُجرة ناحية الكتاب وما إن أزاحه عن الأرض **حتّى التفتَ إليّ قائلًا:**

- إنّهُ كتاب «**مقتل الكومنداتور**» لهاروكي موراكامي، إنّ رواياته

ممتعة ومشوّقة إلى درجةٍ كبيرة، الحقيقة أنّني مُغرم بكتاباته حدّ الجنون!

أعاد الكتاب إلى الرّف **وهو يقول بلهفة:**

- غدًا بإذن الرّب سنعقد نحن الثلاثة أنا وأنت ولورين جلسة نقاش ثقافية حول الكتب والمكتبة في تمام الثامنة مساءً، ما رأيك؟

ابتسمت بهدوء، **ثم قلت:**

- لا مانع لدّي يا عزيز قلبي!

قال وهو يتقدّم بخطوات سريعة نحو الهاتف:

- يجب أن أستدعي الخادمة لتنظيف الشاي المسكوب حالًا!

وما إن حمل سمّاعة الهاتف حتّى أنزلها سريعًا، بدا وكأنّه قد تذكّر شيئًا ما يريد إخباري به، **فقال:**

- أووه يا مايكل! كيف نسيت ذلك، فأنا لم أسألك عن سرّ غضبِك من الخادمة إيميليا!

قلت عندما قطّبت جبيني:

- أجل صحيح تلك الخادمة السيئة المُتعجرِفة، سُحقًا لها!

قعدت على الكرسي ووضعت قدمًا على الأخرى ثم مضيت أسرد لهُ ما حدث لي معها منذ أن كنت أقف عند تلك اللوحة.

كان چايدن قد قعِدَ هو الآخر أيضًا على الكرسي القابع خلف مكتبه وراح يصغي إليّ بانتباه وتركيز شديدين، فهو مالك القصر على أيّة حال ويجب أن يعرف كل مايدور في قصره، يبدو أن حقيقة إيميليا كانت مختبئة، وقد آن الأوان الآن لأن تتجلى وتظهر كاملةً أمامه، آهٍ كم أتمنّى أن يطردها من قصره!...

تابعت حديثي بنبرةٍ حانقة:

- إنّها مُتناقضة يا چايدن! أُصدُقني القول وقل لي رأيك في شخصٍ كريهٍ مُنافق يسدي النصّح إلى الآخرين، بل ويعطيهم دروسًا في الكياسة والاحترام، وعندما تتعمّق في شخصه يتّضح لك أنّهُ أكثر سوءً من أولئك الذين كان ينصحهم! أتعلم ياچايدن، أنّني لأشُك حقًّا بأنّ جمالها وحسنها هو السّر الأعظم خلف تعجرفها وسوء أخلاقها، قُل لي باللّه عليك ما رأيك في الخادمة التي أحضرت الشّاي قبل قليل؟ يا إلهي ماذا كان اسمها دولر.. دولي...

ابتسم چايدن وقال مُصحّحًا:

- إنّها دوليريس!

- نعم صحيح دوليريس، إنّ جمالها بسيط، ولكنّ أخلاقها الحسنة هي التي جمّلتها وأضفت لها رونقًا مُختلفًا؛ ممّا جعلها تحظى بالقبول لدينا، فحسن خلق المرء هو السّر الأسمى الذي يكمن وراء محبّة الجميع له وإقبالهم عليه، فجميعنا يعلم بأنّ جمال

الوجوه سوف يبلى ذات يوم؛ حينها لن تبقى سوى تلك الأرواح المُحمّلة بالأخلاق سواءً كانت حسنة أم سيئة!

أمّا أصحاب الخلق النبيل فهنيئًا لهم لأنّهم قد كسبوا ودّ العديد من الأشخاص بحُسن خلقهم فيما مضى، ولا تنسى أيضًا أنّهم سيحظون بعون أولئك الذين يتوقون لردّ الجميل إليهم نظير خلُقهم الطيّب معهم في السّابق، وأمّا ذوي الأخلاق السيئة فأعتقد أنّهم سوف يعانون كثيرًا حينها، ومن الممكن ألاّ يجدوا من يساندهم أو حتّى يقّدم العون لهم نظير خُلُقهم السيء مع الجميع سابقًا!

وفي نهاية المطاف لا يجوز لي أن أعمّم ذلك الأمر على جميع الفتيات الجميلات، ولكن يبدو أنّ إيميليا تنتمي إلى تلك الفئة المُستثناة من الفتيات اللواتي يتعالين ويتفاخرن بجمالهنّ ظنًّا منهنّ بأنهنّ وحدهنّ من منحنَ الجمال لأنفسهنّ، وقد نسينَ بأنّ الإله هو الذي تنعّم عليهنّ بذلك!

وكما قُلت لك ليس بوسعي بتاتًا تعميم حالة إيميليا على الجميع، فهناك فتيات حسنهنّ آسر ومع ذلك أخلاقهن في غاية الجمال والرّقة، الحقّ أنّني لم أصادف في حياتي أيّة واحدة منهنّ؛ إلاّ أنّني مؤمنٌ أشد الإيمان بوجودهن في هذه الحياة!

كان چايدن يضعُ فكّه بين سبابته وإبهامه عندما نظرت إليه إذ بدا وكأنّه يفكر مليًّا في كلامي!

تساءلت قائلًا:

- هاه؟ ماذا قلت چايدن هل ستطرِد الفتاة!

حدّق بي للحظات، **ثمّ أجاب:**

- ولِمَ أطردها؟ فهي لم تفعل ما يستحِق ذلك يا عزيزي!

ظهرت علامات التعجّب على ملامحي، **فقلت بنبرة ساخطة:**

- ألم أقل لك بأنّها لا تحترِمُ أحدًا؛ فضلًا عن أنّها متناقضة درجة أولى، فهي تقول ما لا تفعل، ألا تخشى أن تخدعك بأقوالها ورقتّها – التي لا تظهرها إلّا أمامك – ومن ثمّ تفعل شيئًا يؤلمكَ يا چايدن! أوَ ليس هذا كافيًا لطردها؟ إنّ أمرًا كهذا ليس بحاجةٍ إلى تفكير، هيّا! هيّا، فلتحزِم أمرك ولتُعجّل بطردها من دارك!

تفرّست في عينيهِ للحظات محاولًا اقتناص الأمر الذي يدور في رأسه، **ثمّ استطردت:**

- لا يا عزيز روحي، ليس ثمة سبب يبرّر وقاحتها تلك معي، أيّة سبب هذا الذي يجعلها تتذمّر من خدمتي وتنعت عقلي بعقول الأطفال! وما بهم الأطفال أوَ ليسوا بشرًا مثلنا؟ أوَ لم نكن جميعنا أطفالًا ذات يوم؟ ثم إنّ ...

قاطعني:

- ها قد نطقتها بلسانِك، ما بهم الأطفال، إنّهم بشر مثلنا لا

يختلفون عنّا في شيء سوى أنّهم صفحة بيضاء، ولربّما قصدت إيميليا بقولِها هذا أنّك تمتلك من نقاء الأطفال ما لا يمتلِكه شباب هذه الأيام!

بدا چايدن أكثر غرابة، إذ إنّهُ أخذ يلتمس الأعذار لتلك الخادمة الفظيعة ويبرّر لها أقوالها، وإن لم يكن مطّلعًا على خباياها!

كنت أنظر إليه مذهولًا عندما قلت:

- يا للغرابة حقًّا! هذا عظيم فمنذ متى أصبح صاحبي چايدن محاميًا قديرًا! أودُّ إخبارك أيُّها المُحامي المُزيّف بأنك لم تحسن تبريرك ودفاعك عن موكِّلتك؛ فإيميليا لم تقل "**قلبُ طفل**" بل قالت: "**شاب بعقل طفل**"، نعم ركّز جيّدًا فشتّان ما بين هذا وذاك، فلو أنّها شبّهت قلبي بقلوب الأطفال لما انزعجت على الإطلاق، ولو افترضنا أنّني قد غضبت وانزعجت فبمقدورك الإدلاء ساعتها بتبريراتك السابقة؛ حينها سأقتنع بها وأكفّ فورًا عن اتّهامها بسوء الخُلق، ولكن ما قالته خادمتك المُبجّلة كان واضحًا وضوح الشّمس، ببساطة هي تعني أنّي شاب ومع ذلك عقلي محدود وبسيط تمامًا كعقول الأطفال التي لا تجيد شيئًا سوى التفكير في الحيوانات الأليفة وكيفية الاعتناء بها وتربيتها! وإلّا ماذا عساها أن تعني بغير ذلك!

إنّها سيئة، سيئةٌ جدًّا، فهي لا تعلم بأنّنا عندما نعتني بالحيوانات

ونطعمها، إنّما رحمةً بها حتّى يشملنا الرّب الرّحيم برحمتِه، يا چايدن قد تجِد عادةً أنّ الأطفال هم أكثر من يعتني بالحيوانات أتعلمُ لماذا؟ لأنّ قلوبهم مليئة بالرّحمة والرّفق، فمن كبِر منهم وما زالت تلك الرّحمة عالقة في نفسه سيظلُّ يرحم الحيوانات ويرفق بها إلى أن يموت؛ كما أنّ رحمته تلك لن تقتصر على الحيوان فحسب، بل ستتجاوز ذلك إلى البشريّة بأسرِها، ومن نُزِعت تلك الرّحمة من قلبه فأعانه الإلهُ على نفسِه؛ لهذا فإنّني أؤكد لك بأنّ خادمتك الحسناء من الذين نُزِعت الرحمة من قلوبهم، وإلّا لما تذمّرت من طلبي لها بأن تهتّم بالقطة!

ألقى چايدن برأسه على الطاولة وصار يهتز من شدّة الضحِك، **فصرخت مغتاظًا:**

- أفي كلامي ما يُضحِك أيُّها الأحمق!

أرقى رأسه قائلًا:

- آه يا مايكل! يا إلهي إنك تضحكني عندما تثورُ غضبًا، الحقّ أنّك أقحمتني بكلامِك هذا، أعتقد أنّ محاولتي للمحاماة عن خادمتي الحسناء قد باءت بالفشل هذه المرّة، ومع ذلك كله لن أعِدُك بطردها قبل أن أتحدّث إليها، فلستُ ممّن يُفلت يد أحدهم قبل أن يتبيّن أسبابه، سوف أسألها إن كان هناك أمرٌ ما قد أزعجها اليوم حتى أصبحت بهذا المزاج السيء، فلربّما أساء إليها أحدهم بكلمة، فالنساء عادةً ما يتأثّرن بالكلمة إلى الحدّ الذي يجعلهُنّ

يفعلنَ أشياءً تسيء إلى من حولهنّ بغير قصدٍ منهنّ، كرمًا يا صديقي امنحني بعض الوقت لأتحدّث إليها!

سألت بوجهٍ متجهّم:

- وماذا إن لم يوجد سبب خلف تصرفاتها الحمقاء؟

قال وقد شدّ ظهره للأعلى وشبّك أصابعه ببعضها البعض:

- حينها سوف أعطيها درسًا في الخُلق النبيل وكيفية التعامل مع الآخرين بتهذيبٍ وذوقٍ رفيع!

ازداد تجهُّمي فقلتُ بنبرة حازِمة:

- وإن لم تأبه لدروسك وتعليماتك واستمرّت بنفس الأسلوب القذر والأخلاق السيئة؟

ابتسم ابتسامة مليئة بالمكر، **ثمّ قال:**

- حينئذٍ سأدعها وشأنها، وسأحترم رغبتها بالطبع، فربّما لم تُرِد التغيير، أي أنّها قد تكون مُقتنعة بأسلوبها وبما هي عليه من خُلق، وكما تعلم فإنّني شخصيًّا لا أحب إجبار أيّ شخص على ما لا يُطيق، كما أنّ إيميليا خادمةٌ مُخلصة، فقد عملت في خدمتنا منذ أن كُنّا في لندن وفوق هذا كُلّه اتّخذت تلك المسكينة أصعب قرار في حياتها، ألا وهو أن تُغادِر موطنها وعائلتها من أجل أن تأتي معنا إلى نيويورك، فكيف لي أن أُفلت يدها بهذه السهولة وأطردها!

يصعُب عليّ ذلك يا صديقي، يصعب عليّ كثيرًا!

***

عودة لورين

في الحقيقة أذهلتني إنسانية صديقي ومشاعره الطيّبة، وسرعان ما اقتنعت بكلماته الأخيرة، كما وأظن أنّني لو كنت مكانه لفعلت الشيء نفسه!

كنت قد فتحت فمي لأُعرِب له عن إعجابي به عندما طُرِقَ باب الحجرة ثلاث طرقات متتاليات، نظر وقتها كلٌّ منّا إلى الآخر، **فقال چايدن باستغراب:**

- أتراها لورين قد عادت؟!

قلت عندما تطلّعت إلى ساعتي:

- لا أعتقد ذلك، فالساعة تشير الآن إلى الحادية عشرة إلاّ رُبعًا!

تناول منديلًا ورقيًا وجعل يمسح أنفه ثمّ قذف به في سلّة النفايات الموجودة أسفل المكتب، **وقال:**

- ربّاه! ظننت بأنّها قد شارفت على الحادية عشرة؛ إذًا فهذا يعني أنّها ليست لوري، إذ إنّه من المفترض في هذا الوقت أن تكون قد أنهت اجتماعها وهي في طريقها إلى القصر.

علا صوت الطرقات، **فأجاب بصوت مرتفع:**

- تفضّل وادخل يا من أصْمَيت الآذان بقرعك الباب!

بقينا نتطلّع ناحية الباب مترقبين الطّارق الذي يقف خلفه، وما إن فُتِح حتّى أطلّت علينا سيدة في غاية الجمال والأناقة، أدركتُ سريعًا بأنها لورين زوجة صديقي!

عندئذٍ هتف چايدن متفاجئًا:

- أووه! لورين يا عزيزتي، ما هذه المُفاجأة الجميلة سعيدٌ بعودتكِ باكرًا يا فتاتي اللطيفة!

نهضت من مقعدي عندما رأيت چايدن يفعل ذلك، بينما كانت لورين قد أوصدت الباب خلفها وعبرت الحجرة صوبنا، وما إن وقفت أمامنا مباشرة حتّى أشار چايدن بيده إليّ، **قائلًا لها:**

- إنّهُ رفيقُ قلبي مايكل ديفيد الذي لطالما أزعجتكِ بالحديثِ عنه.

رمقني بنظرةٍ ساخرة، **ثمّ قال مبتسمًا:**

- مايكل، عزيزي، تقف أمامك في هذه اللحظات زوجتي التي كُنت قد نسيت اسمها، لورين كليمنت!

تجاهلت أسلوبه المُستفزّ تمامًا، **وألقيت التحيّة عليها بلباقة:**

- مساء الخير سيّدة كليمنت!

ردّت بابتسامة خجولة:

- أهلًا بكَ يا سيّد ديفيد في دارنا، سعيدة جدًّا بمعرفتِك.

تبصَّرَتْ في الشاي المسكوب تحت الطاولة بتعجبٍ شديد، **ثمّ تسائلَتْ بابتسامة ناعمة:**

- ما الخطب؟ أكنتما تتعاركان هنا أم ماذا؟

تبادلتُ النظرات مع چايدن وكأنّنا نعقد من خلال أعيننا اتفاق مفاده إخفاء السبب الأساسي وراء انسكاب الشاي، **فأجاب:**

- كلّا ليس الأمر كما تظنّين يا أميرتي لوري، وإنّما سقط كوب الشاي بالخطأ، أجل كان ذلك عندما ارتطمت قدم مايكل بالمنضدة؛ فهو لا يستطيع أن يتحكّم في قدميه عندما يجلس على الكرسي!

ضحكت لورين ضحكة أنثوية قصيرة، **ثمّ قالت وهي تومأ برأسها:**

- لا، لا أعتقد ذلك، إنّك تبالغ كعادتك يا چايدن، فالأطفال هم من لا يستطيعون التحكم في أرجلهم، أي أنّه ليس بمقدورهم أن يبقوا ثابتين على الكراسي دون حراك، فتراهم يحرّكون أقدامهم في كل اتجاه، وقد يحطّمون ويكسّرون ما حولهم غير آبهين لما يفعلون إنّهم يجلبون العديد من المتاعب بحركاتهم المُفرطةِ تلك، لذا من الأفضل لك أن تُخبرني عن السبب الحقيقي وراء تحطّم الكوب!

قال چايدن بحماسة:

- ومن قال لكِ أنّ تلك الحركات العشوائية واللا إرادية مقترنة بالأطفال فحسب، أنتِ مخطئة باعتقادُكِ هذا يا حلوتي، حسنًا دعيني أطبّق لكِ عمليًّا الكيفية التي تتحرّك بها أقدام صاحبي بشكل – لا إرادي – لكي تقتنعي، والآن هيّا انظري.

راح چايدن يقلّد حركات أقدامي اللا إرادية عندما أجلِس على الكرسي والتي في الحقيقة لم تكن كذلك؛ وإنّما أراد إخفاء السرّ التافه المُخجل وراء اندلاج الشّاي!

صحيح أنّ ذاك سبب مُخزي ومُعيب بالنسبة لي، ولكنّه في النهاية أقل خزيًّا من هذا السبب الفظيع، فماذا عساها تقول عنّي السيّدة الآن؟ لابد أن تقول شابٌ بهذا الحجم ولا يستطيع إحكام قدميه أثناء جلوسه على الكرسي، يا إلهي أشعر بالحرج بمجرّد التفكير فيما ستقوله، ماذا لو قالته لي وجهًا لوجه! ويحي يبدو أنّني سوف أسقط مغشيًّا عليّ من شدّة الإحراج!

نظرت إلى چايدن الذي كان يحاول إقناعها بأنّهُ لا يبالغ البتّة في وصفه لحركة أقدامي، فكّرت بأنّهُ ذكي إذ أخرج نفسه من هذه المسألة، فقد نزع قميص الخطأ عن نفسهِ وتركني أرتديهِ بمفردي، أقرُّ كما وأعترِف بأنّني ضربت المنضدة بيدي حينها عدّة ضربات مّما قد تسبّب في سقوط الكوب، إلّا أنّهُ ينبغي ألّا أغفل عن أن السبب وراء ضحكي

ذاك هو چايدن، إذًا فهذا يعني أنّ كلينا على خطأ!

ماذا؟ لحظة! نعم هذا صحيح؛ فلربّما كنت أنا المُخطئ الوحيد، فچايدن عندما ابتلع الشّاي الساخن دفعةً واحدة لم يكن يرغب في إضحاكي من الأساس، بلى هذا ما يبدو واضحًا لي وأنا أسترجع ما حدث في عقلي الآن!

المسكين! أظن أنّ شربه للشّاي وغيره من المشروبات ساخنةً كانت أم باردة دفعة واحدة؛ عادة سيئة تعيش معه وتؤرقه، كما وأحسب أنّه لن يتخلّص منها بسهولةٍ أبدًا! أعتقد أنّني المسؤول الوحيد عن هذا كلّه، فلو أنّني تمالكت نفسي وسيطرت على ضحكي حينها، لما كنت قد وضعت نفسي في مثل هذا الموقف البشع أمام زوجته!

يا ليت چايدن أخبرها بالسبب الحقيقي؛ إذ إنّني أرى بأنّ وقعه سيكون أخفُّ عليّ من هذا السبب السخيف، أُقدِّر تمامًا حرصَه الشديد على ألاّ أظهر أمام زوجته بمظهر الضاحك السّاذج الذي ليس بوسعه السيطرة على ضحِكه! ماذا! ماذا! السيطرة على الضحك! السيطرة على الأقدام!

آهٍ ثمّ آه! كم أنا مغفلٌ وبليدٌ إلى حدٍ بعيد!

فكيف لم أتنبّه لذلك منذ البداية، إنّ كلا السّببين يسيئان إليّ أمام السيّدة في نهاية الأمر، نعم فنظرتها لي ستكون مخزية في كل الأحوال.

التهبتُ حنقًا، **وصرتُ أخاطِب چايدن في مُخيلتي قائلًا:**

چايدن يا أيُّها الخبيث الماكر، ها قد كُشِفت لعبتك، فأنت لم تُرد إخبارها بذلك السّبب؛ لأن الشيء الذي كان يضحكني حينها هو عادتك الغريبة في شرب الشّاي، قد تعلم زوجتك بهذه العادة بما أنّكما تمكُثان معًا، ويعرِف أحدكما الآخر جيّدًا، ولكنّك لم تُرِد في النهاية أن تظهر أمامها بمظهر المُهرّج الذي يجعل الجميع يعتصرون ضحِكًا منه!

وما إن توقّفت عن مخاطبته في عقلي، **حتّى وجّهت خطابًا مؤثرًا إلى نفسي:**

أوَ ليس چايدن رفيقك الأقرب إلى قلبك؟ إذًا فلتدعه يفعل ما يشاء، ولا تنسَ أنّ من حقّه الظّهور بمظهرٍ لائق أمام زوجتِه، أمّا أنت فليس بالضرورة أن تبدو أمامها في أجمل صورة، وتذكّر بأنّك لست سوى صديقٍ لزوجها!

أعدتُ نظري إليه تارةً أخرى بعد أن كنت قد نقلته إلى شظايا الكوب المكسور.

إنّ لِچايدن نَفَسًا طويلًا، فهو ما يزال يحدّث زوجته عن الحركات اللا إرادية، ولا سيما حركة الأقدام تلك التي كانت تثير انزعاجي، ولكن لورين لم تكن لتصدّقه أبدًا، ممّا جعله يتكبد عناء الشرح والتطبيق العملي المُتكرر أمامها!

حسنًا لا بأس أن يدافع صاحبي عن مظهرِه لئلا يسوء أمام زوجته، ولكن كم أتمنّى ألّا تصدّق لورين ما يقوله، فلست مستعدًّا لأن أظهر

أمامها أنا أيضًا بمظهر الغشيم الذي لا يُجيد التحكّم في جلسته! آه ربّاه! يكفي ما قالته عنّي تلك الخادمة المُزعجة!

لورين:

- "سيّد ديفيد! سيّد ديفيد توقّف أريد أن أقول لك شيئًا مهمًّا، فأنا أعرِف بعض الدورات التي يمكنك الاستفادة منها في التخلّص من الحركات اللا إرادية، هل ترغب أن أزوّدك بعناوينها وأماكن إقامتها!

لورين:

- چايدن يا عزيزي يبدو أنّنا نتحدّثُ إلى طفل يعشق تربية الحيوانات ولايستطيع التّحكم في جلستهِ إطلاقًا!

لورين:

- يا للشّاب المسكين! لابد أن حركات قدميه العشوائية تتسبّب له بإحراجٍ شديد أمام الآخرين، وربّما أخذ يجهشُ بالبُكاء بسببها، من يدري! إنّهُ ليس سوى طفلٌ مسكين! مسكين! مسكين!"

لا لا لا! أنا لستُ بطفل، كما ولستُ بمسكين، آه يا إلهي إنّني لا أحتمل ذلك، حمدًا للرّب أنها ليست حقيقة، كنت سأجنُّ فعلًا وربّما اضطررت للالتحاق بمصحةٍ عقلية لو كان ذلك واقعًا!

قلتُ مخاطبًا عقلي:

كفى أيُّها العقل الغبي، عليك أن تكفّ عن عرضِ مثل هذه التخيّلات السيئة، باستطاعتك تخيّل أي شيءٍ آخر باستثناء هذه المواقف الرهيبة!

حاولت جاهدًا نفض تلك الأفكار المُزعجة التي أخذت تعصف بي، لذلك رحت أتفحّص لورين التي كانت تقف أمامي وتتطلّع لمُحاولات زوجها اليائسة.

إنّها سيّدة في غاية الجمال، ذات بشرة بيضاء صافية متورّدة تخلو من مساحيق التجميل التي يستخدمنها النساء عادة، إذ إنها قد اكتفت بوضع أحمر شفاه غامق أضفى لمظهرِها رونقًا ساحرًا، أمّا عيناها فقد كانتا واسعتان مذهلتين ذاتا عدساتٍ زرقاء لامِعة تنبعث منهما حيوية وسحرٌ غريب!

كانت ترتدي فستانًا مخمليًّا ناعمًا يغطّي الرّيش الدافئ رقبته وأطراف أكمامه، فضلًا عن شعرها ذا اللون الرمّادي الذي كانت قد سرّحته بشكل جميل للأعلى، الحقّ أنّها بدت كالأميرات الأنيقاتِ تمامًا!

لقد كانت في العشرين من عمرها عندما تزوجت صديقي، حينها سافرا معًا إلى لندن ومكثا هناك ثلاث سنوات، لذا فإن عمرها الآن بحد علمي أربعة وعشرون عامًا، ما زالت في مقتبل العمر، أعانها الرّب على صاحبي الكهل، نعم چايدن كهل!

ردّدت كلمة "كهل" عدّة مرّات متتالية ثمّ أطلقت ضحكةً عالية بشكلٍ آلي!

كان چايدن وزوجته قد توقّفا عن الجدال فيما يتعلّق بالحركات اللا إرادية التي يعاني منها المرء، وراحا ينظران إليّ بتعجّب، وما إن اختفت أصوات الحديث التي كان المكان يضجُّ بها قبل لحظات حتّى عزفت فورًا عن الضّحك!

فقلت محاولًا تفادي الموقف:

- إنّكما مثيران للضّحك حقًّا، قولا لي باللّه عليكما متى ستختتمان هذه الجلسة الثقافية، والتي هي بعنوان "**سر الحركات المفرطة واللا إرادية**"، الحق.. الحق أنّني أشعر بالجوع، فلتتركا هذا الأمر وشأنه، الآن هيّا!

تحسّس چايدن معدته بيده، **ثمّ راح يقول:**

- أنت مُحِق، فأنا كذلك قد بِتُّ أتضور جوعًا، فضلًا عن أنّي بحاجة ماسّة إلى شرب الماء فقد نشف ريقي كليًّا من هذه الطِفلة العنيدة!

نظرت لورين إليّ وقالت باعتذار:

- المعذرة يا سيّد ديفيد، كان يتوجّب علينا أن نقدم إليك طعام العشاء باكرًا بما أنّك ضيفٌ لدينا، ولكن.. لكن...

ثم أطرقت! فكّرت أنّها ربّما أرادت أن تقدم لي عذرًا مناسبًا، ولكنّها فشلت في إيجاده، إذ لم يكن ثمة سبب مقنع أدّى إلى تأخر وجبة العشاء!

فقلت بنبرة جمعت ما بين اللطف والتهذيب:

- يا سيّدة كليمنت لا حاجة للاعتذار أرجوكِ! فأنا لستُ غريبًا كما أنّني في منزل رفيق قلبي وأخي العزيز چايدن، نعم أخي الذي كنت قد عشت معه سلفًا في سكنٍ واحِد، فتناولنا من نفس الطّعام وهجعنا سويًّا في ذات الفراش، يا سيّدة إنّ كل واحدٍ منّا يعرف الآخر حقّ المعرِفة، فلا وجود للرّسميّات بيننا إطلاقًا، وعندما قلت بأنّني جائع إنّما أردت أن تكُفّا عن نقاشٍ عقيم لن تخرُجا منه بنتيجة مرضية!

قال چايدن وهو يتقدّم صوب سماعة الهاتف:

- آهٍ يا عزيز قلبي، كم أحنُّ كثيرًا لتلك الأيام الخوالي!

وقبل أن يطلب من إحدى الخادمات المجيء لتنظيف الشّاي، قُرِع الباب ودخلت دوليريس، **فقال بتعجّب:**

- يا للمصادفة العجيبة! فقد كنت سأستدعي إحداكنّ عن طريق الهاتف لتنظيف الأرضية!

قالت بنبرة مبتهجة عندما نقلت نظرها إلى السيدة لورين:

- مساء الخير يا سيّدتي كيف حالكِ؟ أرجو أن تكوني بصحة جيّدة؟!

ابتسمت لورين ابتسامة هادئة وأجابت:

- أهلاً بكِ يا جميلة، أنا بخير وفضل من الرّب الكريم.

قالت وقد نظرت باستغرابٍ إلى الزجاج المُتهشّم على الأرض:

- تفضّلوا إلى حُجرة الطّعام ، فالعشاءُ جاهز.

سبقتنا لورين إلى حجرة الطعام؛ لكي تتأكّد من جاهزية المائدة بشكل كامل، أمّا أنا وچايدن فخرجنا بعدها بلحظات، وبينما كنّا نسير حيث الطّعام؛ **همستُ لچايدن:**

- اعذرني يا صديقي، فقد استغتبتُك في عقلي عندما كنتَ تتناقش مع لورين.

قال وهو ينظر إليّ بطرف عينه:

- كلاّ**!** لن أغفر لك قبل أن تخبرني بما استغتبتني فيه**!**

أجبت وقد كتمت ضحكتي:

- قلت أعان الرّب زوجتك عليك، إذ أنّك كهل، والمسكينة في مقتبل العمر!

قال وهو يمسك بمقبض الباب الذي كنا قد توقفنا عنده:

- حسنًا سيكون حسابي معك لاحقًا أيُّها الطفلُ الشقيّ الأحمق.

***

رسالة من إدوارد

وما إن دفع چايدن الباب ودلفنا حتّى جُلت ببصري مُتفحّصًا أرجاء الحجرة، الحقّ أنّني لم أستطع أن أمنعَ نفسي من إجراء هذه الجولة التفَحُّصِيَّة، فقد كنت مُتلهّفًا جدًّا لتفحّص كل شبر في قصر صديقي، فضلًا عن حبّي الشديد لمُعاينة التفاصيل.

آه يا لجمال هذه الحُجرة! إنّ ألوانها دافئةٌ جدًّا، بل إنّها تقذف بالرّاحة في نفس المرء، لقد أحسن چايدن الاختيار عندما اختار هذين اللونين، أعني الأحمر القاني مع الوردي، على الرّغم من أنّني أشك في أنّ زوجته هي التي تولّت تنسيقها وليس هو؛ فكما قلتُ سابقًا صديقي لا يجيد عمل أيّة شيء إطلاقًا، بالإضافة إلى أنّهُ يفتقر للذوق في شتّى مناحي الحياة، يا إلهي! لقد استغتبته مرّةً أخرى لابد أن أخبره بذلك بعدما ننتهي من تناول العشاء.

نقلت نظري للأرضية فورًا لأتحقّق من مدى ملائمتها لألوان الحُجرة، وبالفعل كانت بسيطة ومناسبة تنحاز بشكل كبير إلى المواد الطبيعية، نعم، أعني بذلك أنّها كانت خشبية، أرقيت نظري إلى الأعلى لأرى المزيد ممّا تحتويه الغُرفة، فتنبّهتُ مُباشرةً إلى ذلك الرّكن الذي قد خُصّص لتوضيب أدوات المائدة، فقد كان يحتوي على خزانة

زجاجية رُتّبت بداخلها الأطباق وكل ما يخُص المائدة بشكل منظم، ما أثار إعجابي حقًّا هو أنّ لمسات الإضاءة الهادئة قد رُكّبت بداخل هذه الخزائن، لذلك لم تكن الحُجرة مزعجة بصريًا، لقد أحسنا صُنعًا بِتجنُّبهما وضع الإضاءة في منتصف طاولة الطعام كما يفعل الكثير من النّاس، أووه! صحيح طاولة الطّعام! كيف غفلت عن معاينتها!

وما إن باشرت النظر إليها حتّى سُعِدت جدًّا لكونها دائرية؛ إذ أنّ الطاولات الدائرية تأسِرُني عادةً أكثــــر من ذوات الشكل المُستطيل والمُربع، وما أبهرني أكثر هو أنّها قد صُنعِت من الزّجاج؛ لذا أدركت فورًا أنّ من تولّى أمر هذه الحُجرة كان عاشِقًا للتصاميم، فقد بدا ذلك واضِحًا جليًّا من اختياره للطاولة، وإنّي لمُتيقّن حقّ اليقين بأنّ لورين هي من توّلت فعل ذلك!

عبرت الحُجرة باتجاه النّافذة، وأزحت السّتار ذو الملمس المخملي النّاعم، فقد دفعني فضولي لمعرفة ما تطل عليه هذه النّافذة، أوه! هذا ما توقّعته، كانت تطلّ على الحديقة التي تقع في الجانب الخلفي من القصر، تلك التي لم تطأها قدمي حتّى الآن، فتلك الحديقة التي عبرتها قدومًا إلى القصر ليست أفضل من تلك التي في الخلف، إذا أن هذه الأخيرة مليئة بأزهار القنطريون الزرقاء الزاهية؛ بالإضافة إلى أشجار البرتقال المُنعشة التي ما إن أتطلّع إليها حتّى أشعر بالانتعاش، نقلتُ نظري إلى زاوية أخرى من زوايا الحديقة؛ فإذا بي أرى شجرة عملاقة ذات ظلٍ وارِف، وقد رُتِّبت في أسفلها جلسة جميلة مُكوّنة من طاولة

خشبية صُنِعت من خشب الدّردار.

فعلِمتُ حتمًا بأنّ چايدن هو من اختار تلك الطاولة، فصاحبي قد قضى طفولته في الرّيف وهو مغرمٌ به إلى حد الجّنون، ومن المعروف أنّ خشب الدّردار لا يستعمله غالبًا سوى أهل الرّيف، وقد يستخدمه أيضًا أولئك الأشخاص الذين قضوا طفولتهم في الأرياف، وأعتقد أنّ هناك قلّة قليلة تحب هذا النوع من الأخشاب بغض النظر عمّا تشير إليه من انتماءٍ للرّيف.

آه**!** كم أهوى تأمُّل مثل هذه المناظر الساحرة؛ إنها تجلب السّرور والبهجة إلى نفسي، ليتني أستطيع أن أشُمّ رائحة البرتقال الآن، عليّ أن أفتح النافذة فلربّما نفذت من خلالها الرائحة إلى هنا، ولكن كيف؟ إنّني لا أرى القفل الخاص بها**!** أين هو يا تُرى؟

قفزت من مكاني عندما **صرخ چايدن بعُنف قائلًا:**

- يا سيّد مايكل، ماذا هل انتهيت من عملِ تقريرٍ مُفصّلٍ للحُجرة!

استدرت ناحيتهما حيث كانا يجلسان إلى المائـدة، ويحدّقان بي، فتركت النافذة وشأنها وتقدّمت إليهما بابتسامة عريضة.

قلت وقد جررت الكرسي لأقعُد:

- يبدو أنّني قد نسيتُ نفسي تمامًا لِمَ لَمْ تتناولا الطّعام؟ ما كان عليكما أن تنتظراني أبدًا!

افتضحتني رجفة خفيفة عندما تناولت منديلًا قماشيًا، ورحت أُجفّف قطرات العرق التي صارت تتساقط من جبيني، **فتابعت قائلًا:**

- الحقيقة أنّني أنتمي لتلك الفئة التي تهتم اهتمامًا بالغًا بالتفاصيل وهذا يؤرقني كثيرًا، بل ويضعني في مواقف محرجة مع الآخرين، ولا سيما إن نزلت ضيفًا في منازلهم، ولكن ما إذا تعلّق الأمر بمنزل أحد أصدقائي فإنّني لا أبالي البتّة، لا أنكِر شعوري بالخجل في بادئ الأمر، ولكن ما هي سوى دقائق معدودات ثمّ أتصرّف وكأني في منزلي تمامًا!

مددت يدي باتجاه سلّة الخبز، **ثمّ أردفت:**

- كما وأحسب أنّهُ من الطبيعي جدًّا أن يحِس المرء بالخجل من صاحبِهِ عندما يلقاه في منزِلِه، وهذا ليس مقتصرًا على المنازل فحسب؛ بل قد يكون ذلك في أيّة مكانٍ آخر، سواء أكانت حديقة أو مقهى وغيرها من الأماكن التي يمكنهما أن يلتقيان فيها، لست أعلم سببًا محدّدًا لذلك الصنف من الخجل، ولكن الأحرى أن يكون السبب كامنًا في طول المُدّة التي لم يلتقيا فيها، لا أدري! ولكن هذا ما لاحظته في نفسي هذا اليوم – أعني عندما وصلت إلى هنا – فقد شعرت بالخجل من چايدن مع أنّني ما كنتُ لأخجل منه سابقًا!

قلت جملتي الأخيرة عندما التهمت قطعة لحمٍ كبيرة، وأخذت

ألوكها بفمي يمينًا وشِمالًا، ابتلعتها بصعوبة، وارتشفت قليلًا من العصير خلفها محاولًا دفعها لئلا تخنقني، لم يعلّق أيًّا منهما على كلامي أو حتّى يبدي رأيه فيما قلت، فعجبت لذلك؛ لذا نقلت بصري – الذي كان مرتكزًا على طبق الباستا – إليهما، **وقلت باستغراب**:

- ما الذي دهاكما؟ ما لكما لا تأكلان!

قال چايدن الذي فغر فمه من شدّة ذهوله:

- أمّا أنا فإنّني لا أستطيع تناول الطعام وأنتَ تثرثر هكذا، أضف إلى ذلك أنّي في حالة ذهول، وحينما أدخل في هذه الحالة عادةً فإني لا أقوى أبدًا على تناول الطّعام!

أمسكت بطبق الباستا وصرت أُدخلها في فمي بالشّوكة دفعةً واحدة، ثمّ رُحتُ أمضغها باستمتاع وقد مددت يدي نحو السَلَطة وما إن ملأت ملعقتي بالكثير منها ورفعتها بحيث أصبحت قريبة من فمي، **حتّى تساءلت:**

- ولكن ألن تُخبرني بالأمر الذي تسبب في إدخالك بحالة الذّهول هذه؟ وأنتِ يا سيّدة لورين هل دخلتِ معهُ في ذات الحالة أيضًا؟

قال چايدن وهو ينظر لملعقتي التي أدخلتها في فمي:

- الحقيقة أنّ شراهتك هذه هي التي أصابتني بحالة ذهول، فأنا لا أذكر أنّك كنت تأكل بمثل هذه الشّراهة من قبل، فقد كنت أول شخص يُنهي طعامه قبل الجميع،كما أن القدر الذي كنت تتناوله

كان قليلًا جدًّا، وعندما كنّا نسألك عن سبب ذلك كنت تقول "**بأنّك لا تشتهي الطّعام إطلاقًا وبأنّهُ لا يغريك في كل الأحوال**"، وليس هذا فحسب! بل إنّك كنت تخبرنا عن شعورك بالغثيان عندما ترى أيّة أطباقٍ دسِمة، حينها أوصاك آرثر بالذهاب إلى أخصائي للتغذية، ولكنّك رفضت ذلك قائلًا بأنّك "**لست مريضًا وإنّما هذه هي طبيعتك**"، ولكنّي أرى اليوم خلاف ذلك! فصاحبي يتناول الطّعام بِنَهم، فما الذي عساه قد تغيّر يا تُرى؟

كنت أنصِت إليه مُستمتعًا بمذاق السّلطة في ذات الوقت، وعندما ابتلعت لقمتي وهممت بإجابته، **قالت لورين:**

- صحّة وعافية يا سيد ديفيد، نعم يبدو الأمرُ كذلك! يمكنني القول بأنّني دلفت مع زوجي في ذات الحالة، وإن كان محور ذهولي مُختلفٌ عن محوره تمامًا، إنّ ما أذهلني في الحقيقة هو قوة صبرُك وتحمّلك لكل هذا الجوع خلال الساعات الماضية؛ إذ أنّ تناولك للطعام بهذه الطريقة يوحي دون أدنى شك إلى قوّة ذلك الجوع الذي كنت تخفيه عنّا، أنا آسفة لأجلك! لابد أنّك لم تتناول شيئًا منذ الصّباح عدا البسكويت الذي قدّمه لك زوجي!

كنت قد استغلّيت فرصة حديثها، وانتقلت لتناول شطائر السّبانخ الساخنة، ربّاه إنّها لذيذة المذاق حقًّا، لذيذة إلى الحدّ الذي كنت أتناول معه واحدةً تلو الأخرى، ولكنّني أحجمت عن تناول المزيد منها عندما

أنهت لورين كلامها، **وقلتُ بنبرة مبحوحة:**

- في البداية وقبلَ أن أجيب عليكما، أرجوكما أن تتناولا طعامكما قبل أن يبرُد، هيّا أود أنا أراكما وأنتما تفعلان ذلك!

تعالت أصوات ضحكاتهما إلاّ أن صوت صديقي الحاد قد طغى على صوت زوجته النّاعم، **وما لبِثا أن قالا بصوتٍ واحد:**

- مخادِع! تريد أن تشغلنا، حتّى تتمكن من تناول المزيد من الطّعام!

ضحكت ضحكة خفيضة لا تكاد تُسمع، **وأجبت:**

- كلاّ! ليس الأمر كذلك، ولكن عليكما أن تنظرا إلى السّاعة، إنّها الثانية عشرة إلاّ رُبع، فإن بقيتُما على حالِكُما هذا، تتساءلان وتثرثران فسوف تبيتان ليلتكما بلا ريب بمعدةٍ خاوية، يمكنكما الاستماع إلى ما سأقوله وتناول هذا الطّعام الشهي في آنٍ واحد، تمامًا كما كنت أفعل قبل قليل!

تنحنحت محاولًا استعادة صوتي الذي بات يختفي تدريجيًا نتيجةً لِما تناولته من كميات كبيرة من الطّعام!

قال چايدن وهو يسكب كأسًا من العصير له ولزوجته:

- حسنًا، انظُر ها قد بدأنا الآن، فلتخبرني عن السّر وراء هذا التحوّل الكبير في شهيتك!

أضافت لورين التي وضعت قطعةً صغيرة من اللحم في طبقِها:

- ولا تنسَ أن تُخبرني أنا أيضًا عن آخر مرّةٍ تناولت فيها طعامك قبل مجيئك إلينا!

حاولتُ تناول المزيد إلاّ أنّ معدتي قد أبت أن تستقبل أيّة طعام آخر، الحقيقة أنّني شعرت بالامتلاءِ والتُّخمة، إلّا أنّ تنوُّعَ الطّعام وطيب مذاقه كانا يُغرياني لتناول الكثير منه على الرّغم من كلّ شيء، لكنّني قررت أخيرًا أن أرتاح قليلًا ثم أعاود التهام المزيد منه، لذلك أسندت ظهري على الكرسي مُسترخيًا، **ثم قلت:**

- أقسم لك يا چايدن بأنّهُ ما من سر عظيم خلف هذا التغيّر في شهيتي، فكل ما في الأمر أنّني شعرت بتعب وإرهاق شديدين منذ حوالي شهر من سفرِك إلى **لندن**، حينها توجّهت للمشفى، طبعًا كان ذلك بعد تفكير عميق، فأنا أمقُت المُستشفيات كثيرًا، وأنت وحدك يا صاحبي من يعلم السبب وراء ذلك...!

حسنًا، ماذا كنت سأقول؟ ما هذا فقد نسيت! آه نعم تذكرت! كنت سأقول وما إن رآني الطبيب حتّى وبّخني على إهمالي وتقصيري في تناول الوجبات وأخبرني بأنّني أُعاني من سوءٍ في التغذية، وقال بأنّني إن بقيت على هذا الحال ولم أتّبع نظامًا غذائيًا متوازنًا؛ فسوف أكون عرضة للإصابة بأمراضٍ عديدة لا حصر لها ...

حينها أخرج قائمة طويلة بأسماء الأمراض المُرتبطة بسوء التغذية

وأصبح يردّدها على مسامعي، في الواقع أنّني شعرت بالهلع من كلامهِ، ولكن ما دفعني لاتخاذ قراري النهائي بالذهاب إلى خبير تغذية لكي يرى حالتي هو كلماته الأخيرة التي ما زالت عالقة في ذهني حتّى الآن:

"إنّ ما تُعاني مِنه في الوقت الحالي ما هو سوى بادرة لأمراضٍ سيئة آتيةٌ في طريقها إليك، عليك أن تسرِع في اللحاق بصحّتك؛ وإلا فإنّ شبابك سيفنى لا محالة"!

كان چايدن يأكل الأرُز بالخضار بِنهم، ويستمع إليّ بإذعان شديد، أمّا زوجته فكانت تتناول قطعًا صغيرة جدًّا من الطّعام، وبعد كل لقمة كانت تنشّف فمها بمنديلها القُماشي، تساءلت في نفسي عن سبب تناول النساء لطعامهن بهذه الطّريقة!

فكّرت أنهنّ ربّما كنّ يظلمنَ أنفسهنّ كثيرًا هكذا، أعني بحرصِهنّ أثناء تناولهنّ للطعام على سلامة أناقتهنّ ومظهرهنّ، إنّهُ لأمر مُتعِب فعلًا أن يركّز المرء على مظهره أثناء الأكل، مسكينات أظن أنّ مثل هذا الأمر يحرمهنّ لذّة الطعام؛ فما أروع أن يجعل الواحد منّا جُلّ تركيزهِ على طعامه، الحق أنّني لا أرفض فكرة الاهتمام بالنظافة ومراعاة الظهور بمظهرٍ مرتّب وأنيق، ولكن ألا يمكن تأجيل ذلك إلى ما بعد الأكل، حينها يمكن لكل شخص أن يتوجّه حيث المغسلة، وهناك يمكنه تنظيف فمه وغسل يديه ووجهه، أعتقد أن الأمر في غاية البساطة! فلست أدري لِمَ يعذّبن أنفسهنّ هكذا!

أمسك چايدن كأس العصير، وما إن رفعه على مقربةٍ من فمه؛ حتّى تذكّرت عادته السيئة في شرب المشروبات، **فقال:**

- آه إنّني لأدين حقًّا بالكثير من الشُّكر لذلك الطّبيب، لقد فعل خيرًا وافرًا بكلماتهِ تلك، فلو لم ينطق بها لبقيت هزيلًا أصفرًا فاقدًا للذّة الطعام إلى أن تموت، الحمد للرّب الذي أنقذك بهدايتك إلى ذلك الطبيب تحديدًا!

وما إن أنهى حديثه حتّى ابتلع العصير كلهُ في رشفةٍ واحِدة، وكالمعتاد راح حلقه يصدر أصواتًا مضحكة، كنت أحاول إخفاء ضحكتي حتّى لا أحرجه أمام زوجته **عندما سألتني هذه الأخيرة:**

- لمَ لا تُجِب عن سؤالي يا سيّد مايكل!

أحسَست بأنّ ضحكتي ستكتم أنفاسي إن استمرّيت في كبحها بهذا الشكل، ولكن سرعان ما أخذت نفسًا عميقًا لأتخلص منها، **وقلت بنبرة جادّة:**

- نعم كنت سأُجيبكِ الآن، الحقيقة أنّني لم أتناول هذا اليوم سوى وجبة الإفطار، كان ذلك قبل أن أصعد إلى القطار بنصف ساعة، أي في حوالي السّاعة الثانية عشرة والنّصف ظُهرًا، أعلم أنّ هذا ليس هو الوقت السليم لتناول وجبة الإفطار، ولكنّني كنت مشغولًا ببعض الأوراق التي كان يتعيّن عليّ إنجازها قبل الشروع في أيّة شيءٍ آخر.

لا أنكر وجبة الغداء تلك التي تم تقديمها في القطار بعد ساعة من صعودي إليه، ولكن الصّدق أنّني لم أتناول منها سوى لقمة واحدة؛ إذ إنّني لا أحبّذ أبدًا تلك الوجبات التي يقدّمونها هناك.

قالت لورين وقد وضعت كأسها بهدوءٍ على المائدة:

- إنّني أتفق معك بشأن النقطة الأخيرة، إذ أنّ الوجبات التي تُقدَّم على متن القطار عادةً ما تكون باهتة ولا طعم لها، ولكن ما لا أتّفق فيه معك هو إهمالك لوجبة الفطور وتأجيلها إلى ساعات متأخرة من النّهار، كان عليك أن تُقدِّم كل ما يتعلّق بأمر صِحتك على تلك الأعمال، ألست محقّةً في ذلك يا چايدن!

قال چايدن الذي مدّ لي طبقًا من الحلوى الباردة:

- بكل تأكيد يا فتاتي!

كنتُ متنعّمًا بتناول الحلوى عندما طُرِق الباب ودخلت خادِمة كهلة تحمِل بين يديها رسالة، بدا واضحًا أنّها تخص صديقي چايدن.

تقدّمت نحو صديقي الذي كان يرمقها بنظرات فضولية، **وقالت:**

- أرجو المعذرة يا سيّد چايدن، يبدو أنّني أتيت إليك في الوقت الخطأ، ولكن عليّ أن أضع هذه البرقية الهامّة التي وصلت ظهيرة اليوم بين يديك.

أخذ البرقيّة منها، **وسألها باستغراب:**

- ولِمَ لم تُحضريها إليّ منذ ذلك الحين؟

أطرقَت لوهلة، **ثمّ قالت:**

- سيدي، لقد بحثت عنك في أرجاء القصر لأسلّمك إياها، ولكنّني لم أجدك! وما إن سألت الحارس فوستر عنك حتّى أنبأني بأنك خرجت بعد تناولك للغداء مباشرة، كنتُ في عجلةٍ من أمري حينها؛ لذلك لم أستطع انتظارك، فقرّرت إيداعها لدى إيميليا كما وقد أوصيتها بأن تُسلّمها لك حالما تراك، ولكنّي فوجئت عندما عُدت الآن ووجدت الرّسالة على حالها، فتلك المُغفّلة لم تكن لتُبالي بما قد أوصيتها به!

قال چايدن وهو يقلّب البرقية بين يديه:

- دعكِ من إيميليا، وأخبريني بالأمر الذي ألهاكِ عن انتظاري.

رمقتهُ بنظرة متوتّرة قائلة:

- في الواقع أنّني .. أنّني كنت قد ذهبت ...

قامت لورين من مقعدها وتقدّمت باتجاه تلك الخادمة، **ثم قالت:**

- لقد استأذنت منّي صباح اليوم للذهاب إلى ابنتها المريضة يا زوجي.

وضعتُ طبق الحلوى الذي أنهيته على المائدة، **ثُم قلت محاولًا إخماد النّزاع قبل تفاقمه:**

- ما بِك يا رجُل! مالي أراكَ تُضخِّم الأمر وتمنحهُ أكبر من حجمه الطبيعي؟! فهذه هي البرقية قد وُضِعت بين يديك! فلتكفّ عن التحقيق مع هذه المسكينة!

رمقتني تلك الخادمة بنظرة امتنان ثمّ استأذنت بالخروج، أمّا چايدن فبقي ممسكًا بتلك البرقية، يُحدّق فيها وهو شارد الذّهن.

سألتهُ لورين بقلق:

- ما الأمر يا عزيزي؟ أهناك ما يزعِجُك!

قال وقد تجهّم وجهه:

- إنّها برقية من إدوارد جاكس، لابد أنّه قد بعث إليّ يسألني أن أتعمّد إلحاق الخسارة بنفسي ليفوز هو في السّباق!

صَمَتَ للحظات، ثم تأمَّلني **وقال متسائلًا:**

- أظنُّ أنك لا زلت تذكره يا مايكل، أليس كذلك؟

أحطت بيدي اليمنى ظهر الكرسي ثم وضعت قدمًا على قدم، **وأجبته قائلًا:**

- بكل تأكيد، فكيف لي أن أنسى ذلك اللّص الغبي المُخادع، ولكن.. احم... لكن هل الجائزة المالية كبيرة إلى الحد الذي يجعله يطلُب منك طلبًا كهذا؟

أجابني عندما شرع يفتح ظرف الرّسالة بتوتّر:

- لستُ أدري تمامًا، ولكن دعنا نقرأ الرّسالة حتّى نتبيّن الخطب!

شبّكت لورين أصابع كفّيها بتوتّر، ووقفت خلف چايدن **الذي بدأ يقرأ الرّسالة بصوتٍ عالي**:

السّيد العزيز كليمنت ...

أود إبلاغُك فقط بأنّني قادمٌ إليك في تمام الثانية عشرة من ظهيرة يوم الغد؛ فهناك الكثير ممّا أريد قولهُ لك، وأعتقد بأنّ عليك الإذعان والاستجابة لما سأُمليه عليك، وإلاّ سيكون لي تصرّف آخر حيال ذلك، أظن بأنّني لستُ بحاجة لكتابة كلَّ شيء هنا، سيكون الأمر واضِحًا أشدّ الوضوح حالما ألقاك.

قد تتساءل الآن وأنت تقرأُ رسالتي هذه لمَ لا أكتب لك ما أبتغي قوله هنا وننهي الأمر على عجل؟

حسنًا عليك أن تعلم جيّدًا أنّني لستُ مُغفلًا، لأترُك خلفي دليلًا يُدينني ذات يوم!

أطيب التحايا...

زميلك/ إدوارد جاكس

وحال انتهائه من قراءة الرسالة ضحك ضحكة ساخرة، **ثم قال**:

- إنّهُ ما زال غبيًّا كما عهدناه! الأبله لا يعلم أن السّطر الأخير بحد ذاته دليل جيّد يُستخدم ضدّه إذا ما تعرّض لي يومًا ما!

قلت وأنا أحدّق في تلك الورقة:

- ليس السطر الأخير فحسب، بل إنّ الرسالة بأكملها توحي بوجود أمر مريب؛ عليك أن تحتفظ بها جيّدًا يا چايدن.

قالت لورين التي كانت حريصة أشدّ الحرص على إتمام ضيافتي على أكمل وجه:

- آه دعونا من هذا الشخص الكريه الآن، ولتتفضّل يا سيد مايكل معي إلى غرفة الاستقبال، فهناك سنحتسي القهوة معًا!

نظرت إلى الساعة التي كانت قد عُلّقت على الحائط الواقع خلف رفيقي، **وقلت:**

- يا سيّدة لورين ألم يُخبركِ أحدهم يومًا بأنكِ في غاية اللطف والرّقة؟ إن لم يوجد من فعل هذا؛ فذا أنا أخبركِ بل وأؤكد لكِ ذلك، هنيئًا لصاحبي بزوجة مثلكِ، أعلم تمامًا أنكِ تبذلين ما بوسعكِ في سبيل إسعادي وحصولي على الرّاحة التّامة، فأنتِ لا زلتِ تنظرين إليّ كضيف، على الرّغم من قولي لكِ بأنّني لستُ سوى صديق حميم لچايدن، ولكن هذه نظرتُكِ في نهاية الأمر ولن أستطيعَ تغييرها مهما حاولت، ممتنٌ جدًّا لجمال خُلقكِ، ولكن أرجو أن تلتمسي العذر لي، فأنا لن أستطيع ارتشاف القهوة معكم حاليًا؛ ولا تنسي بأنّني قد تناولت قدرًا كبيرًا من الطعام ؛ لهذا أشعر بالامتلاء في معدتي، كما أنّ الوقت قد تأخر فالسّاعة الآن الثانية

عشرة والنّصف فضلًا عن كوني مُرهق وبأمّس الحاجة إلى النّوم؛ لذا كرمًا دُلّيني على حجرة النّوم.

ألقيتُ نظرة سريعة على رفيق روحي الذي كان عابِسًا، **فمضيتُ قائلًا:**

- أرجوك يا چايدن! توقّف عن التّفكير في ذاك اللّص القذر، صدّقني لن يستطيع فعل أيّ شيء، إنّهُ مغفل لا يجيد سوى التهديد والوعيد، دعكَ من أمره يا عزيز قلب صاحبك، وصباح الغد بمشيئة الرّب العظيم سوف نجد حلًا مناسبًا له، هيّا فأنا لا أرغب في الخروج من هنا قبل أن أرى ابتسامتَك الجميلة!

وما إن قلت جملتي الأخيرة حتّى ابتسم ابتسامة عريضة جدًّا، عريضةً إلى الحد الذي ظهرت معه أسنانه الخلفية، **ثمّ قال بصوتٍ مُضحِك:**

- أتقصِدُ هكذا؟

الحقيقة أنّني لم أستطِع السيطرة على تفكيري بأنّهُ ينفع للتهريج مع فئةٍ من المُهرجين في أحد مراكز السِرك في المنطقة، **فانفجرتُ ضاحِكًا!**

نظر إليَّ مُتسائلًا وهو بتلك الوضعية المُزرية، حاولتُ تمالك ضحكتي، وما إن نجحت في ذلك، حتّى أعدت نظري إليه مُجدّدًا، لأجيب عن سؤاله، ولكنّني سرعان ما عاودت الضحك عندما رأيت وجهه على تلك الحال، وبينما كنت غارقًا في الضّحك، **وَشْوَشَ**

صوتٌ في أعماقي قائلًا:

كفى يا مايكل! كفّ عن الضّحك، فإن لم تفعل فستصبح أنت المُهرج بدلًا عنه، فعزَفتُ فورًا عن الضحك، **ثم قُلت له:**

- بلى! بلى هكذا، المُهم ألاّ أراك عابِسًا!

ابتسمت لورين، **وقالت بنعومة:**

- أووه! يا سيّد مايكل ها قد ظهر تأثير الإرهاق وقلّة النّوم واضحًا جليًّا عليك، إنّك تشبهُني تمامًا، فما إن يقل نومي حتّى يزداد معدّل ضحكي، حتّى وإن لم يكن هناك سبب يُذكر خلف هذا الضّحك!

عَبرَتْ الحجرة صوب الباب، **وهي تقول:**

- انتظرني سوف أستدعي الخادمة لتصطحبك إلى غرفتِك.

نهض چايدن من مقعده فيما نهضت أنا أيضًا، **دنا منّي وقال:**

- لقد تمكّنت من خداع تلك المسكينة بأنّه ما مِن سبب يذكر وراء ضحكك المفاجئ، وبأنّ ذلك لم يكن سوى تأثير ناجم عن السّهر وقلّة النوم، ولكنّك تعرف تمام المعرفة بأنّك لا تستطيع خداعي أيُّها الأرعن!

وضع إصبعهُ على دماغي ثم استطرد:

- فأنا متأكد من أنّك قد استغتبتني في عقلك الغبّي هذا؛ لذلك كنت تضحك بعنف، أليس كذلك أيُّها الصّاحب السّخيف!

ابتسمتُ ابتسامةً باهتةً وقلت:

- حسنًا! لِماذا لم تقل أمامها بأنَّك عرفت السرّ وراء ضحكي ما دُمتَ تراها مسكينة ومخدوعة!

صرخ في وجهي قائلًا:

- أيُّها الغرّ! أنت تعلم بأنّني لا أقدِر على فعل ذلك؛ فأنا لا أُطيق أن تراني زوجتي أضحوكة لشابٍ جاهلٍ مثلك!

قلتُ بعد أن تثاءبت:

- حسنًا! حسنًا! لا تصرخ في وجهي، أمّا فيما يتعلّق باستغتابي لك، فهذا أمر صحيح لا أُنكره البتّة، فقد قلت عنك في نفسي بأنّك تصلُح أن تكون ضمن فئة المُهرجين في أحد مراكز السِّرك، ثمّ إيّاك يا حبيبي والاعتقاد بأنّ هذه هي المرّة الوحيدة التي استغتبتُك فيها مع نفسي، بل فعلت ذلك مرتين منذ أن جاءت لورين، وقد أعلمتك بواحدة منها قبل تناول العشاء.

قاطعني قائلًا:

- يا لك من وغد!

تجاهلته تمامًا وتابعت قائلًا:

- ليس لديّ خيار آخر، فلو نطقت بما يجول في نفسي من مَذمّة وسخرية أمام لورين؛ لكنت غضِبت منّي، أليس كذلك!

ضحك ضحكة قصيرة وقال:

- أيُّها المحتال!

رحت أتأمل عيناه مليًّا، عيناه اللتّان سرعان ما افتضحت أمره، وأخبرتني بخوفه وقلقه حيال تهديدات إدوارد، ربتُّ على كتفه بيدي اليمنى، **ثمّ قلت مواسيًا:**

- چايدن يا عزيز قلب صاحبك! هوّن عليك، لا تخشَ شيئًا فالرّب معك، ثمّ ها أنا ذا بجانِبك لن أتخلّى عنك ما حييت، ولن أسمح لذلك اللص القذر بأن يمسّك بأيّة أذى، وكما قلت لك سنجد حلًا سليمًا يخلّصنا من شرّه بعون الإله المُعين، ثمّ لا تنسى بأنّك تحمِل دليلًا يُدينه، ولكن حذارِ أن تنبِّهه بأمره، فكل ما عليك هو إخفائه جيّدًا حتّى في حال تعرُّضك للأذى منه تُقدّمه للشُّرطة!

اعتلت وجهه ابتسامة هادئة وقال:

- حمــدًا لإلهــي الذي أرسلك لزيارتـي في هذه الفتـرة تحديدًا يا مايكل؛ فأنت يا صديقي متّكأي الذي أتّكأُ عليه حالما تجتاحني الأحزان والآلام، أجل! أنت سندي الذي أستند عليه كلما اشتدت بي المحن!

اكتفيتُ بمعانقته عناق الأخ الصّغير، الذي لا يحتمل بتاتًا أن يرى أخاه الكبير حزينًا؛ فلم يكن ثمة ما أقوله ردًّا على كلماتِهِ الحنونة تلك.

دخلت لورين إلى الحجرة مرّة أخرى، وجاءت خلفها الخادمة

إيميليـا، فأدركـتُ سريعًا بأنّ تلك المُتعجرفة الحقيرة؛ هي التـــي ستصطحبُني إلى حجرتي فامتعض وجهي.

قالت لورين برقّة:

- سيّد مايكل، الخادمة إيميليا ستقودك إلى حُجرة نومِك، تمنّياتي لك بليلةٍ سعيدة!

أجبتها بنبرة مُرهقة:

- ولكِ أيضًا، شكرًا جزيلًا للطفكِ!

نقلت نظري لچايدن، **وقلت له بصوت أقرب للهمس:**

- طابت ليلتك، أرجو أن تفعل ما أوصيتُك به، سأذهب الآن، ألقاك غدًا بإذن الرّب!

سِرت صوب الخادمة إيميليا التي بدا واضحًا أنّها كانت تنتظر مجيئي بنفاد صبر، وما إن بتُّ قريبًا منها **حتّى قلت بصوت غليظ:**

- هيّا! خذيني حيثُ حجرتي!

قالت بنبرة هادئة ومهذّبة:

- أمرك سيّدي، تفضّل معي...

***

هل كان أحدهم يتنصَّت علينا؟

سرتُ بجانبها وصرت أفكر في أمرها، فهي تبدو غريبة الأطوار، والدليل على ذلك أسلوبها المُهذّب قبل دقائق، عجبًا! فعندما أتحدّث معها بغلاظة؛ أجدها مهذبة ورقيقة، وإن أحسنت لها بالقول وترفّقت فيه؛ قوبِلت بالإساءة منها!

وبينما كنا نرقى السُّلم صعودًا للطابق الثّاني، وعلى حين غرّة توقّفت إيميليا واستندت إلى الحائط، ثمّ وضعت يدها على صدرها الذي كان يعلو ويهبط وكأنّها قد بذلت مجهودًا جبّارًا، صحيح أنّني كنت أمقُتها، ولكنّني لم أستطع أبدًا أن أقِف مكتوف اليدين دون تقديم أيّة مساعدةٍ لها! لذا اقتربت منها، **وقلت**:

- يا آنسة أأنتِ بخير!

قالت بصوتٍ مختنق:

- أبي! إنّ ابنتك تموت تدريجيًّا في هذا القصر القذر، يا أبي لستُ أقوى على ذلك، صدّقني لستُ أقوى.

وما إن قالت جملتها الأخيرة حتّى انهارت وأخذت تجهش بالبكاء، كانت تبكي بحرقة شديدة، كما أنّ صوت بكاؤها كان مؤلم إلى الحد

الذي أحسست معه أنّ قلبي يتمزّق، فعلِمت أنّها تتألم من أمرٍ قاسٍ وفظيع، وإلاّ لما كان بكاؤها بهذا الشكل المؤلم، أعتقد أن ما يشعر به المرء داخليًا يتجلّى بوضوحٍ في طريقة بُكائه وانهيارِه!

أخرجت زجاجة ماء صغيرة كنت قد احتفظت بها ظهيرة اليوم في جيب معطفي عندما قدّمها لي أحد موظّفي القطار، فمددتها إليها **قائلًا بنبرة حنونة:**

- يا آنسة! أرجوكِ اهدأي واشربي القليل من الماء!

نظرت إليّ وقد غطّت الدموع عينيها الزرقاوين، كانت مترددة في أخذ عبوّة الماء، ولكنّها في النهاية تناولتها من يدي، وراحت تشرب القليل.

راحت تمسح الدمع عن عينيها بظاهر كفيها، فقد كانت تقاوم كما وتحاول جاهدة أن تستعيد صلابتها وتنهض قبل أن يراها أحدهم.

فلم أتردّد أبدًا في مساعدتها على ذلك، لذا قدّمت إليها منديلي القماشي لتكفكف دمعها، **ولكنّها رفضت قائلة:**

- لا، لا حاجة لذلك يا سيّدي، إنّه منديلك، لا أريد أن أفسِدهُ عليك.

قلت بحدّة:

- ما هذا الذي تقولينه! عليكِ أن تمسحي دموعكِ قبل أن يراكِ

أحدهم، لا أريد لأيّة شخص أن يرى إيميليا الفتاة القويّة الصّلبة، بل والمُتعجرفة جدًّا وهي تذرف الدّمع هكذا!

ابتسمت بنعومة وقد ابتلعت عبراتها في آنٍ وآحد، **ثمّ تساءلت**:

- أحقًّا تراني متعجرِفة!

أدخلت كفّي في جيب معطفي، **وقلت**:

- وحتّى لا أصَنَّف ضمن قائمة المُخادعين، نعم صحيح إنّني أراكِ شديدة التعجرف وليس هذا فحسب! بل إنّكِ ذات أقوالٍ متناقضة.

قالت بنبرة مدهوشة:

- آه يا إلهي! أكنت تحمِل كلّ هذا في قلبِك عليّ!

ابتسمَت بلطف:

- ولكنّه لم يعد في قلبي منذ هذه اللحظة، فقد بُحت لكِ به.

قدّمت المنديل إليها مرّة أخرى، **وقلت**:

- هيّا خذيه، وإيّاكِ أن ترفضي، لأنّكِ في هذه الحالة سوف تجبريني على التصرّف معكِ بشكلٍ مختلِف!

قالت بتحدّي:

- وما الذي عسى أن يفعله شابٌ رقيق يعتني بالقطط كالأطفال تمامًا!

رمقتها بنظرات غاضبة، **وقلت بجدّية:**

- لقد أسأتِ إليّ بقولكِ هذا عند وصولي إلى هنا، وأراكِ تكررّين الشيء نفسهُ الآن!

اختفت تلك الابتسامة التي كانت قد ارتسمت على مُحياها قبل لحظات، **وقالت معتذِرة :**

- إنّني لآسِفة جدًّا، فلم أكن أعلم بأنّ كلامي هذا يثير انزعاجك، فكل ما في الأمر أنّني أرى بأنّ الطّفل خير ما يمكن تشبيه المرء به، فهو لايؤذي أحد إطلاقًا، وفيما يتعلّق بتلك الكلمات التي صدرت منّي هذا المساء؛ فلم أكن أقصد بها الإساءةِ إليك، نعم أقسِم لك يا سيّدي بأنّ المعنى المُختبئ خلفها لا يمُت للإساءة بصلة؛ وإنّما أردت القول بأنّ الشاب الذي تكون أكبر اهتماماته رعاية قطّة من المؤكد أن عقله ما يزال خاليًا من خبث الحياة وألاعيبها تمامًا كحال الطّفل، أظن أنّني أخطأت وقتها إذ لم أُحسن صياغة ما أردت قوله، فقد جمعتُ مابين معنيين مختلفين في كلامي، بوسعك أن تُسمّي أحدهما تذمُّر، والآخر أسى وحسرة على حالِك!

صمتت لوهلة وأمسكَت ذقنها بإصبعيها السّبابة والإبهام، ثمّ رفعت نظرها للأعلى وكأنها مُحقّق يحاول التوصّل إلى أمرٍ ما، **فتابعت قائلة:**

- لو سمحت يا سيّد، سوف أضطر إلى إعادة تلك العبارة التي أزعجتك!

"**هذا ماكان ينقُصكِ يا إيميليا الاعتناء بالقطط، يبدو أنّ سيّدكِ يصاحب شاب بعقل طفل**" نعم هذا كل ما أذكر أنّني تفوّهت به**!**

حسناً، كل ماعلينا الآن هو تجزئة العبارة إلى معنيين وهذا يتطلّب منّا بكل تأكيد تقسيمها إلى قسمين **القسم الأول** والذي أطلقتُ عليه قبل قليل مسمّى "**التذمُّر**" يتمثّل في قولي: "**هذا ما كان ينقُصكِ يا إيميليا الاعتناء بالقطط**". هذا الجزء يا سيّدي يختبئ خلفه المعنى الأقل خطورة إذ كنت أعني به أنّ متاعب وأشغال هذا القصر لا تنتهي في أيّ حالٍ من الأحوال وليس هذا فحسب، بل إنّ الأمر قد تجاوز حدّه لدرجة أنّهم باتوا يلقون على عاتقي مهمة العناية بحيوانات الضّيوف**!**

أمّا **القسم الثاني** والذي كنت قد أطلقتُ عليه مسمّى "**الأسى**" يتمثّل بالطبع في قولي: "**يبدو أنّ سيّدكِ يصاحب شاب بعقل طفل**". بالنسبة لهاتين الكلمتين "**عقل طفل**" كنت قد فسّرتها لك قبل عدّة دقائق وأقسمتُ لك بأنّها لا تمُت للإساءة إليك بصلة، ولكن المعنى الحقيقي للعبارة صعب، صعبٌ جدًّا؛ وفي هذه العبارة تحديدًا تكمن الخطورة بالنسبة لي، إذ أنّني لا أقدِر أن .. أن ... الحقيقة أنّني ...

أطرقت بعد أن تلعثمت فصار الصّمت سيّد الموقف للحظات، وبشكل مباغت رفعت رأسها وأطالت النظر في عينيّ، **ثمّ قالت بنبرة غاضِبة:**

- لِمَ ترمقني هكذا؟ لِمَ لا تصدّقني؟ يا إلهي لا أعرف! لِمَ لا

تفهمني؟ فقد وضّحت لك الأمر، بل إنّني أقسمت بأنّني لم أكن أقصد الإهانة، يا سيّد مايكل إنّ التّحدث عن السّبب الذي دفعني لقول تلك الكلمات في غاية الصّعوبة، لا أظنّ أن بإمكاني البوح به ولا سيما إليك أنت، فقد تشكّل خطورة عليّ إن أخبرتك به، أوَ لستَ صاحِبه – أعني صاحب السيّد چايدن – أرجو أن تفهمني!

الحقيقة أنّ إيميليا قد سلبتني عقلي بجمال أسلوبها وطريقتها التحليلية في شرح تلك العبارة، كما أنّها قد أذهلتني بدفاعها عن نفسها بطريقة مهذبة ومنطقية، وكذلك حرصها على إثبات حقيقة أنّ الإساءة لم تكن موجّهة إليّ قد أسرني، الصّدق أنّها نجحت في إقناعي بأنّها لم تكن تقصد الإهانة لي، وبالرغم من ذلك كلّه كان لديّ فضول لمعرفة ذلك السبب المُختبئ خلف تلك العبارة!

فكرت أنّه ينبغي عليّ أن أتظاهر أمامها بعدم تصديقي للمعنى الذي أخبرتني به؛ وبذلك ستُضطر للإفصاح عن ذلك المعنى الخطير، إذ يبدو واضحًا أنّ الفتاة لا تُطيق أن تجرح أحدهم أو تسيء إليه، وهذه تعتبر نقطة – غاية في الأهمية – من نقاط الضّعف التي قد تؤخذ على شخصيتها إن لم تكن نبيهة وصارمة مع الجميع، من يدري فقد يستغل أحدهم هذه النّقطة ليحصل من خلالها على مايريد، تمامًا كما أفعل أنا الآن!

قلت بعدم مبالاة راجيًا أن أنجح في استدراجها لمعرفة السّر الذي تخفيه:

- كفى يا آنسة! فأنا لا أرغب بتاتًا في سماعِ أيّ شيء، لُطفًا قوديني إلى حجرة النّوم فقد تأخر الوقت كثيرًا.

تركتها خلفي ورقيت درجتين من درجات السّلم، وما هي سوى لحظات حتّى قفزت الدرجتين ووقفت بجانبي، **فصارت تقول بسخط**:

- عندما أتحدّث إليك فإنّه يتعيّن عليك أن تهتّم لِما أقول، هل تفهمُ هذا؟ ثم إنّني اعتذرتُ منك، فلِمَ تحدّثني بهذه اللا مبالاة؟

قالت جملتها الأخيرة عندما أمسكتني بكتفيّ وأدارتني نحوها فتظاهرت حتمًا بالدّهشة، كما أنّني لم أنبس ببنت شفّة، ولكنّني **قلت في نفسي بسرور**:

مرحى يا مايكل يبدو أنّك قد نجحت في استدراجها، هيّا، هيّا أكمل!

أكملت تقول:

- سيّد مايكل، أرجوك افهمني، فأنا.. أنا حسنًا فلتنظر إلى عينيّ فقط فإن كنت حاذقًا في قراءة العيون سوف تجد أنّ هناك ما يرهقني كِتمانه، ويقتلني البوح به صدّقني أنا لم أقصد الإساءة، أود إخبارك بالأمر، ولكن.. لكن أخشى أن ...!

عدلت عن إكمال حديثها عندما سمعِنا صوت أقدام على مقربة منّا فأشارت إليّ بيدها لكي أتبعها على عجل، ففعلت ذلك وصعدنا السّلم ركضًا؛ وما إن وصلنا إلى الممر المُفضي إلى حُجرة النّوم في الطابق الثاني حتّى توقّفتُ ووضعتُ يديّ على ركبتيّ وصرتُ أطرد أنفاسي

محاولًا الإمساك بها لكيلا تفلت منّي!

كانت إيميليا قد سبقتني إلى باب الحجرة القابعة في نهاية الممرّ، وما إن التفتت ورأتني واقفًا أستجمع أنفاسي حتّى عادت أدراجها نحوي فأمسكتني مع كفّي **قائلة**:

- هيّا! عليك أن تسرع وإلاّ فإنّهم سيوبّخونني!

قلت بصوتٍ مكتوم:

- آه، آه، لا أستطيع، إنّني أختنق!

قالت برجاء:

- أرجوك حاول ياسيّدي!

تحاملتُ على نفسي وتبِعتُها بسرعة، وما إن دخلنا إلى الحُجرة حتّى أغلقت الباب واستندت عليه وراحت تستجمع أنفاسها، أمّا أنا فقد خلعت معطفي، واستلقيت على الأرضية الخشبية محاولًا استعادة تنفّسي الطبيعي!

تبادلنا النّظرات للحظات، **ثم قالت مُتسائلة**:

- أتظن بأنّ أحدهم كان يتنصّتُ علينا؟

***

سأجعلهُ يشعر بما شعرَ به والدي

اتكأتُ بمرفقي على الأرض، **ثم قلت بنبرة جافّة:**

- فليُنصِتوا كما يحلوا لهم، فلم يكن في حديثنا ما يمكن الاستفادة منه.

قالت بقلق وهي تشبّك أصابع يديها ببعضها البعض:

- قد لا يكون مهمًّا بالنّسبة لك إلاّ أنّه يشكّل خطورةً بالغةً علي، ومن المحتمل أيضًا أن يُحتسب دليلًا دامغًا يُدينني إذا ما حدث شيءٌ ما ذات يوم!

قلت بذهول عندما حملت معطفي وانتصبت:

- شيءٌ مثلُ ماذا؟ المعذرة لم أفهم ما قُلتهِ يا آنسة؟

قالت بنبرة مرتجِفة:

- أعني.. أعني أنّهُ ربّما وقعت جريمة قتل، حينها.. حينها لن يتردّدوا ولو للحظة في إلصاق التُّهمة بي!

قلت محاولًا سحب الكلام منها:

- ولكنّكِ ما تفوّهتِ بأيّ حديث خطير يشير إلى القتل، فكلامكِ ذاك لم يكن سوى تبريرٍ لي بأنّكِ ماكنتِ تقصدين إهانتي، وإن كنت لم أصدّقه على أيّة حال، ثمّ ليس ثمةَ سبب يدفعكِ لارتكاب

جريمة قتل، مابكِ يا آنسة ألستِ واثقةً من نفسكِ!

قالت بصوت بائس:

- يا سيّد مايكل، يجِب أن تعلم بأنّ هناك الكثير من الأعداء، المعذرة هم ليسوا أعداءً وإنّما منتقمين يتربّصون بصاحبك ويسعون إلى اقتناص الفرص التي تُمكّنهم من تنفيذ انتقامهم، لستُ أعلم كيفية ذلك، فمن المؤكد أنّ لكل واحدٍ منهم طريقته الخاصة في الانتقام، ولكن كل ما أعلمه هو أن الأمر قد يصل بهم إلى القتل!

يا سيّدي هولاء المُنتقمين كانوا أناسًا مسالمين لا يعرفون للشّر طريقًا، ولكن ما فعله بهم ذاك المجرم قد جعل منهم أشخاصًا قُساة وضعوا الرّحمة جانبًا وبدأوا رحلتهم في عالم الانتقام ذلك العالم المليء بالدماء، والسلب، والخداع، والحرمان!

هؤلاء المُنتقمين لم يتعرّضوا لهُ إطلاقًا، وإنّما هو من تعرّض لهم وسلبهم أموالهم أضف إلى ذلك أنّهُ قد أقدمَ على حرمانهم من أشياء عدّة لا يمكنهم الاستغناء عنها في حياتهم اليومية وليس هذا فحسب، بل قد وصل الأمر به لأن يتسبّب لهم بعاهاتٍ مؤلمة هم في غنى عنها، بالضبط كما فعل مع والدي فقد حرمه من التنعُّم بنعمة الأقدام، تبًّا له، ما أقذره!

شعرت بقلق على چايدن **فسألتها بخوف:**

- ولكن ما الذي فعلهُ صديقي لوالدُكِ حتّى فقدَ قدميه يا آنسة؟!

قالت والغضب ينبعِث من عينيها:

- أولًا عليكَ أن تقطع لي وعدًا بأنّك لن تُخبِر أحدًا بما قلتهُ لك سابقًا وبما سأقولهُ الآن ولا سيما ذاك الخبيث چايدن.

أجبتُ بحدّة:

- أعِدُك يا آنسة، ولكن أرجو أن تُحسِني ألفاظُكِ قليلًا فإنّ الشّخص الذي تتحدّثين عنهُ هو صديقي في نهاية الأمر وأنا لا أقبل البتة بأن تُسيئي إليه!

سارت باتجاه السّرير، وما إن قعِدت عليه حتّى **قالت:**

- صدّقني أنا لن أسيء إلى صاحِبك كثيرًا، ولكنّني أسعى لاستعادة حقوق والدي، أرجوكَ لا تعتقد بأنّني سوف أقتُله فهو في نهاية المطاف أب ولديهِ طفلتين وأحسب أنّ هذا الأمر قد زاد من صعوبة مهمتي فلو لم يكن مُتزوّجًا ولديه أطفال لكان انتقامي منهُ عنيف، أجل عنيفٌ جدًّا، ولكن يبدو أن أطفاله وزوجته قد نجّوه بعد الرّب من الهلاك؛ إذ عليه أن يشكر الإله عليهم.

اتكأت بكفّها الأيمن على السّرير **واستطردت:**

إنّ ما فعله بوالدي ليس بالأمر الهيّن، لقد كان والدي زميلهُ في العمل لستُ أعلم كيف طاوعتهُ نفسهُ أن يغدُر بزميله! من أجل ماذا؟ من أجل ترقية فقط! يا لدناءته فعلًا!

يا سيّد مايكل ، لقد كان والدي موظّفًا في إحدى شركات البلاستيك في لندن عندما عُرِضت عليه فُرصة ثمينة للعمل بشركةٍ للبترول، فما كان ليُفلِت من يديهِ فرصة كهذه حينها، فرصة قد لا تأتي بالعُمر سوى مرّة واحدة، لذا قرّر تقديم استقالتهُ في شركة البلاستيك تلك، وما إن باشر عمله في الشّركة الجديدة حتّى تغيّرت حالتهُ النّفسية وأصبحت أفضل بكثير من ذي قبل كما أنّهُ قد تعرّف على الكثير من الزملاء المُحبّين الجيّدين، الحقيقة أنّني لا أُنكِر لحظات السّعادة التي كانت تنتابُ أبي في السّابق ولكنّها لم تكُن مثل السعادة الفائقة التي أحاطت به في تلك الأيام خاصّة!

تنهّدت ثم أكملت:

- كانت الأمور تسير على ما يرام حتّى أتى ذلك الموظّف المشؤوم والذي كان قادمًا من نيويورك، أذكر أنّ والدي أخبرنا يومها بأنّه قد ارتاح له وأحبّه كما وراح يُثني على شخصيته وخُلقِه إلاّ أنّ والدتي حذّرتهُ قائلة "**يا عزيزي ، عليك ألاّ تأمن لأيّة شخص حتّى تُظهِر لك الأيام مواقِفهُ تِجاهك ، يا ألتِموس ليس كلّ - صاحب وجه مريح ومظهر محترم - شخص جدير بالثّقة صدّقني هناك العديد ممّن تمّ خداعهم والإيقاع بهم وكل ذلك نتيجةً للثقة المفرطة التي منحوها لمن ليس بأهلها**"، لكنّ والدي لم يضع نصيحتها نُصبَ عينيه، فمرّت الأيام وثِقة أبي بذاك القذر لا تزال تزداد يومًا بعد يوم، يا سيّدي تلك الثّقة لم تكن ثقة سليمة مبنيّة على المواقف

الصّادقة وإنّما ثقة مبنيّة على الأقاويل الكاذبة والمواقف المُزيفة التي استطاع السّفاك الحقير أن يوهِم بها والدي، وهكذا استمرّت الثّقة إلى أن أتت الشدائد التي افتضحت أمره حتّى بات واضِحًا جليًّا أمام الجميع، نعم كان ذلك عندما شاعت أنباء بترقية والدي بحيث يُرقّى من كونهِ مجرد موظّف عادي إلى وكيلٍ للمدير العام للشّركة، ومنذ ذلك الحين تغيّرت معاملته لوالدي جذريًّا لدرجة أنّهُ أصبح يفتعِل العديد من المُشكلات ويدّعي بأنّ والدي هو المُتسّبب الأول فيها؛ طمعًا في أن تتغيّر نظرة المُدير له بحيث يراهُ شخص سيء فيتراجع على الفور عن قرار ترقيته، ولكنّه لم يتمكّن من ذلك ، فقد كان والدي أكثر هدوءً وتغاضيًا عن تلك السلوكيات السيئة التي يثيرها في سبيل استفزازه وإثارة أعصابه ومع ذلك كُلّه لم يتوقّع والدي بتاتًا بأن يصِل الأمر بزميله الحسود لأن يخطّط ويُرتّب لقتله في سبيل الحصول على ذلك المنصب، إنّ ما يؤلمُني حقًّا هو...

توقّفت فجأة وراحت تُحدّق في تلك الأسورة التي كانت تُزيّن يدها اليسرى.

فقلتُ بلهفة:

- أكملي يا آنسة، ما الذي جرى بعد ذلك؟

نهضت، وبنبرة مليئة بالحُزن أجابت:

- يؤلمني إكمال ما جرى، يؤلمني أن أتحدّث عن ذاك الحادث الذي خُدِع فيه والدي، يؤلمني صدّقني!

قلتُ محاولًا معرفة المزيد حول ذلك الحادث:

- ولكن أيّ نوعٍ من الحوادثِ تقصدين؟

تقدّمت باتجاهي وهي تقول:

- حادِثُ دهس، نعم لقد أراد ذلك الوغد أن يُجهِزَ على والدي، ولكن لم يكن لهُ ما أراد، وقد أخبرنا أحد الموظّفين من زملاء والدي الأوفياء، والذين يشكّون في كون چايدن هو المسؤول الوحيد عن الحادث أنّ ذاك المُجرم كاد أن يُصابَ بمسٍّ من الجنون عندما علِم بأنّ أبي ما يزال على قيد الحياة، ولكن سُرعان ما احتلّت ملامح الارتياح وجههُ عندما علِم بأنّهُ قد بات مُقعدًا ولم يعُد قادرًا على تحريك قدميه مطلقًا، المُغفّل لم يعلم بأنّ ملامحهُ قد افتضحتهُ أمام الموظّفين، ولكن ما يزعجني حقًّا هو أنّه ليس ثمة دليل واضِح ضِدّه وإنّما كل الذي لديّ هو..!

قلتُ محاولًا تبرئة صديقي:

- لحظة يا آنسة ألا تُلاحظين بأنّكم قد ألقيتم بالتُّهمة عليه جُزافًا! كيف تحكمون على أحدِهم بالسّوء من خلال ردّة فعله فقط!

ألم تفكّري بأنّ ردّة فعله تلكَ طبيعية لمن يسمع خبرًا سيئًا عن عدوّه اللّدود في العمل؟

فمِن المُمكن أن يكون قد سمِع بأمر الحادث فصار يتمنّى أن يموت والدكِ حتّى يخلو له الجو وتتاح له فرصة الترقية، ولكن عندما أتى زميل والدكِ ليُبلِغه بأنّهُ لم يمُت صُعِقَ وخابت آمالُه، بل كاد أن يُصاب بمسٍّ من الجنون كما تقولون، فقد كانت هذه فرصته الوحيدة - كما يرى شخصيًّا - للحصول على مآربه، ولكن سريعًا ما عادت إليه البهجة والفرح عندما علِم بأنّ أبيكِ لم يعُد يستطيع الحراك وبذلك ظهرت علامات الارتياح على ملامحه! الحقيقة أنّني لا أؤيد إطلاقًا ما فعلهُ صديقي مع والدكِ، إنّها حماقاتٌ وحركاتٌ صبيانية تافهة، ولكنّي أثِق في چايدن فهو لا يفعلها، نعم چايدن لا يقتُل مهما حدث، قد يفعل أيّ شيء للوصول إلى هدفه لكنّه لا يقتل! أتسمعيني؟ لايقتل!

ومن ذا الذي يدري ربّما كان المُقدِم على الحادث شخص آخر، شخص يضمر لوالدك الشّر وهو لا يعلم بأمره، ومن المحتمل أيضًا أن يكون الحادث محضُ صدفة، أعني غير مُخطط له سابقًا من قِبل أيّة شخص!

اختتمتُ حديثي بقولي:

- يا آنسة علينا ألاّ نتّهم أيّ شخص ونُكِنّ لهُ العِداء قبل أن نتأكّد ونتبيّن من حقيقة الأمر!

نظرت إليّ بوجهٍ متجهّم، **ثمّ قالت بسخط:**

- أراك تحاول جاهدًا إظهار براءة صديقك، ولكن أيُّها السيّد

المُحترم أنا لم أُنهِ حديثي بعد، عليك أن تستمِع إليّ حتّى النهاية، حينها فقط باستِطاعتُك تولّي مهمة الدفاع عنه، هل هذا واضح؟

أشاحت بوجهها عنّي، **ومضت تقول:**

- عليكَ أن تعلمَ جيّدًا بأنّنا أُناسٌ مُسالمون لا نعرِف لإيذاء الآخرين طريقًا، ولكن من يتجاوز حدودهُ معنا ويتعرّض لنا لابدّ أن ينال عقابًا عادلًا، كما وأنّني لم أتحدّث معك في الموضوع إلاّ ولديّ ما يكفي لإثبات صحّة أقوالي، نعم لديّ أدلّة، ولكنّها ضعيفة للغاية أمام الشّرطة، لهذا السّبب فضّلتُ أن أقتصّ لوالدي دون اللجوء للسّلطة.

فبالنسبة **للدليل الأول** الذي يُدين صاحِبُك المُجرم هو اتصاله بوالدي وطلب النّجدة منه بحجّة أنّ مكابح سيّارته قد تعطّلت في الطريق المؤدية إلى الغابة وليس هذا فحسب، بل إنّهُ محظوظ للغاية إذ أنّ السماء حينها أمطرت فلم يتردّد أبي المسكين في الذّهاب لإنقاذه ومد يد العون إليه في مثل هذا الجو.

أمّا **الدليل الثاني** الذي قد أُخِذَ عليه هو أنّهُ لم يكن يرتدي ما يُغطّي وجهه!

يقول والدي أنّهُ لم يجد چايدن ولا حتّى سيّارته عندما وصل لتلك الطريق المُظلمة المفضية إلى الغابة؛ لذا خرج من سيارته وراح يتفقّد المكان سيرًا على الأقدام لعلّهُ يعثر عليه في الأنحاء، ولمّا سئِمَ من

البحث عنه قرّر العودة أدراجه معتقِدًا بأنّ هناك من سبقه وهبّ لنجدته.

وبشكل مُفاجئ وبينما كان والدي يعبُر الطريق قاصدًا مركبته؛ ظهرت سيّارة مسرِعة في طريقها إليه، حاول أن يركُض حينها ليتفاداها إلاّ أنّ قدميه لم تسعِفاه من شدّة الهلع الذي ألمّ به ساعتها فلم يكن أمامه أيّة خيار سواء الاستسلام...

قاطعتها بفضول:

- وكيف علِمَ والدكِ بأنّ الدّاهِس هو چايدن؟ ثمّ ما أدراه بأنّه لم يكُن يغطّي وجهه لئلا يراهُ أحد؟

نظرت إليّ بحدّة وقالت:

- ألا تستطيع السيطرة على لسانك هذا يا سيّد؟ ألم آمُرك ألاّ تُقاطعني؟!

قلتُ بحنق:

- ما دام الأمر يتعلّق بصاحبي؛ فلا أعتقد بأنّهُ يُمكِنُني ذلك، أرجوكِ أن تُجيبي عن سؤالي يا آنسة؟

قالت بنفاد صبر:

- كنتُ سأتحدّث بهذا الشأن، ولكنّك قاطعتني فلو أنّكَ صبرت قليلًا لسمِعت الجواب!

تنحنحت ثم استطردت:

- حسنًا، لقد أخبرنا والدي بأنّه حاول جاهدًا أن يُحدّد هويّة صاحب السيّارة من مكان وقوفه، كان ذلك عندما فقد الأمل في الهروب والنجاة من ذلك الحادث المأساوي، فقد كان يُحدّث نفسه حينها قائلًا: "**عليك أن تكتشِف هذا الشّخص يا ألتموس فقد تنجو حينها وبمعرفتِك له تستطيع مقاضاته، كما أنّك ستستفيد من ذلك أيضًا حال وفاتك فإذا ما شرّحوا عيناك حينها فسوف يتعرّفون عليه بلا ريب بما أنّهُ آخِر شخص تطلّعت إليه!**"

ولكنّه يا للأسف لم يتمكّن من ذلك في بادئ الأمر بسبب النور الأمامي العالي للمركبة، أظن أنّه تعمّد استخدام النّور العالي؛ لكيلا يتمكّن والدي من رؤيته والتعرّف عليه، ولكنّ الغبي لم يعلم بأنّ والدي قد تمكّن من ذلك عندما ارتطم بالدعّامة الأمامية للمركبة، وما إن تعرّف على قاتله؛ حتّى فقد الوعي تمامًا، فظنّ چايدن أنّهُ قد فارق الحياة وولّى هاربًا!

تنهّدت تنهيدة مليئة بالأسى على حال والدها، **وأضافت:**

- المسكيّن أراد تقديم العون ولم يعرِف ما كان ينتظره من مكائِد قذِرة!

نقلت بصرها الذي كان مستقِراً على الحائط إليّ، **وقالت:**

- ها قد أخبرتُكَ بكل ما لدي، يمُكِنك الآن الدّفاع عن صاحِبكَ إن أردت.

أخذَ قلبي ينبِض بقوّة كما أنّني بدأتُ أشعر ببرودة في أطرافي، فأنا لا أُصدّق بتاتًا بأنّ چايدن قاتل فصِرتُ أتساءل في أعماقي: **لِمَ فعلت هذا ياصاح؟! لِماذا ظلمتَ نفسكَ من أجل ترقية سخيفة؟** كنتُ أتمنّى أن أسمعَ صوت چايدن الحنون وهو يُجيب عن تساؤلاتي ويؤكّد لي بأنّهُ لم يفعل ذلك إطلاقًا، وبأنّ تلك لم تكُن سوى اتهامات يُريدون إلصاقها به، كم أتمنّى أن أسمع صوته الآن!

ولكن ما سمِعتهُ في هذه اللحظة تحديدًا كان صوت إيميليا التي أعادت جملتها الأخيرة عندما لم تجِد منّي ردًّا، نعم لم يكُن صوت رفيق قلبي.

أفقتُ سريعًا من شرودي **وأجبتُها بصوتٍ مُرتجِف:**

- أرجو المعذِرةَ منكِ يا آنسة، فأنا لن آخُذ كلامُكِ هذا على محملِ الجدّ فلستُ ممّن يُصدّق أيّة حديثٍ سيء عن صديقُه قبل أن يتبيّن حقيقة أمره، ومع ذلك أرجو أن تصفحي عنهُ، لابدّ أنّهُ نادِمٌ الآن على ما فعله، طبعًا هذا إن كان قد فعل ذلك حقًّا.

خلَعت القُبّعة التي كانت تضعُها فوق رأسِها، وسارت ناحية المقعد الخشبي وما إن وضعتها عليه **حتّى قالت بعدم اهتمام:**

- أمر التصديق هذا عائدٌ إليكَ في نهاية المطاف، ولكن ثِق تمامًا بأنّني لم أقُل سوى الحقيقة.

قالت جمُلتها الأخيرة ثمّ راحت تفتحُ بحنق تلك الشريطة التي

كانت تجمعُ بها شعرها، **وهي تتذمّر قائلة:**

- سُحقًا لقد أوصيتُها ألاّ تَعقِدها بشدّة، ولكنّها حمقاء لا تفهم أيّة شيء .

وما إن استطاعت فتحها **حتّى صرخت:**

- آهٍ كم كان هذا مؤلمًا! لا أطيق تجميع شعري بهذه الطريقة، ولكن ماذا عساي أفعل!

بقيتُ أُراقِبها بإعجاب فقد كانت حسناء فاتنة ذاتَ شعر حريري مكسو بلون الشوكولا الجميلة!

التفتت ناحيتي بينما كنتُ مُنسجِمًا، غارقًا في تأمّل تفاصيلها وما إن وقعت عينيّ بعينيها **حتّى قلت مُرتبكًا:**

- أنا آسِفٌ لأجلِ والدُكِ يا آنسة، وحمدًا للرّب الذي أعادهُ إليكم سالمًا، صحيح أنّ فقدانه القدرة على المشي والحركة أمر مؤلم ومأساوي، ولكنّه في نهاية المطاف أهون بكثير من مُفارقتهِ للحياة!

ولا تنسي بأنّ الأمل موجود دائمًا فهُناك العديد من الطرق التي يُمكِنكم اتّباعها معه حتّى يستعيد قدرته على المشي مجدّدًا كجلسات العلاج الطبيعي مثلًا .

قالت بمرارة:

- لكنّ الطبيب أكّد لنا بأنّهُ ليس ثمة ما يُفيد إطلاقًا، يا سيّدي لقد

تحدّثنا إلى الكثير من الأطباء بخصوص قدميه، ولكنّهم كانوا يقولون لنا ذات الكلام في كلّ مرة عدا ذاك الطّبيب الذي كان مختلف عن البقيّة تمامًا فقد قال لنا بأنّهُ من المُمكن جدًّا أن يستعيد أبي قُدرته على الحركة في أيّة وقت ولربّما كان السبب خلفَ تعطُّل قدميه صدمة نفسية حادّة!

قلتُ بنبرة متفائلة:

- حمدًا للرّب، ألم أقُل لكِ بأنّ هناك أمل كبير لأن تستصِحّ قدماه ويعاوِد الحركة بها من جديد، يا آنسة عليكِ أن تُحسني الظّن بالإله القدير حينها فقط سوف ترين أنّ الأمور تسير على نحو مُبهِر وجميل!

مرّرت أطراف أصابعها بين خُصلات شعرها وصارت تُمشِّطهُ بها، **ثمّ نظرت إليّ بأنوثة مُذهِلة وقالت:**

- إنّكَ على حقٍّ في ذلك يا سيّدي، إنّ ما تقوله أمر في غاية الأهمية!

ساد الصّمت بيننا للحظات، **ولكنّني سرعان ما قطعته بسؤالي:**

- ولكن يا آنسة كيف قَبِل چايدن توظيفُكِ هنا وهو على علم بأنّكِ ابنة ألتموس؟

اتكأت بكفّيها على طاولة التسريحة الخشبية وراحت تُحدّق بعينيها إلى انعكاس صورتها في المرآة، **ثم قالت:**

- لقد جاء لزيارة والدي في الليلة التي تلت الحادث مباشرة، أذكر أنّ تصرّفاته كانت توحي منذ دخولهِ مع الباب بالسّخرية والاستهزاء وما إن جلس مع والدي في حُجرته حتّى قال له بتفاخر: **"أنصِت جيّدًا يا ألتموس، عمّا قريب سيُعلَن نبأ ترقيتي، نعم سوف يرقّيني المُدير وكيلًا له عِوضًا عنّك، بما أنّكَ أصبحتَ رجُلًا ضعيفًا عاجزًا لا يقوى على فعل شيء سوى النّوم، النّوم فقط"**.

ابتعدت عن المرآة ووضعت كلتا يديها على أذنيها، **وتابعت بنبرة مرتجفة:**

- أطلق حينها ضِحكة مليئة بالشّر والسّخرية، ضحكة خبيثة لا يزال إيقاعها يتردّدُ في مسامعي حتّى هذه اللحظة!

لم يُبدِ أبي أيّة انفِعال وإنّما كان هادئًا كعادته، الأمر الذي استفزّ ذلك القاتل وجعلهُ يمتازُ غضبًا، فقد أراد أن يرى ملامح البؤس والحزن على وجه والدي، ولكنّ ما أرادهُ لم يكُن.

حينها غادر الحجرة غاضِبًا، وأغلق بابها بعنف مُفزِع أمّا أنا فقد كنتُ أقِفُ خلف الأريكة الموجودة في الصّالة الأمامية عندما اقترب منّي وأخذ يتفحّصني بعينيه الخبيثتين ثمّ قال بنبرة ماكِرة أعرِفُها جيّدًا: **"أيّتُها الحسناء، إنّ والدُكِ سيخسر وظيفته عمّا قريب حينها سيؤول وضعكم إلى البؤس لامحالة كما وسيُهيمن الفقر على هذا المنزل، عليكِ أن تكوني نِعمَ الابنة المُساندة لوالدها بحيث تعملي"**أحسستُ

بخوف شديد في تلك اللحظة وتساءلت قائلة: "**أعمل؟**" فأجابني "**نعم يجِب أن تقبلي بأيّة عمل يدرُّ عليكِ بالمال الوفير الذي يمُكنكِ إنفاقهُ على والديكِ وإخوتُكِ في سبيل الإبقاء على ثبات هذه الأسرة، ومن بابِ الرّحمة والشفقة عليكم ها أنا ذا أعرِضُ عليكِ فرصة العمل كخادمة لديّ في القصر**".

أذكرُ أنّني حينها صِحتُ في وجهه رافضة الفكرة، ولكنّه قال: "**لا تتسرّعي يا طفلتي عليكِ أن تفكّري مليًّا، فلا زلتِ حسناء في ريعان الشّباب تنقصكِ الكثير من الأشياء التي تُبرِز جمالُكِ كالفساتين والحلي والمجوهرات مثلاً، فإن وافقتِ على العمل لديّ ستحظين بالكثير منها!**".

وقبل أن ينصرِف دنا منّي وهمس في أُذني "**إيّاكِ أن تُفكّري بعملٍ آخر غير هذا لأنكِ لحظتها ستجلبُين لأسرتُكِ الكثير من المهالِك، نعم المهالِك كوني حذِرة!**"

آه يا سيّد مايكل فلقد كاد يغُشى عليّ آنذاك من شدّة الذعر الذي ألمّ بي من كلماته، ولكنّي ما لبِث أن استجمعت شجاعتي وبدأت أرسم خُطّتي حتّى أقتص لوالدي منه وبعد تفكير عميق اتّضح لي أن الفرصة قد قدِمت إليّ بقدميها "**أن أعملَ في قصره وأقتله بهدوء**" هكذا كانت خُطّتي؛ لذا لم أتردّد في الاتصال به وإخباره بموافقتي، المسكين سُعِدَ بهذا الخبر مُعتقِدًا أنّني وافقتُ خِشيةً من تهديداته، لقد كان غبيّ ولا يزالُ كذلك.

بالطّبع كان هذا بعد أن أخبرت أفراد عائلتي بما أرمي إليه من كلِّ ذلك، صحيح أنّهم رفضوا قراري في البداية خوفًا عليّ، ولكن بعد إلحاح شديد تقبّلوا هذا بحُزن وألم، وهكذا بدأتُ العمل كخادمة في قصرهِ القابع في لندن لمُدّة سنتين تقريبًا، وبعد ذلك قرّر العودة إلى نيويورك بحجّة أنّ هناك فرصة وظيفية أفضل بكثير من التي كان يشغلها أعني وظيفة - وكيل المديرالعام - التي مقت والدي لأجلها!

قد تتعجّب وتتساءل لِماذا لم أنتقِم منه خلال السنتين الماضيتين؟! حينها يُمكِنني أن أقول لك بأنّني لم أفعل ذاك حتّى أضمن ثقتهُ المطلقة بي، نعم يجِب أن يأمن لي بشكل كلّي بحيث لا يتعقّب تحركاتي وكلُّنا نعلم أنّهُ كلّما زادت مدّة عمل الخادمة ازدادت ثقة أصحاب الدار بها، أظن أنّ سنتين ونصف كفيلة تمامًا بجعلهِ يحكُم عليّ بالوفاء والإخلاص لهذا سأشرعُ عمّا قريب بتنفيذ مُخطّطاتي.

تذكّرتُ على الفور ما قالهُ چايدن مساء اليوم عن وفاء وإخلاص إيميليا وكذا تضحيتها وتركِها لعائلتها وموطِنها من أجل العمل لديه في القصر كما أنّ دِفاعهُ المُستميت عنها ورفضه لطردها كان دليلًا واضِحًا على أنّهُ قد وقع في مصيدتها!

المسكين انطلت عليه الحيلة، يا ليتهُ عمِل بنصيحتي وطرَدَها لقد كنتُ ذا نظرة ثاقبة عندما حذّرتهُ منها، ولكن الآن لم يعُد باستطاعتي عمل أيّ شيء!

يا إلهي! ماذا كانت ستفعل بي لو علِمت بأنّني كنتُ قد حذّرت چايدن منها! بل وطلبت منه أن يطرُدها من هذا القصر، لا شكّ في أنّها ستجعلني حينها هدفها الأول وتُجهِز عليّ قبل صاحبي، حمدًا للرّب أنّها لا تعلم!

مسحتُ لحيتي بحركة سريعة، **ثمّ تساءلت بفضول:**

- يا آنسة ألم تتمكّني من معرفة السبب الذي كان يدفع صاحبي چايدن لإقناعُكِ بالعمل في قصرِه!

أمسكت بسوار يدِها وصارت تعبثُ به، **ثمّ قالت:**

- في البداية كنتُ أجهلُ ذلك، ولكن في نهاية الشّهر الأول من عملي هُنا اكتشفت السّر الكامن خلف ذلك الإصرار، أجل فقد أراد لوالدي أن يشعُر بالذُّلِ والهوان، أذكر أنّهُ في نهاية شهر أكتوبر قدّم لي أُجرتي ثمّ اتصل بوالدي وقال له: "**أنت مدينٌ لي بالشُّكر، نعم عليك أن تشكُرني وتمتنّ لي كثيرًا، فلو لم أسمح لابنتك بالعمل خادمة في قصري؛ لكنتُم قد مُتم من الجوع والفقر، يجِب أن تتذكّر دائمًا بأنّكم تعيشون على شفقتي ومالي الذي أنفِقهُ عليكم أيُّها المساكين**".

أنهت حديثها بتنهيدة وراحت تجمعُ شعرها بالشريطة مرّة أخرى وما إن انتهت وأعادت قبّعتها إلى رأسها، **حتّى قالت:**

- هذا كل شيء، أرجو أن تُبقيَ هذا الأمر سرًّا بيني وبينك يا

سيّدي، كما وأؤكد لك بأنّني لن أقتُل صاحِبك وإنّما أُريد أن يشعُر بما شعر به والدي المسكين.

ألقيتُ بمعطفي الذي كنتُ أحمِلهُ بيدي على الأرض واقتربتُ منها، **قائلًا بعينين قلقتين:**

- أتُريدين القول بأنّكِ ستحرِمينَهُ من نعمة الأقدام كما حرمَ والدُكِ منها؟

ابتسمت ابتسامة شر وقالت:

- طبعًا يا سيّدي العزيز، أوَ ليس الجزاءُ من جنس العمل؟ ولكنّ الأمر معي سيكون مُختلِفًا، نعم مُختلِف إلى حدٍ كبير، فكُل ما سأحتاج إليه ساعتها، كأس من عصير الرّمان والقليل من الحبوب المنوّمة، فضلًا عن منشارٍ لتقطيع الأخشاب شريطة أن يكون هذا الأخير حاد جدًّا حتّى يفي بالغرض، بالنسبة للزمن المُقترح للتنفيذ فسوف يكون – مابين العاشرة والحادية عشرة من مساء يوم الخميس– حيث ستكون السيّدة خارج القصر كالمُعتاد أضِف إلى ذلكَ انشِغال زميلاتي الخادمات بتحضير وجبة العشاء قد تتساءل عن مكان التنفيذ ،حسنًا سوف أُخبِرك ، ستتمّ تلك العملية بالطّبع في حُجرة نومه على فراشهِ الأبيض الناعم!

دنت منّي **وقالت بصوتٍ عذب:**

- لا تقلق! أعِدُك أن أغمُره بالدلال أثناء تلك العملية، لابُد أنك

راغِبٌ في معرِفة ذلك النّوع من الدّلال، أليس كذلك؟

لم أُجِب وإنّما بقيت أتطلّع في عينيها اللتّين بدتا مُخيفتين جدًّا، يا إلهي لم تكُن هكذا قبل قليل، أيقنتُ من نظراتها أنّها عازِمة على الانتقام، لذا فضّلت السكوت على أن تُلحِقني بصديقي وتسلُبني قدماي!

ضحِكت ضِحكة مروّعة عندما صفّقت بيديها، **ثم قالت:**

- هل أخفتُك؟ أووه المعذرة فأنا لم أقصد ذلك سيّدي العزيز، ولكن لِمَ لا تُجيب؟ ألا تُريد معرفة الدّلال الذي سوف يحظى به صديقُك؟ يبدو أنّ الخوف قد ربطَ على لسانِك ومنعكَ من التّحدُّث، حسنًا سأُخبِرك.

اقتربت منّي أكثر فأكثر لدرجة أنّ قدميّ لم تعُدا قادرتين على حملي كما أنّ يديّ صارتا ترتجفانِ بشدّة إلى الحد الذي عجِزتُ معه من السيطرة عليهما، وما إن وقفت خلفي حتّى أمسكت كتفيّ بكلتا يديها، **وهمست في أُذني اليمنى بصوتٍ مُخيف:**

- سوف أقطع قدميه بمنشار الأخشاب الحاد دون أن يشعُر بأيّة ألم أليس هذا بدلال!

انتقلت للأذن اليسرى **وهمست بنفس الصوت:**

- سأُغطّيه بأزهار البنفسج ذات الرائحة العطرية الزّكية، وسأودِعُ بجانبه رسالة إيجابية تُعطيه بصيص أمل لمواصلة الحياة أليس هذا دلالٌ زائد!

أمسكت برأسي وأدارتهُ حيث كانت تقِف ناحية اليمين، **وقالت:**

- وبعد أن أنتهي من مراسِم التقطيع والدّلال سوف أنتقِل إلى مراسم دفن قدميه ، سيكون دفنها مؤثرٌ جدًّا، أتعلمُ لماذا؟!

أووه! لقد نسيت بأنّك قد ابتلعتَ لِسانكَ من الخوف ولم تعُد قادِرًا على الكلام، دعنا من هذا الآن ماذا كنتُ أقول؟ آه نعم كنتُ أتحدّث عن مراسم الدّفن، سوف تكون مؤثرة، بل مؤثرة جدًّا؛ إذ أنّ الكلاب المشرّدة هي من ستتولّى دفن تلك الأقدام القذرة في أمعائها، يا للمسكينة إنّني لآسفُ على حالها.

وما إن قالت كلِمتها الأخيرة حتّى أفلتت رأسي من بين يديها وراحت تعبرُ الحُجرة بخطوات هادئة نحو البّاب.

وقبل أن تُغادِر **قالت بنبرة مُهدّدة:**

- حذارِ أن تلعبَ معي يا سيّد وإلاّ فيسكون عِقابُك أسوأ بكثير من عِقاب صاحِبُك أرجو أن تكون قد فهمت قصدي!

فتحَت الباب، ولكنّها لم تخرج نعم كنتُ أشعُر بأنفاسها فهي لا تزال في الحجرة، يا إلهي! لِمَ لا ترحل؟! لابدّ أنّها تُريد الإجهاز عليّ، فكّرتُ في الالتفات ناحيتها لأعرِفَ ما تفعل؛ لذا حاولت أن أُديرَ رأسي إلى الخلف قليلًا، وما إن نجحتُ حتّى انتفضتُ وأعدتُ رأسي حيثُ كان، لقد كانت خلفي مباشرة ومع ذلك لم أشعُر بها سُحقًا لها!

ضحِكت ضِحكة جمعت ما بين السُّخرية والشّر، **ثمّ قالت:**

- إنّك جبان! ممّ تخاف؟ أوَ لستَ رجُلًا؟!

دنت من أُذني مُجدّدًا وقالت:

- لا تخف إنّما أردتُ أن أقول بأنّ خُطتي تلك ليست ثابتة، فلربّما خطرت لي خطّة أكثر إثارة وتشويق؛ فاحرُص يا عزيزي ألاّ تكون الجزء المُثير من خطّتي الجديدة، أهذا واضِح أيُّها الطّفل اللطيف!

ربتَت على كتفي بيدها عندما قالت جُملتها الأخيرة وبخطواتٍ سريعة عادت أدراجها!

وهذه المرّة بالفعل غادرت وبهدوءٍ الباب خلفها أغلقت.

***

سأمُدُّ يدي إليكَ بطريقةٍ أُخرى

أحطتُ كتفيّ بذراعيّ وكأنني أحتضِنُني، يا إلهي! لا أكاد أتحكّم في جسدي إنّه ينتفِض على نحوٍ مُخيف كما أنّني أشعر ببرودة شديدة في أطرافي!

يا تُرى أهذه هي النّهاية؟

أوَ سوف يُكتب اسمي في قائمة النّعي في جميع الجرائد المحليّة؟

إنّهُ لمن المخزي أن يُكتبَ بخطٍ عريض هذا العنوان: "**القُبطان مايكل ديڤيد يفارِق الحياة إثرَ نوبات هلع تسبّبت لهُ فيها خادمة القصر الحسناء**"

بقيتُ مُتصلّبًا مكاني للحظات، فتأثير تلك الفتاة ما زال يُحيط بي من كل اتجاه، إنّها مُخيفة، مُخيفة جدًّا! فكيف تمكّنت من غرس كل هذا الرّعب والقلق بداخلي!

ما زال ذاك الصّوت الشبيه بفحيح الأفعى يتردّد في أُذنيّ وتلكَ الهمسات الشّريرة تعُم أرجاء المكان، وملامِحُ وجهها المليئة بالشّر ترفُض أن تفارق الجّدران، وضِحكتُها المُرعبة تأبى أن تنجلي عن مُخيّلتي وتترُكني بأمان!

إنّ ما أرعبني حقًّا هو أنّها كانت في مُنتهى أنوثتِها ورقّتِها قبل لحظات، ثمّ على حين غُرّة أصبحت شخصًا آخر، شخص مُتعطّش لسفكِ الدّماء، مُتلذّذ بالانتقام، أعتقد أنّ ما جرى لوالدها قد حوّلها إلى وحشٍ كاسرٍ لا رحمة في قلبه، وحش لا يأبه لأيّة شيء سوى أن ينتقم!

تحاملتُ على نفسي، فحرّكت قدماي وسحبتُ نفسًا عميقًا في محاولة لاستعادة اتزاني، مرّرتُ نظري في أرجاء الحُجرة لعلّني أجِدُ خِزانة الملابس التي أخبرني چايدن في رسالته بأنّهُ قد جهّزها لي طالبًا منّي ألّا أتكبّد عناء إحضار حقيبة مليئة بالملابس معي!

وعلى الرّغم من حالة الخوف والقلق التي مازالت تحاوطُني، كان عقلي قد بدأ بتحليل تفاصيل الحُجرة، الحقيقة أنّ الموضوع خارج عن إرادتي فعقلي التحليلي هو الذي يقودُني للتّطلع إلى تصميم الحُجرة وما بها من محتويات!

يُمكِنني القول بأنّ عقلي في هذه اللحظة قد انقسم إلى نصفين، فالنصف الأول كان يعمل على تحليل محتويات الحُجرة بِنَهم، أمّا النصف الثاني فكان يُحاول إيجاد حلّ مناسب لإنقاذ صاحبي من ذلك الانتقام القاسي، وأيّهما أتّبع لستُ أدري؟!

فالأول سوف يُحلّق بي في عالم المُتعة والتلذّذ بالجماليات، حيث الأثاث، ألوان الجُدران، أرضية الدّار، خزانات الملابس، ستائر النوافذ، وغيرها من التفاصيل التي ستقذِف بالفرح والسّرور إلى قلبي.

لطالما كان التأمل نعمة عظيمة بالنسبة لي أستلذُّ بها وأنطِقُ شُكرًا وحمدًا للرّب الكريم الذي تكرّم عليّ بنعمة البصر؛ لأتمكّن بها من الاستمتاع برؤية الجمال في كل مكان!

أمّا الثاني، فإنّه سيمضي بي إلى عوالم الحُزن والألم والتفكير العميق في العديد من الحلول؛ لإخراج صاحبي من ذلك المأزق الذي ورّط نفسهُ فيه وربّما تبوء هذه الحلول بالفشل فتكتشِف الحسناء أمري، ويحي! أظن أنّها سوف تسحقُني سحقًا لحظتُها!

همس صوتٌ بعيدٌ في أعماقي:

ما هذا يا مايكل؟ أتخشى من فتاة؟ إنّها مُجرّد حشرة ضعيفة لا تقدِر على فعل شيء، عليكَ أن تُنقِذ صاحِبك وإلاّ فسوف تغدو بتكتُّمِك على الأمر خائنًا، قاسيًا، غدّارًا، جاحِدًا للصداقة، والأدهى من هذا كلّه أنّك ستكون شريكًا في عملية الانتقام!

أجبتُ ذاك الصّوت:

لا.. فأنا لستُ كذلك كما أنّ تكتّمي على تلك المؤامرة يصُب بالمقام الأول في مصلحة إيميليا المسكينة، أجل! فلو أخبرت چايدن بما تضمِرهُ له من شر وانتقام لن يكتفي بطردها فحسب وإنّما سيقتُلها، نعم سيقتُلها ولن يتردّد في ذلك البتّة فقد حاول أن يقتل والدها من قبل، أشعر بالألم عندما أتحدّث عن صديقي بهذه الطريقة، ولكنّها الحقيقة التي لا مفرّ منها مطلقًا!

كما أنّني أأبى أن أكون سببًا في قتل فتاة بريئة مُسالِمة لم تُرِد الشّر منذ البداية، ولكنّ صاحبي هو من أجبرها على ذلك بتعرّضه لوالدها ومحاولة قتله، وكُلّنا نعلم أنّ البادي أظلم!

صمتُّ قليلًا ثم قُلت:

لأن أكون شريكًا في عملية انتقام -لا تودي بحياة المُنتقَم منه- خيرٌ من أكون سببًا في إنهاء حياة أحدهم!

همس الصوت مرّةً أخرى:

أتعني أنّك ستتخلّى عن صديقِك!

أجبتُ بصوتٍ عالٍ جدًّا:

كلاّ، لم أقُل هذا، فصديقي لن يُقتل وإنّما سينالُ جزاءً عادلًا على ما فعله بوالد الفتاة، وعليه أن يعيش ذات الشعور الذي شعر به ذاك الرّجُل البائس، عليه أن يُجرّب الحياة بلا أقدام!

همس الصّوت بقسوةٍ هذه المرّة:

لكنّ صديقَك سوف تُقطع أقدامه، ووالد الفتاة شُلّت قدميه بسبب الحادث، شتّان ما بين هذا وذاك، يمكننا القول بأنّ هذا ليس جزاءً عادلًا!

أجبتُ بعدم اكتراث، وكأنّني لم أنهرْ قبل قليل لأجل صاحبي:

الفتاة حنونة - أعني ذلك جيّدًا - فهي تُشفِق على تلكما الطفلتين

كما أنّها تخشى حُزن لورين على زوجها، لهذا السّبب قرّرت أن تُبقي على حياة چايدن وفي ذات الوقت تحرِمه من النّعمة التي حرم غيرهُ منها، من المؤكد أنّها فكّرت بأن تتّسبب لهُ في حادث سير ولكنّها خشيت وفاته، لأنّها ستكون حينئذٍ قد ارتكبت جُرمًا مؤلمًا في حق زوجته وطفلتيه، أظن أنّها لم تلقَ طريقة ملائمة لتشُلّ بها قدميه؛ لذلك فضّلت أن تبتُرهما بترًا، لستُ مُهتمًّا إن كان الجزاء عادلًا أم لا، وإنّما المُهم أن يبقى صاحبي چايدن على قيد الحياة وكذلك الفتاة!

اختفى الصّوت الذي كان يوشوش لي، فما صِرت أسمعُ شيئًا!

حمدًا للرّب! فقد انتابني شعور بالرّاحة بعد أن تبادلت الحديث مع نفسي وأدركت بأنّ صاحبي على خطأ وأنّهُ لابدّ أن ينال جزاءهُ على كل حال، آآآه إنّني مرهق والسّاعة تُشير إلى الثانية صباحًا، لابدّ أن أخلُد إلى النّوم فإنّ لبدني عليّ حقٌ كبير، حسنًا أين تلك الخزانة!

إنّها هناك، نعم أظن أنّها الخزانة التي أخبرني بها چايدن، لقد كانت أمامي طوال الوقت ومع ذلك لم أرهَا، لا لوم عليّ أبدًا، فقد كان عقلي غارق في فوضى عارمة وكذا مشاعري، فلا تركيز لديّ البتّة!

فتحتُ الخزانة وأخرجتُ منها ملابس الاستحمام، ورحتُ أسير بخطوات مُتسارعة ناحية الحمّام، كما أنّني كنتُ أُحكِمُ السّيطرة على عقلي في هذه الأثناء، عقلي الذي أراد أن يُشبع رغبته في تحليل أثاث الحُجرة، ولكنّني تجاهلتهُ تمامًا لا لشيء، وإنّما أردتُ إنجاز ما عليّ من

أمور وبعد ذلك لكُلِّ حادثٍ حديث!

بقيتُ على هذه الحال -أعني مُحكِمًا السيطرة على تفكيري- حتّى أنهيت جميع الأمور التي اعتدت القيام بها قبيل النّوم من استحمام وتنظيفٍ للأسنان وتمشيطٍ للشعر، والترطُّب ببعض المُرطبّات التي تقي البشرة من الجفاف الذي يعتريها في فصل الشّتاء عادةً!

إنّ محاولات المرء لكبح جِماح أفكاره المُتوقدة التي تتأجّج في ذهنه وتأبى أن تقِف ساكنةً للحظات ريثما يُنهي مشاغله اليومية تُحتسب إنجازًا وليس أيّما إنجاز، بل إنجازٌ عظيم يحق له التفاخُر به؛ إذ أنّ التحكّم بالأفكار ليس بالأمر السّهل كما يظن البعض!

خلعتُ ملابس الاستحمام على عَجَلٍ وارتديتُ ملابس النّوم، نظرتُ بحُب إلى خزانة الملابس التي جهزها لي صاحبي، آهٍ كم أنت حنون يا چايدن، كم أنت لطيف يا عزيز قلبَ صاحِبك، لن أُفلِت يدكَ ما حييت، صحيح أنّني لن أكون قادرًا على مد يد العون إليك وذلك بتحذيرك ممّا سيحل بك، ولكنّني مُجبر على فعل ذلك لأمرٍ إنساني للغاية؛ ألا وهو ألاّ أكون -سببًا في التّحريض على القتل- فإذا ما بحُت لك بتلك المؤامرة سيجنُّ جنونكَ بكُل تأكيد وستدفعُك نفسُك العاشقة للدّماء إلى قتل تلك الفتاة المسكينة، حينئذٍ سأكون قد ألحقت الظّلم بثلاثة أشخاص، أوّلهم نفسي بإيقاظ دافع القتل لديك، وأمّا الشخص الثاني فهو إيميليا التي لم تُرِد أن تقتُلك رحمةً بأطفالِك، وبالنسبة للشخص

الثالث، فهو أنت يا رفيق دربي، فتحذيري لك لن يكُون حُب وعون ووفاء بقدر ما سيكون ظُلم لك!

ولكن لا تقلق سأمُدّ يد العون إليك بطريقةٍ أُخرى، طريقة لا يُصاب فيها كلا الطّرفين بأيّة أذى، أجل سأحاول إقناع إيميليا بالعدول عن فكرة الانتقام، وأرجو من الرّب أن يُعينني على ذلك!

مهلًا، ربّاه! إنّها السّاعة الثالثة!

لستُ أعرِف كيف مضى الوقت بهذه السُّرعة؟ لكن يجِب أن أخلُد إلى النّوم حالاً!

هرعتُ إلى السّرير وقذفتُ جسدي عليه بعُنف، ذلك القذف الذي يقذِف فيه المرء عادةً جسده على فراشِ الدّافئ بعد يوم عميق مليء بالمتاعب، ليس شرطًا أن يكون لدينا متاعب لنقذِف بأنفُسِنا، فقد يكون يومًا حافِلًا بالعطاء والإنجاز والأمور الجميلة التي من شدّة روعتها لا يجد صاحبها الوقت الكافي والملائم للاسترخاء وأخذ قسط من الرّاحة!

وبعد أن استلذّيت بقذف نفسي، سحبتُ نفسًا عميقًا متحرِّرًا من كل شعور سلبي مررتُ به خلال ساعات يومي ثمّ استلقيت على جانبي الأيمن إذ أنّ هذه الوضعية هي الأحب إليّ وكلّما حاولت تغييرها ككسرٍ للروتين المُعتاد هاجمتني آلاف الكوابيس المُرعبة وكأنّها تُحذّرني من تغيير وضعيتي الدائمة، أذكُر أنّني كِدتُ أُفارِق الحياة ذات

مرّة عندما كنتُ أُجرّب النّوم على ظهري لقد كان شعورًا مُخيفًا جدًّا، أحسستُ حينها وكأنّ أحدهُم يرقِدُ على صدري حاولتُ أن أدفعه عنّي، لكنّه كان يضغط على صدري أكثر فأكثر لدرجة أنّني شعرت بالموت التّدريجي!

إلهي! عيناي تُغمِضان رُغمًا عنّي، إنّني لا أُبصِر شيئًا سوى الظلام إننّي أنام.. أنام...

وبعد خمس ساعات متواصلة من نومٍ عميق، انتفضَ جسدي بقوّة وقفزتُ من فراشي مذعورًا وصدري يعلو ويهبط وكأنّني كنتُ أبذُل مجهودًا مُضنيًا أثناء المنام، كما أنّني أحسستُ بأنّ أحدهم باتَ يرمِقُني بنظراتٍ حادّة أثناء منامي، ولكن من هول ما بي من سهرٍ وإرهاقٍ لم أفتح عيناي لأتبيّن ذاك الشخص الذي قضى ليلته بالتحديق في وجهي، لستُ أعلم أهو من الجن أم الإنس ولكنّي شعرتُ بوجوده فعلًا، فأنا أنتمي لذاك الصنف من البشر، صِنف الذين يشعرون بالنظرات والأنفاس التي تُحيط بهم حتّى وهم غارقون في سُباتٍ عميق!

***

سرقها.. أم قتل صاحبها؟

الحق أنّني شعرت بجفافٍ شديد في حنجرتي، فالتفتُّ ناحية المنضدة الصّغيرة بجانب السّرير لعلّي أجِد عليها ماءً أبلّل به حلقي، لكنّني للأسف ما وجدت، تذكّرت على الفور زجاجة الماء التي كنتُ أخبّئها في جيب معطفي، فوثبت من فراشي واتّجهت صوب ذلك الكرسي الخشبي الذي كنت قد بسطت المعطف عليه، وما إن أرقيت هذا الأخير إليّ، حتّى صرتُ أبحث بلهفة في جيوبه عن تلك الزّجاجة ولكنّي لم أجدها **فحدّثتُ نفسي**:

عجبًا! أين اختفت تلك السحيقة، أيُعقل أنّني شرِبتُ ما بها من ماءٍ ليلة أمس!

رحتُ أحدّق في وجهي الذي ظهر انعكاسه في المرآة أمامي، وفي ذات الوقت كنت أحاول استعادة ذاكرتي التي بدا واضحًا أنّ النّوم أفقدني إيّاها، بقيتُ خمس دقائق على هذا الوضع، **ثمّ قلت بصوت أقرب للصّراخ**:

أووه! صحيح ها قد تذكّرت! لقد أعطيتها للخادمة إيميليا عندما كانت تبكي على السّلم البارحة!

توجّهت ناحية الخزانة، **وقلت مُتذمّرًا:**

آه تبًّا! هذا يعني أنّ عليّ الذّهاب إلى المطبخ لشُرب الماء وهناك سوف أرى بلا ريب إيميليا الخادمة الحسناء، ربّاه! هذا ما كان ينقُصك يا مايكل أن تستفتحَ يومك برؤيتها!

يا للحظ العاثر!

أوَ لا يكفي أنّني اختتمت يوم الأمس بها؟

ويا ليتهُ خيرَ خِتام تسعد به النفس وتأنس، بل ختام مُرعب تجزع منه النّفس وتسخط، ختام مُكتظ بالشّر والانتقام والمؤامرات فضلًا عن التهديدات التي أحاطتني بها حتّى لا أتفوّه لچايدن بشيء ممّا قالته لي!

فتحتُ الخزانة وأخذت أتفحّص الملابس التي قد رتّبها چايدن بداخلها، إنها أنيقة بحق؛ وهذا يعني بأنّ صديقي ما يزال يذكر ذائقتي في اقتناء الملابس من حيث الألوان والخامات، الصّدق أنّ أناقتها تجعل المرء يحتار فيما سيختار منها، ومع ذلك فضّلت أن أعاود ارتداء ثيابي التي كنت قد قدِمتُ بها إلى نيويورك، لا لشيء، وإنّما أحسب أنّهُ لا حاجة بي لارتداء الجديد ما دمتُ سأعود إلى واشنطن مساء اليوم، ولكن ما مِن بأس في انتعال زوج من الأحذية التي جهّزها لي في الخزانة، فحذائي قد اتّسخ بالوحل ليلة أمس.

حملتُ ثيابي وسرت ناحية الحمام؛ إذ إنّني معتاد على الاستحمام بالماء الدافئ كلّ صباح لتنشيط الدورة الدموية لديّ.

وما إن انتهيت وارتديت ملابسي حتّى شعرت بانتعاش شديد في روحي قبل جسدي، نعم إنّني أتحرّر من أفكاري ومشاعري السّلبية كلما اغتسلتُ بالماء إنّهُ طريقتي المُذهلة في التخلّص من كل الأمور السلبية التي تُصادفني خلال ساعات يومي؛ لذلك أجد أن روحي تنتعش قبل جسدي وتصبح أكثر خفّة وراحة، وكيف لا تصبح كذلك وقد أزيلت عنها تلك الآلام المؤذية المليئة بالسّموم السّوداء السلبية، لستُ أعلم إن كان جميع النّاس يشعرون بهذا الشيء بعد الاستحمام أم لا، ولكن هذا أجمل ما أشعر به شخصيّاً عقِب كل استحمام!

نظرتُ إلى السّاعة التي كانت تُشير إلى الثامنة والنّصف ثمّ تقدّمت نحو السّرير، وما إن جلستُ على طرفه حتّى ارتخيتُ لأربط خيوط حذائي وأنا أتساءل عمّا إذا كان چايدن وزوجته قد استيقظا أم لا!

كان ذلك النّصف من عقلي ما يزال مهتمًا بتحليل أثاث الحُجرة وما بها من محتويات، والدليل على ذلك أنّني كلّما نقلتُ نظري في ناحيةٍ ما من الحُجرة بدأ يحلّل!

كان تحليلهُ هذا عندما قعدت على الكرسي الخشبي أمام المرآة لأُصفّف شعري: **"هذه التّسريحة، إنّها تنتمي لقطع الأثاث الخشبية العتيقة وليس هذا فحسب، بل إنّ كافّة محتويات الحُجرة تنتمي للشيء ذاته!"**

ولكن كيف استطاع چايدن إيجاد كل هذه القطع العتيقة؟ إنّ البحث

عنها ليس بالأمر السّهل، أتراهُ سرقها من أحدهم؟! أم قتل صاحبها ليحظى بها؟

أمسكتُ برأسي، **وجلجلتُ بحدّة**:

سحقًا لك أيُّها الغبي الأخرق! فكيف تقول عن صاحبك مثل هذا الكلام؟ الويلُ لك أيُّها العقل الكريه!

ومن الحُجرة فورًا خرجت، وبعُنف بابها أغلقت...

***

كيف نسيتُ ذلك؟

عبرتُ الممرّ وأنا أشعر باستياء شديد من نفسي، فقد بدأت نظرتي تجاه صديقي المُقرّب تتغيّر، وها هي أول قطرات الغيث قد هطلت إذ أنّني نظرتُ لذلك الأثاث الفخم والنّادر على أنّهُ نتاج لعملية سرقة أو قتل -ولربّما كليهما معًا- قام بارتكابها صديقي، آه أسأل الرّب العظيم أن يُعيدَ رفيق قلبي إلى رُشدِه وأن تتراجع تلك الفتاة عن فكرة الانتقام منه، يجِب ألاّ أسمحَ للوساوس الشيطانية بتغيير فكري تجاه چايدن فهو في نهاية المطاف بشري من بني البشر وكلُّنا خطّاؤون ليس ثمة من هو معصوم من الخطأ، ولكن ينبغي علينا أن نقاوم تلك الأخطاء بحيث لا نسمح لها أن تُسيطِر علينا وتجرُفنا إلى مُستنقعات الذّنوب والآثام التي تُغضِب الإله منّا!

إنّ محاولات القتل تُعتبَر خطأ فادح يقترِفه المرء في حقّ الإله أولًا، وفي حق نفسه ثانيًا، وحق الآخرين ثالثًا، وإذا لم يكبح الواحد منّا جِماح هذا الخطأ بالانصراف عن المُسبّبات التي قد تدفعه إلى الإقدام عليه ويعلن توبتهُ للرّب التوّاب الغفور؛ فإنّ هذا الخطأ سيتحوّل دون أدنى شك إلى شهوة، نعم أعني شهوة القتل التي تجُر مُتّبِعها إلى ارتكاب العديد من الجرائم بحيث تُصبِح يدهُ خفيفة جدًّا، فتجِدهُ يقتُل

ويقتُل حتّى لو كان السبب تافِه، لدرجة أنّهُ يكاد يفتتِح مجزرة باسمه من كُثرةِ ما قتلَ وسفك، فيغدو في نهاية الأمر عاشِقًا لعالم السّفك والدّماء بحيث لا يكاد يشعُر بطعم الرّاحة حتّى يهنأ برائحة الدّم إنّهُ لأمرٌ مؤلمٌ حقًّا!

ولكن يبقى سؤالي الدائم، ماذا عن المُنتقم الذي يأتي للاقتصاص من شخص تعمّد قتلهُ يومًا ما؟ حيث إنّ هذا الأخير لم يتبيّن آنذاك ما إن كانت ضحيّته قد فارقت الحياة أم لا! ولم يعلم أيضًا بأنّها ما زالت حيّةً تُرزق وتتنفّس الهواء، أترى هذا المنتقم يكون قد اقترف إثمًا بسعيه ذاك في سبيل القضاء على من حاول إلحاق الأذى به ذات يوم!

قد يقول البعض بأنّهُ ليس من حقّه أن يقتصّ بطريقته الخاصّة وأنّ كُل ما يتعيّن عليه فعله هو إبلاغ رجال السّلطة ووضع الأمر بين أيديهم وهم يتولّون التحقيق في كُل شيء.

ولكن أنا مايكل ديڤيد لديّ قولٌ مُختلِف؛ إذ إنّني أؤمن بوجود مشكلة لديه -أعني ذاك المُنتقم- هذه المُشكلة تكمُن تحديدًا في عدم وجود دليل صريح ضد المُجرم، فحتّى لو فعل وقدّم بلاغًا للشّرطة فلن يتعاونوا معه البتّة ولربّما حسِبوه مُصاب بمرض نفسي أو ما شابه ذلك، وقد يصِل الأمر إلى اعتقاله بتهمة البلاغ الكاذب وإزعاج السّلطات، فهكذا هم رجال السّلطة لا يتعاملون مع أيّة قضية إلاّ بتوفّر الأدلة التي تُثبِت حقيقة حدوث الجريمة، كجُثّة مُلقاة في مكانٍ ما أو أيّة أداة يمكِن

أن يستخدمها القاتل في ارتكاب جريمته.

كنتُ مُنسجِمًا بالحديث مع نفسي عندما بزغَت في وجهي تلك الخادمة الكهلة عند نهاية السّلم، **وقالت بنبرة امتنان:**

- أهذا أنت يا بُني! حمداً للرّب المُنعِم أنّني التقيتُ بك مُجدّداً حتّى أُعرِب لك عن شكري وعرفاني على ما فعلته معي ليلة أمس.

سألتُ بدهشة:

- وما الذي فعلتهُ لكِ ليلة أمس؟ ماذا تعنين بقولكِ هذا؟ فأنا لم أفعل أيّة شيء لتُثني عليّ وتشكريني!

قالت عندما مسحت كفيها بفوطة بيضاء كانت تحمِلها:

- بلى فعلت وفعلت، فقد أنقذتني أنت والسيّدة لورين من الموقف المُحرج الذي وقفتُ فيه أمام سيّدي، إنّني مدينةٌ بالامتنان لكُما، فلولا الرّب ثمّ تدخُّلكُما في الأمر لظلّ يُحقّق معي في شؤون ليس من حقّه معرفتها!

خبأتُ يدي في جيبي **وأجبتُها بنبرة لطيفة:**

- لا حاجة للشُّكر، فما فعلتهُ كان واجبًا عليّ، إذ إنّني لا أُحبّذ ذلك النّوع من الأسئلة المُحرجة والتي تتعلّق عادةً بظروف المرء وحياته الخاصّة، وما لا أرضاه لنفسي لا أرضاه لغيري؛ لذلك لم أرغب في أن أقِفَ مكتوف اليدين وأراكِ عالقة في ذلك المأزق دون أن

أُحرِّك ساكنًا!

ولكنّ أرجوكِ أن تلتمسي العّذر لصاحبي، فأنا أعرِفُ چايدن حقّ المعرفة، فهو ليس من النّوع الذي يحشر أنفه في شؤون الآخرين، مُتأكد من أنّهُ أراد بسؤاله ذاك الاطلاع على ما يجري في قصره من حركات وسكنات، باستطاعتكِ القول أنّ الغاية من السؤال الاطمئنان، نعم الاطمئنان فحسب، هل اتّضحَت لكِ الصّورة الآن يا سيّدتي العزيزة؟

وضعت كفّيها على خدّيها خجلًا، **وقالت بفرح**:

- وتقولُ لي سيّدة أيضًا! ما أنبلَ خُلقك أيُّها الشّاب الوسيم إنّك تذكرّني بولدي ستيڤن الذي لم تره عيناي منذُ أن سافر للعمل في كندا، المسكين لم يكُن يرغب في ذلك، ولكنّ أحوالنا المالية السيئة هي التي دفعتهُ دفعًا لأن يذهب ويكدح ويبعث إلينا بالمال وبما أنّني أُم ما هان عليّ أن ...

لقد بدا واضحًا أنّها سوف تقصُّ عليّ قصّة حياتها من الألفِ إلى الياء، قصّتها التي لستُ مهتمًّا بمعرفة أيّ شيءٍ عنها؛ لذا قررّت ألاّ أمنحها فُرصة سردها عليّ، في الواقع ليس من طبعي مُقاطعة أيّة شخص أثناء حديثه، ولكن هُناك أشخاص يرغمونني على فعل ذلك كحارس البوابة الكهل مثلًا فقد كان حديثه آنذاك يجلُب التّعاسة والملل!

ومن الواضح أنّ هذه السيّدة لا تختلف عنه كثيرًا فمن الجيّد ألاّ أُجامِلها على حساب نفسي، فأنا متيقّن من أنها لن تنتهي من ثرثرتها

وقصّ حكايتها إلاّ عند طلوع فجر اليوم الثاني، لذلك قاطعتُها في الحال **وأنا أصوّب نظري** ناحية باب المطبخ الذي كان خلفها مباشرةً:

- المعذرة يا سيّدة، ولكنّني أشعرُ بالعطش فهل أجِدُ لديكم بعض الماء؟

قالت بلطف:

- طبعًا يا روح أُمِّك، تعال معي لأُسقيكَ الماء يا طفلي الظريف.

تذمّرتُ في نفسي وشتمت أسلوبها اللعين، إنّ هذه العجوز البلهاء الخرقاء تُعاملني كما لو كنت طفل صغير! قالت ماذا؟ قالت يا روح أُمِّك! يا عيني لم يكُن ينقُصني سوى كهلة تتطلّع إليّ كطفل وليس أيّة طفل، بل طفلٌ من فئة الأطفال الظُرفاء، يا إلهي أعنّي على تحمّل هؤلاء الخادمات المُزعجات، هذا ليس عدلًا فمنذُ قدومي إلى هذا المنزل والجميع ينظرُ إليّ بتلك النّظرة - أقصد ينظرون إليّ كطفلٍ صغير -!

كنتُ سأرفض الذهاب معها إلى المطبخ وأطلب منها إحضار كوب الماء إليّ، لأتفادى بذلك رؤية إيميليا، ولكن سرعان ما تذكّرت بأنّني سوف أذهب لإحضار جريدة الصّباح من صندوق البريد الموجود أمام القصر وهذا يعنّي أنّهُ يتوجّب عليّ عبور المطبخ إلى ذلك الممرّ المفضي إلى بوابة القصر الزُّجاجية...

أظن أنّ هناك باب آخر يُفضي إلى الحديقة الخلفية التي بصرتُها من خلال نافذة حُجرة الطّعام، ومن تلك الناحية يُمكِن لأيّة شخص أن

يسير مُلتفًا حول القصر لكي يصِل إلى البوابة الأمامية.

من الجيّد فعليًّا أنّني أجهل مكان ذاك الباب وإلاّ لكنتُ خرجتُ منه! أعِرفُني جيّدًا لا أبرحَ حتّى أجلُب العناء لنفسي جلبًا، وبناءً على جهلي لموقع الباب الخلفي رأيتُ أن أختصِر السبيل على نفسي وأدلُف إلى المطبخ وليحدُث ما يحدُث!

وما إن ولجت حتّى التقت عيناي بعينيها، أجل أقصِد إيميليا التي أخذت تنظرُ إليّ نظرات غريبة لستُ أعلم لها أيّة مغزى! ولكنّها أنهت تلك النّظرات بابتسامة مُسالِمة سلبتني فؤادي، يا لها من فتاةٍ حسناء، إنّ هذا الوجه الهادئ الجميل لا يليق به الشرّ والإجرام وإنّما يليق به الخير والكثير من السّلام!

كنتُ أتأمل تلك الملامح الجميلة الخالية من - مسحة الشّر - التي كانت قد خيّمت عليها ليلة أمس عندما **سألت تلك العجوز الخرِفة بصوتٍ أجش:**

- يا بُنّي ألا تُريد أن أضعَ لكَ بعضًا من مُكعّبات الثلج في الماء؟

هززت رأس بالنّفي وقلت:

- كلاّ، بل أريدهُ مُعتدِلًا من فضلكِ.

تناولت كوب الماء الذي قدّمته إليّ، ثمّ سحبت كرسي من الكراسي المُلتفّة حول طاولة الطّعام الخاصة بالخادمات وما إن جلستُ عليه حتّى صِرتُ أشرب الماء دفعةً واحدة دون أن آخُذ نَفَسًا، فقد كنت

أعاني من عطشٍ شديد جعلني أبدو كمن لم يشرب في حياته ماءً قط**!**

وضعت الكوب على الطّاولة عندما وقفت **وقلتُ بودّ**:

- شُكرًا للُطفكِ سيّدتي، عليّ الرحيل الآن.

قالت إيميليا بصوتٍ عذبٍ وناعم:

- يا سيّد مايكل، إنّ قِطّتُك ترقد في حجرتي، ألا ترغب في أن أُحضِرها إليك؟

ابتسمتُ ثمّ أعدتُ كلتا يديّ في جيبي معطفي، **وقلت**:

- كلاّ ليس الآن، سآتي لرؤيتها فيما بعد**!**

عبرتُ المُطبخ باتجاه الباب المفضي للممرّ، وخلال مروري عبر هذا الأخير وقعت عينيّ مرّةً أُخرى على تلك اللوحة التي لا أعلم كيف غابت عن ذهني ولم أسأل لورين إخباري بقصّتها، لابدّ أن أطلب منها ذلك عندما تستيقظ، لستُ أعرِف كيف نسيتُ أمرها؟ لستُ أعرِف**!**

***

فضول الحارس فوستر

اقتربت من الباب الزُّجاجي، وما إن فتحته حتّى شعرت ببرودة شديدة منها أطرافي ارتجفت، أرقيت نظري إلى السّماء؛ باحثًا عن أشعّة الشمس الدافئة، لكنّني لم أجدها فقد كانت السّماء مُلبّدة بالغيوم الكثيفةِ السّوداء والتي كنت أتأملها عندما تعثّرت قدماي بخيوط حذائي، آه! سحقًا لهذه الخيوط فقد كادت أن توقعني أرضًا!

هبطت الدّرجات الثلاث المؤدية إلى المرجة العشبية، ثمّ انحنيت لوهلة وربطتُ خيوط حذائي ثمّ مشيتُ بخطواتٍ متسارعة ناحية البوابة فقد أردتُ أن أجلب الصحيفة قبل أن تُمطِر السّماء!

وفي هذه الأثناء **هتف الحارس العجوز** الذي كان قد خرج للتو من حجرته وكأنّه أحسّ بقدومي:

- صباح الخير يا سيّد مايكل، هل ستُغادر إلى واشنطن أم ماذا؟

يا للعجوز الأرعن المُتطفل! لستُ أعلم ما الذي سوف يستفيده من هذا السؤال، أجزِم أنّهُ رادار وليس أيّما رادار وإنّما رادار ذا جودة عالية وفريدة، وإلاّ فكيف استطاع أن يشعُر بمروري عبر الحديقة؟

لم ألتفت ناحيته وأكملت المسير بينما **قلت:**

- صباح النور يا عمّي، كلّا، ليس قبل أن أقضي هذا اليوم هُنا**!**

سأل بصوتٍ مرتفع:

- أراكَ في عجلةٍ من أمرِك، هل ثمة خطبٌ ما؟ توقّف ياسيّد أنا أحدّثُك ألا تسمع؟

توقّفت بجانب البوابة، **وقلت بنفاد صبر:**

- ما الذي تُريده منّي؟ ثمّ من تظن نفسك حتّى تُحقّق معي هكذا؟

ضحك ضحكة عالية مُثيرة للاشمئزاز وقال:

- ما لي أراكَ غاضِبًا في هذا الصّباح الجميل، أتشاجرت مع صديقك أم ماذا؟

الحقيقة أنّني لستُ أعلم لِمَ يدُس هذا العجوز الخرِف أنفه في شؤون الآخرين؟ أهي الفضاوة يا تُرى؟ لابدّ أن أطلب من چايدن أن يستبدله بحارسٍ آخر يؤدي عمله دون أن يتدخّل فيما لا يعنيه.

أجبتهُ بتجهّم:

- هلاّ كففت عن طرح هذه الأسئلة؟ ألم يخبرك أحدهُم بأنّك فضولي وتُقحِم نفسك فيما لا يعنيك؟

راح يضحك مُجدّدًا وكأنّه مستمتعٌ بإغاظتي، ثم قال:

- يا للأسف لم يخبرني أحدٌ بذلك، وها أنت أوّلُ شخصٍ يفعلُ هذا، إنّك تستحقُّ أن أُهديكَ "**قطّة**" مكافأة لك على تنبيهك لي قبل الجميع!

لم أعُد قادرًا على كتم غيظي أكثر من اللازم، فهذا الكهل قد بدأ يستخّفُ بي ويُعاملني كطفل، شعرت بنيران الغضب تشتعل بداخلي وتحرقني، حاولت إخمادها، ولكنّها أبت إلاّ أن أفعل شيئًا يؤدّب هذا العجوز القذر!

تقدّمتُ صوبه عدّة خطوات إذ إنّني كنت قد عزمتُ على إشباعهِ ضربًا، ولكن سرعان ما توقّفت عندما تذكّرت بأنّ عليّ احترام چايدن بعدم إثارة أي فوضى ومشاجرات في منزله؛ لذلك رأيت أنّهُ من الجيّد أن أتجاهله تمامًا وأمضي في طريقي، فهذا أفضل سلاح لي في هذه الحالة؛ حيث إنّه سيمتازُ غضبًا وقهرًا لأنّني لم أقدّم له مراده؛ فليس هو بالذي حصل على إجابات لتساؤلاته، وليس بالذي تلذّذ باستفزازي، القذر فليذهب إلى الجحيم!

تراجعتُ حيث البوابة ثُم انصرفت بهدوء، أمّا ذاك الكهل فقد **صار يهتف ويدعوني أن أعود إليه:**

- أيُّها الشاب عُد إلى هُنا عليك أن تُخبرني إلى أين أنت ذاهب؛ فأنا حارس السيّد چايدن ومن حقّي معرفة إلى أين يذهب كل شخص يقيم في هذا القصر سواءً...

اختفى صوتهُ تمامًا عندما ابتعدتُ عن القصر، المسكين فليمُت الآن بغيظه! لستُ أعلم من أين جاء بفكرة أنّ حارس الدّار يتوجّب عليه معرفة تحرُّكات كل من يقطن فيها سواء أكانوا ضيوف أو أفراد عائلة، إنّها فكرةٌ كاذبة فلو كان الأمر كذلك ما صبرت عليه زوجة چايدن التي تخرج يوميًا من القصر للقيام بشؤونها المختلفة؛ ولكانت قد طلبت من زوجها استبدالهُ منذ زمن بعيد إلاّ إذا كانت تُجيب عن أسئلته برحابة صدر وتُطلِعه على خصوصياتها -إلى أين تذهب ومن أين تجيء- فهذا أمرٌ آخر!

أمّا أنا، فلن تنطلي عليّ خدعة ذاك الثعلب الماكر وإن انطلت على جميع من قبلي؛ إذ إنّني حاذق في فهم طبيعة النّفس البشرية كما وأستطيع اكتشاف ما يُخفيه بني البشر خلف أفكار كاذبة لا أساس لها من الصّحة، ففي حالة هذا الحارس يمكنُني القول بأنّهُ بشري فضولي وجد من عملهِ فرصةً سائغة تتيح له الاحتكاك بالآخرين والتحدّث معهم، أعتقد أنّ كِبرَ سنّهُ وبقاؤه لوحدهِ ساعات طويلة -دون أن يتحدّث مع أيّة شخص- هو ما يدفعهُ لفعل ذلك فلا بدّ أنّهُ يخشى الوحدة كثيرًا؛ ولكن ما كان ينبغي عليه أن يلجأ لمثل هذه الحيل السّخيفة فإنّهُ بطريقته تلك يساهم في تنفير الآخرين من حوله أكثر من كونه يجذبهُم نحوه، فمن المعروف أنّ الفضول من الصّفات القبيحة التي يمقتها جميع النّاس ويتحاشون صاحبها ، بل لا ينظرون إليه من الأساس!

نعم، لقد ارتكب خطأً بأسئلته الفضولية تلك فمنذ متى كان التدّخل

في شؤون الغير وسيلة فعّالة للقضاء على الوحدة، لو أنّني كنت محلّهُ لعمِلت على التخلّص من وحدتي بطرقٍ ممتعة ومفيدة كأن أصاحبَ الكتب وأغوص في عوالمها المثيرة؛ فإنّ الكتاب في نهاية المطاف خيرُ جليس للمرء، بل إنّ مصاحبة الكتاب أخير له من مصاحبة بني البشر،كما أنّني كنتُ سأمارس ساعتها هوايات الطفولة المُحببّة إلى قلبي، إنّ هذا بحد ذاته يُغني المرء عن البشر و يُدخِل البهجة والحبور على روحه وقلبه، فيحفظ لهما رونقهما وبريقهما.

آهٍ يا إلهي! عليّ أن أجلب الصّحيفة وأعود قبل أن تُمطر السماء!

وصلت إلى صندوق البريد، وعلى عجل أدخلتُ يدي بداخله فجذبتُ منه صحيفة الصباح المحليّة...

***

أشتمُّ رائحة الموت!

أمسكت بها بكلتا يديّ وألقيت نظرة خاطفة على العناوين التي كُتِبت بخط عريض في أعلى صفحاتها، شدّني أحدها فأزمعت على قرآته أثناء مسيري ناحية القصر، ولكن ما إن استدرت وهممت بقراءة السّطر الأول حتّى اصطدمتُ بأحدهم فرفعت عينيّ عن الصحيفة لكي أرى من يكون؟ ولكنّي لم أجد أيّة شخص يقِف أمامي، فخمنت أنّهُ ربما كان ذلك الشخص -قصير القامة- لهذا السبب لم يظهر أمامي مباشرة، ودون تردّد نقلت نظري إلى الأسفل ويا ليتني لم أنقله!

يا حبيبي، هذا ما كان ينقُصني عجوزٌ أخرى ماهذا الصّباح الحافل بالكهلة؟ لا شك في أنّني سأُجن لو استمريت في رؤية المزيد منهم هذا اليوم!

لقد كانت عجوز قصيرة القامة كئيبة المظهر، ترتدي السّواد وتُمسِك بكلتا يديها سلّة صغيرة يفوحُ منها عبق التّوت اللذيذ المُنعش، ظلّت ترمقني بنظراتٍ مخيفة وبين كل نظرة والأخرى كانت تنشِق أنفها ممّا أوحى لي أنّها مُصابة بالرّشح، فكّرت في الهروب من نظراتها المُرعبة عندما أنزلتُ الجريدة إلى الأسفل فورًا، **وقلت بنبرة شبه لطيفة**:

- هل بمقدوري تقديم المساعدة أيّتها الجدّة؟

قالت بصوتٍ مُحشرج:

- شكرًا جزيلًا يا بُني، إنّما شاهدتك منتصبًا أمام صندوق البريد الخاص بعائلة السيّد كليمنت فعجِبتُ لذلك وقرّرت أن أتوقّف لأسألك إن كانت تربِطكما ببعضكما صلةُ قرابة؟ طبعًا هذا إن سمحت لي أن أسألك، فإن لم تُرِد الإجابة فهذا شأنٌ خاصٌ بك وحدك ولا يحقُّ لي إرغامك على ذلك!

حمدًا للرّب اللطيف! تبدو هذه الكهلة مهذّبة ورقيقة، فهي تطلُب الإذن منّي حتّى تطرح سؤالها كما أنّها ترى بأنّ إجابتي على السؤال من عدمها حقٌّ من حقوقي التي لا يُمكن لأيّ شخص كائنًا من كان أن يسلبني إيّاها، كم أتمنّى أن يتعلّم الحارس الخرف فوستر من هذه العجوز الأدب في طرح الأسئلة!

ابتسمتُ بلُطف **وقلت بصوت حنون:**

- بل سوف أُجيب عن سؤالكِ يا جدّتي اللطيفة، أُعرّفك بنفسي مايكل ديفيد صديقٌ للدكتور چايدن منذ الطّفولة، قدِمت لزيارته مساء الأمس.

فتحت سلّتها وأخرجت منها بعض حبّات التّوت **وقالت:**

- إن كنت تملك منديلًا قماشيًا فأرجوك أن تُخرِجه وتفرِدهُ أمامي يا بُني!

رمقتها بنظرات متعجّبة وقلت:

- بالطّبع لديّ يا جدّة! ولكن أمهليني بضع ثواني لأفعل ما تشائين!

نقلتُ الصحيفة التي كنت أحمِلُها بيدي اليمنى إلى اليد الأخرى لكي أتمكّن بتلك الأولى من إخراج المنديل الذي كنتُ قد وضعتهُ في جيب معطفي الأيمن عندما رفضت إيميليا ليلة الأمس أخذهُ منّي وما إن تحسّستهُ بيدي حتّى جذبته، ثنيتُ بيدي اليسرى تلك الصّحيفة التي قد جعلت منّي شخصًا مشغولًا في نفسه، وما إن أردت وضعها داخل جيبي حتّى سقط المنديلُ منّي على الأرضِ فانحنيتُ لإحضاره وما إن رفعتُ المنديل حتّى سقطت الصحيفة؛ ولكن سُرعان ما سيطرت على الوضع ومددتُ المنديل إليها **قائلًا بنبرةٍ خجولة**:

- تفضّلي، أرجو المعذرة منكِ، أحسبُ أنّ يدي لم تعُد تُحسِن مسك الأشياء؛ نظراً لبرودة الطقس!

كانت الجدّة تُراقب تحرُّكاتي والفوضى التي كانت تعصِفُ بي عندما ضحِكت ضحكة رنّانة متواصلة **ثم قالت**:

- ما الخطب يا فتى؟ أراك ممّن يجلب العناء لنفسهِ! كلّا كلّا، فأنا لا أظن أنّ لهذا أيّة علاقة ببرودة الجو فقد كان إخراج المنديل من جيب المعطف أمر في غاية البساطة، ولكن يبدو أنّك ممّن يُطيلها وهي قصيرة؛ فلو أنّك ثنيت الصحيفة أولًا ثمّ أدخلتها في جيب معطفك الأيسر، وبعد ذلك أدخلت يدك في الجيب الآخر وأخرجت منه المنديل ومددتهُ لي بكلتا يديك؛ لما حصلت كلّ

هذه الجلبة أليس كذلك؟!

أطرقتُ خجلًا وقلت:

- نعم، هو كذلك.

ابتسمتْ ووضعتْ كمًّا هائلًا من حبّات التّوت في المنديل الذي كنت قد فردته بين يديّ، وما إن انتهت حتّى طلبت منّي أن أعقِده جيّدًا لكيلا يسقط شيئًا من حبات التوت!

نشقت أنفها **ثُم قالت بصوت خفيض:**

- هذا التّوت البرّي هدية متواضعة لك بما أنّك حللت ضيفًا في حيّنا، بوسعك تناوله مع صديقك السيّد كليمنت بالهناء والعافية!

أجبت بود عندما عقدت المنديل ودسسته في جيبي:

- ممتنٌّ لعظيم كرمكِ وجمال قلبكِ يا جدّة، لكن أخبريني هل منزلكِ قريبٌ من هنا؟

أشارت بيدها إلى نهاية الشّارع وقالت:

- أترى ذلك المنزل الصّغير الواقع في نهاية الطّريق؟ ذاك المُحاط بسورٍ خشبي تتسلل من خلاله نباتات الخشخاش الكثيفة! أرأيتهُ يا فتى؟ هو ذاك الذي أمامهُ مباشرة مقعد خشبي تحُط عليه حمامة بيضاء وليس ذاك الذي تقِف بمحاذاته تلك السيّارة السوداء الفارهة..

تبصّرت في عينيّ **ثمّ قالت بصوت أقرب للصياح:**

- تمامًا، تمامًا بالضبط هو ذاك الذي قد ركّزت بصرك عليه، أجل هذا هو منزلي يا بُني قد تتعجّب من صُغر حجمه، ولكنّني أُحبّه كثيرًا وأشعر بالرّاحة والهناء بالعيش فيه!

قطّبتُ جبيني بينما سألت بفضول:

- أما من أحدٍ يُشاطركِ العيش في هذه الدّار؟ أم أنّكِ تمكثين فيها بمفردكِ يا جدّتي!

قالت بنبرةٍ متفائلة وممتلئة بالقناعة:

- كلّا ليس هناك من يقاسمني العيش في داري وإنّما أعيش فيها بمفردي، ولكن لا أخفيك بأنّ لديّ العديد من الأصدقاء الأوفياء الذين لا أشعر معهم بالوحدة والفراغ على الإطلاق، إنّهم يملأون عليّ الحياة بأحاديثهم، حكاياتهم، معلوماتهم الثمينة، هم أُنسي، بهجتي ومسرتي، باختصار هم كلّ أحبابي وأيامي، إنّهم يتربّعون على رف مكتبتي منتظرين قدومي، أحسبك فهمت ما أرمي إليه يا فتاي فأنا أقصد..أقصد ...

عدلَتْ عن الحديث فجأة وبحلقت بعينيها بشكل مرعب، كما أنّ جسدها الهزيل قد صار يرجِف بطريقة عنيفة، وقد كان وجهها شاحبًا شحوب الموتى **عندما صرخت مذعورة:**

- آه! آه ما ذاك؟ يا إلهي الرّحيم ارحمنا! إنّه الموت! الموت يا

بُني، اشملنا بعفوك ومغفرتك يا اللّه، إنّني أشتمُّ رائحته، إنّه يقترب بسرعة! بلى يقترب وهو في طريقه لأحدهم...

***

زرقة الموج وسواد الليل

اتّسعت حدقتا عينيّ وشعرتُ بقشعريرة شديدة في جسدي من هول ما سمِعت كما أنّني ما لبِثتُ أن أحسست بوقع الخوف في مُنتصف معدتي التي أخذت تنقبِض وتُصدِر أصواتًا غليظة وكأنّها إيحاءات خفيّة تُعبِّر من خلالها عن مقدار الذّعُر والقلق الذي يحاوط صاحبها في هذه اللحظة!

إنّ ما أصابني بالهلع حقًّا هو وجه الجدّة وعيناها المتّسعتان من شدّة الرّعب! فقد بدت وكأنّها ترى الموت يظهر واضحًا جليًّا أمامها...

أدارت ظهرها وهي ما تزال تُردّد تلك العبارة المُهيبة، ثمّ راحت تسير نحو منزلها بخطوات مُرهقة ومُثقلة بالخوف والقلق، نعم لقد مضت وتركتني خلفها غارقًا في تساؤلاتي!

هل للموت رائحة؟ وإن كان كذلك، فكيف هي رائحتُه يا تُرى؟

أحقًّا أن يشعر المرء باقترابه وإن لم يكن هو المعني بالأمر؟

فكّرتُ أنّهُ ربّما كانت الجدّة تشعر بدنو أجلها هي وليس أيّةَ شخص آخر، فهي كبيرة في سنّها وقد قضت من العُمر ما يكفي، آه يا إلهي! كم هي مخيفة تلك الكلمات التي تفوّهت بها، ليتني لم أتحدّث معها،

صحيحٌ أنّها كهلة ظريفة ولطيفة إلاّ أنّها عكّرت صفوي مع هذا الصباح بتشاؤمها وذكرِها للموت بهذه الطريقة الفظيعة، عليّ أن أعود إلى القصر فلا شكّ أنّهم يبحثون عنّي الآن، طبعًا هذا إن لم يخُبِرهم ذاك العجوز الخرِف عن مغادرتي للقصر!

وضعت يدي في جيبي وتحسّست منديلي المليء بحبّات التوت ذات العبق المُنعش، ثمّ سحبت الجريدة ورحت أتصفحها مُجدّدًا أثناء مسيري، استمرّيت على هذه الحال إلى أن ارتطمَ إصبعُ قدمي الكبير بصخرة كانت قد وضِعَت في منتصفِ الطّريق، الحق أنّني كنتُ قد رأيتها عندما غادرت القصر وتحاشيتها، ولكنّني غفِلتُ الآن عنها؛ نظرًا لاندماجي في خبرٍ من الأخبار المحلية!

آآآه! إنّ إصبعي يتمزّق من شدّة الألم، أظن أنّ هذا الحذاء القُماشي الضيّق هو السّبب، إنّهُ سيء ولا يُفيد البتّة في الوقاية من الإصابات، لستُ أعلم السّر خلف محبة چايدن لهذا النّوع من الأحذية! آآآه فلو أنّني ارتديتُ حذائي الذي قدِمتُ به بالأمس لما كنتُ قد تعرّضتُ لمثل هذا!

قرّرت أن أتوقّف قليلًا حتّى يهدأ الألم وبينما كنت أتجوّل بنظري في أنحاء المكان وقعت عينيّ على رجُل ضخم الجثّة، طويل القامة، يرتدي ثيابًا غريبة ويخرجُ من قصرِ صديقي، كان يلتفِتُ يمينًا ويسارًا فقد بدا واضحًا من مظهره أنّهُ يُخفي شيئًا ما، مشيتُ عدّة خطوات

لأتبيّن أمره، ولكنّي توقّفتُ مُجدّدًا عندما بزغَ فوستر خلفه وراحا يتبادلان الأحاديث بشكل مُريب، ثم أخرج الرّجُل من جيبه غرضًا صغيرًا لامعًا وضعهُ في يد فوستر وودّعهُ ثم رحل!

الحقيقة أنّه لم يكُن بيني وبين القصر سوى مسافة قصيرة ومع ذلك لم أتمكّن من رؤية وجه ذاك الرّجل فقد كان مُتلطّمًا بقطعة قماش فلا يظهر منهُ شيء سوى عينيه!

ربّاه! يبدو أنّ هناك الكثير من المُنتقمين المُتربّصين بصاحبي چايدن كما قالت إيميليا، عليّ أن أُخبِره بشأن هذا الرّجل عندما ألقاه!

أكملتُ المسير عندما أحسستُ بتلاشي الألم الذي أصابتني به تلك الصّخرة، وما إن دلفت عبر البوابّة الأمامية حتّى هتف ذاك الفضولي تمامًا كما توقّعت فهو لا يقوى على إغلاق هذا الفم الكريه ولو للحظاتٍ معدودات، التفتُّ ناحيته دون أن أُرِد جوابًا، **فقال بنبرة ساخرة:**

- ما بِكَ هل أكل القطُّ لِسانكَ؟ إنّني لآسَفُ على ذلك القطّ المسكين!

راح يضحك ضِحكة صدّاحة مستفزّة، ولكنّني تمالكتُ غضبي واتّجهتُ نحو الحديقة الخلفية، فقد أردتُ أن أستمتِعَ برائحةِ البُرتقال المُذهلة ثمّ بعد ذلك سأذهبُ إلى صاحبي چايدن، إذ إنّني أتوقُ كثيرًا للثرثرة معهُ ومعرِفة ما حدث معهُ أثناء فترة إقامته في لندن!

اختفيتُ خلف زاوية القصر وعبرتُ من خلال الممرّ الضيّق المليء

بالوحل والأعشاب حتّى وصلتُ أخيرًا إلى تلك الحديقة الرائعة فأغمضتُ عينيّ ورحتُ أستنشِق رائحة البُرتقال المُنعشة، الرائحة التي عادةً ما تُهدّئ أعصابي وتحسّن من مزاجي وليس هذا فحسب؛ بل إنّها تجعلُني أسيرًا لديها كلّما تماديتُ في شمّها، وأيُّ شيء أجمل من أن يكون المرء أسيرًا لدى من يحِبُّ ويهوى وبينما كنتُ مستمتِعًا بما أفعل، **همس صوت طفولي ناعم**:

- يا سيّد، يا سيّد، هلاّ ساعدتنا في جلبِ كُرتِنا من أعلى الشّجرة!

تجاهلتُ ذلك الصّوت باعتباره مجرّد وهم منّي، حتّى وإن كان طفلًا حقيقيًا ما كنتُ لأُعيرهُ اهتمامي في الحقيقة، إذ إنّني كنتُ مُنسجِمًا، غارقًا، عالقًا، هائمًا، تائهًا، مولعًا، مفتونًا بتفاصيل ذلك العبق الأخّاذ، السّاحر، المُبهر، المنعش، الجميل لفاكهتي المُفضّلة!

هذا أنا مايكل فما إن ألتقي بتلك الأشياء التي يعشقُها قلبي وتألفها روحي حتّى أنسى نفسي تمامًا ولا أكترث إطلاقًا لكُل ما يجري من حولي خشيةَ إفساد لذّة اللحظة وجمالها، إلاّ أنّ الأمر يكون مُختلِف تمامًا في حال كان ما يجري حولي في غاية الأهمية حينها فقط أكون مُضطرًّا للتوقّف عن حالة الاستكنان التي بدأتُها، تمامًا كما حدث مساء الأمس حينما كنتُ أغوص في عوالم تلك اللوحة الآسرة فلو أنّي قد رأيتها في مكانٍ عام غير قصر صاحبي لتماديت في تأمّل تفاصيل الجمال فيها ولما أزلتُ ناظريّ عنها ولو للحظة حتّى أُشبِعهُ بروعتها!

إنّ ما منعني من فعل ذلك آنذاك، هو أنّني كنتُ قد وصلتُ للتّو ومن المُخجل جدًّا أن أستفرِدَ باللوحة وأُطيل وقوفي أمامها ولا سيما أنّ چايدن قد أرسل الخادمة إيميليا لتأخُذني حيث كان يمكُث؛ لذا كان من الصّعب عليّ جدًّا أن أرفُض الذهاب معها بحُجّة أنّني أودُّ البقاءَ وقتًا أطول مع تلك اللوحة!

همسَ الصوت مرّة أُخرى:

- أرجوك يا سيّدي ساعِدنا في إنزال الكرة!

ترددّ خلفهُ مباشرة الصّوت ذاته:

- أرجوك يا سيّدي ساعدنا في إنزال الكرة!

وماهي سوى لحظات حتّى **اجتمع الصّوتانِ معًا:**

- لماذا تُغمِض عيناك يا سيّد!

كنتُ قد لاحظتُ تردّد الصوت منذُ البداية، ومع ذلك ما كنتُ لأهتمّ بأمرهِ مطلقًا إذ ظننتُ بأنّ تردّده ليس سوى انعِكاس ناجم عن ظاهرة الصّدى التي توجد دائمًا في الأماكِن الخالية سواء من البشر أو الأثاث أو كل ما من شأنه أن يملأ المكان، ولكن ما أدهشني وأثارني حقًّا هو اجتماع الصّوتين معًا! وهذا يعني بالطّبع أنّهُ لا شأن للصّدى فيما يحدُث؛ فمن المستحيل جدًّا أن يتطابق صوت المرء الأصلي مع صداه!

قطعتُ على الفور حالة السّكون والهدوء التي كنتُ أتنعّم بها وفتحتُ عينيّ متحمّسًا لرؤية ما يجري من حولي وما إن رأت عينيّ النّور؛ حتّى رأت عَقِبه طفلة مُستنسخة تقِف إلى جانِب نسختها الأصلية، عجبًا! فهذا لا يحدث إلاّ في أفلام الخيال عادةً!

فركتُ عينيّ بكلتا يديّ لأتأكد ممّا رأيتُه فقد شككتُ بوجود مُشكلة في حاسّة البصر لديّ، جعلتني أرى الأشياء من حولي بشكلٍ مُتكررّ وما هي إلاّ ثواني حتّى توقّفتُ عن فركِها ونظرتُ مرّةً أخرى، ولكنّ لم يتغيّر أيّة شيء فقد وجدتُ نفس الطفلتين لا تزالان تحدقان في وجهي بذات النّظرات! فأدركتُ فورًا أنّهما تنتميان لفئة التوائم المُتشابهة، صحيحٌ أنّني كنتُ أعلم أن لصديقي چايدن طفلتين، ولكن لم أتوقّع إطلاقًا أن تكونا توأمتين مُتشابهتين!

رحتُ أتفحّصهُما بنظرات سريعة ثمّ أعددتُ قائمة قصيرة في مخيّلتي؛ لعلّني أستخرِجُ بواسطتها الفرق الذي يميّز إحداهما عن الأخرى..

حُسنٌ وأناقة، مظهرٌ مرّتب، بشرةٌ بيضاء متورّدة، شعرٌ بُنّي ناعم، وردةٌ بيضاء خلف أُذن كلَّ واحدةٍ منهما، فُستان ذا لونٍ أصفر جميل تتخلّلهُ ورود ذات لون وردي بديع، حذاءٌ أصفر من الجلد اللامع، وماذا بعد؟

إنّني لم ألحظ شيئًا يجعل إحداهما مُختلفة عن الأُخرى، لكنّني

مؤمن حق الإيمان بوجوده وإن لم أره، نعم لطالما كنتُ أرى في جميع التوائم الذين التقيتُ بهم سابقًا شيء فريد يستدِل به الآخرين للتفريق بينهم، ولكن ما هو الشيء الذي يفصِل بين هاتين الطّفلتين؟ ما هو؟ ما هو؟؟ يجِب أن أعثُر عليه حالًا!

استمرّت عينيّ في البحث عن ذلك الفرق، وما إن وقعَتْ عليه واستخرجته حتّى **هتفتُ بصوتٍ أقرب للصُّراخ:**

يا لغبائي حقًّا! فكيف لم ألحظ ذلك منذ البداية؟ فقد كان واضحًا وضوح الشّمس! نعم، إنّ وجه الاختلاف بينهما يكمُن في لون عدسات العيون إذ أنّ إحداهما لعينيها اللون الأزرق والأخرى لها اللون الأسود، جميلٌ جدًّاً، فهكذا يستطيع المرء التمييز بينهما عندما يتحدّث إليهما!

أمعنتُ النّظر فيهما، **ثمّ سألتُ بنبرة حنونة:**

- هل أردتمُا شيئًا يا حلوتيّ؟ هل ثمة ما أساعِدكُما فيه؟

أجابت ذات العينين الزرقاوين:

- نعم أيّها السيّد فقد كنّا نطلب منكَ العون منذُ أن قدِمتَ إلى هنا، ولكنّك كنتَ تُغمِض عينيكَ وتبتسمُ كالحمقى!

وما إن قالت عبارتها الأخيرة حتّى وضعت كفّها الصغيرة على فمِها وانفجرت ضاحكة مع شقيقتها!

شعرتُ بالخجل من نفسي، **ثمّ قلت بنبرة متباهية:**

- وما أدراكِ أنتِ أيّتُها الطفلة البلهاء عن حالة الاستكنان تلك؟ إنّكِ لا تزالين طفلة لذلك تجهلين الكثير ممّا يقوم به الكبار؛ فالأفضل لكِ ألاّ تتحدّثي عن مثل هذه الأمور لأنّكِ تبدين كالبليدة التي لا تفقه شيئًا!

تدخَّلَت ذات العينين السّوداوين مدافِعة عن شقيقتها:

- كلارا ليست بليدة ياسيّد! تراجع عن قولِكَ هذا وإلاّ فإنّني سأُخبِر والدي بأنّكَ تشتُمنا!

ضحِكتُ ضحكة قصيرة بينما قلت:

- وماذا عساهُ أن يفعل والدكُما بي؟ ألا تعلمين بأنّني صاحبهُ الأحبّ والأفضل على الإطلاق أيّتها الطفلةُ الشّقية الحمقاء...

صرخت الطفلتان معًا بصوتٍ صاخب:

- ماذا؟ أأنتَ صديقُ والدِنا الذي قدِم لزيارتنا ليلة أمس؟!

ارتسمت على وجهي ابتسامة صغيرة **وقلت بثقة:**

- بلى، أنا هو بشحمهِ ولحمهِ!

لا شكّ أنّ چايدن قد تحدّث عنّي أمامهما، حمدًا للرّب! لا بدّ أنّهما ستعتذِران إليّ عن أسلوبهما الفظ معي قبل لحظات!

سألت ذات العينين الزرقاوين بنبرة مُتعجّبة:

- وما لي أراك باقٍ هُنا؟ لماذا لم تذهب إلى منزلكَ أيُّها السّيد؟

قالت الأخرى دون أن تمنحني أيّةَ فرصةٍ للرد:

- يا للمسكين! يبدو واضحًا أنّه لامأوى له إطلاقًا، أنا حزينةٌ لأجله!

ردّت عليها الأولى بنبرةٍ جدّية:

- حتّى لو لم يكُن لديه يا كلير، كان يجدرُ به أن يبحث عن منزلٍ صغيرٍ يُقيم فيه بدلًا من إزعاج الآخرين والإقامةِ معهم في منازلهم...

عطستَ بنعومة **ثمّ مضت تقول:**

- أيّها السيّد، من الأفضل لك أن ترحلَ الآن للبحثِ عن منزلٍ مناسب تقضي فيه هذه الليلة، فليسَ من الذّوق أن تبقى وقتًا أطول معنا!

آهٍ يا قلبي! ما كلُّ هذا الكلام المُميت؟ لقد سحقتاني بكلامهما، سُحقًا لهما وأنا الذي كنتُ أظنّهما ستعتذرانِ إليّ وتُبديانِ لي مشاعر الفرح بحلولي ضيفًا في منزلهم!

لا بّد أن أُخبِر والديهما عن وقاحتِهما وسوءِ منطوقِهما مع الضّيوف حتّى يُعيدان النّظر في تربيتهما، الحقّ أنّه لا لوم على الطّفلتين، بل إنّ اللوم واقع بالدرجة الأولى على چايدن وزوجته لورين؛ إذ يجدُر بهما توجيه طفلتيهما وإرشادهمُا فيما يخُص التّعامل مع الآخرين، ولكن يبدو أن عمل لورين وخروجها المُتكرّر من المنزل قد جعلها تُهمِل

مسؤولية تربية طفلتيها بالشّكل اللائق والسّليم، وكذا چايدن لابدّ أنّهُ مُنهمِك في جمع الأموال ولاهٍ عنهما تمامًا، يا لهما من مُغفّلين إذ لم يُحسِنا إلى هذه الهبة الإلهية بالرعاية والتربية الكافية!

ساد الصّمت المكان لدقائق، **ثمّ قطعتهُ تلك الطفلة ذات العينين السوداوين قائلة:**

- هل أزعجكَ كلامُنا يا سيّدي؟

توقّفتْ قليلًا ونظرتْ إلى شقيقتها، **ثم قالتا معًا بنغمةٍ طفوليةٍ لطيفة:**

- نحنُ آسفتان جدًّا، فهلاّ قبِلتَ أسفنا أيُّها العم!

يا حبيبي! أرادتا أن تُكحّلاها فأعمتاها، العم؟ أحقًّا مظهري يوحي بذلك؟ آهٍ من هاتين الطفلتين! فليس لديهما حلٌّ وسط، فإمّا أن تُباغِتا المرء بوقاحتِهما المؤلمة وإمّا أن تجرحانِهِ باحترامهما المُفرط!

قلتُ بعد أن ابتسمتُ بلطف:

- نعم، بِكُل تأكيد يا طفلتيّ الجميلتين، ولكنّكُما ما أخبرتُماني عن اسميكُما، أفلا يحقُّ لي معرفةُ ذلك؟!

أمسكتْ ذات العينين الزرقاوين بشعرها ورفعت نظرها للسّماء، **وقالت بغرورٍ واضح:**

- أنا كلارا، ومن عينيّ الزرقاوين كزرقةِ الموجِ تعرِفُني!

أمّا الأخرى، فقد أمسكتْ بفُستانِها كالأميرات وراحت تدورُ به

حول نفسها في زهوٍ وخجل، **ثمّ قالت:**

- أنا كلير، ومن عينيّ السّوداوين كسواد الليل تعرِفُني.

كنتُ قد فغرتُ مُنبهِرًا من تلك الحركات! بل والعبارات التي كُنّا يحفظنها عن ظهر قلب! وكأنّها جزء لا يتجزأ من اسميهما، **فتسائلتُ بلهفة:**

- من أين أتيتُما بتلك العبارات التعريفية يا صغيرتيّ؟

لم أسمع الجواب منهما، بل سمِعتهُ من لورين التي أطلّت برأسها من نافذة حُجرة الطّعام، **وقالت:**

- أنا من درّبتهُما على الحركات كما وانتقيتُ لهُما تلكُما العبارتين التعريفيتين بوسعك القول أنّ ذلك يُعتبر بمثابة اختصار سريع لا يُكلّف كُل من يتحدّث إليهما عناء البحث عن شيء يستطيع من خلاله التّفرقة بينهما!

كنتُ قد رفعتُ نظري باتجاه النّافذة حيث تقِف لورين، **وقُلت بنبرة مُعترضة:**

- ولكنّني أعتقدُ بأنّ ذاك الشخص سيتكبّد العناء إن لم يسألهُما عن اسميهما فهذه العبارات التعريفية مقترِنة باسمي الطفلتين؛ ممّا يعني أنّه يجِب على المُتحدّث أن يسألهُما عن اسميهما منذ البداية حتّى تتسنّى لهُ فرصة التعرّف عليهما والتمييز بينهما، فقبل لحظاتٍ من الآن كنتُ أنا من تكبّد عناء اكتشاف الفرق بين الطفلتين كان

ذلك بعد أن عمِلتُ قائمة ذهنية بالأشياء المُشتركة بينهما وقد توصّلت إلى نتيجة مفادها أنّ وجه الاختلاف الوحيد بين الفتاتين يكمُن في لون العدسات، وطبعًا هذا كله كان قبل أن أسألهُما عن اسميهما، ولكِ أن تفترضي بأنّ مُتحدّثًا ما لم يسألهُما عن اسميهما وراح يفعلُ مثلما فعلتُ أنا شخصيًا محاولًا إيجاد الفرق، أعتقد أنّ المشقّة لا تزال موجودة على أيّ حال!

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ناعِمة وقالت:

- في هذه الحالة يا سيّدي العزيز يمكنني القول بأنّ ذلك الشّخص يستحقُّ العناء، نعم، أعني هذا جيّدًا، إنّ الأمر في غاية البساطة، ولكنّه أخطأ عندما جعل منه أمرًا صعبًا بتلك المحاولات التي يظن بها أنّهُ محللٌّ بارع ولديه من القدرة ما يكفي لاكتشاف الفروق بين التوائم!

وحتّى لو كانت لديه تلك القدرة فإنّه ليس مُجبرًا على ذلك، فسؤال واحد كفيل لأن يعرِفَ من خلاله كلّ شيء، لستُ أعلم ما الذي سيخسرهُ بطرحِ له؟ **ألستُ مُحقّة في ذلك يا سيّد مايكل!**

شعرتُ بأنّ كلامها موجّهٌ إليّ فتصبّب جسدي عرقاً واشتعلت حرارة فظيعة في وجهي من شدّة الخجل، **فقلتُ محاولًا تخفيف حدّة الموقف:**

- الحقيقة بأنّني أرى.. أرى أنّهُ ينبغي للطفلتين التعريف بنفسيهما

منذ البداية حتّى لو لم يطرح المتحدّث عليهما السؤال فهُناك أشخاص يبدأون بالتحليل والاستنتاج بشكل آلي وتلقائي ولنقُل بأنّ الأمر خارج عن إرادتهم!

ضحِكت لورين، **ثمّ قالت بنبرة مُشاكِسة:**

- حسنًا! لا تقلق فسوف أجعلهُما تفعلان ذلك، حتّى لو لم تُسألا عن اسميهما، أعِدُك بأنّني لن أدعَ مُحدّثهُما يتكبّد عناء التحليل من خلال عمل القوائم كما فعل السيّد مايكل ديفيد قبل قليل!

أهذا وعدٌ بتنفيذ اقتراحي أم سُخرية منّي؟ لستُ أعرِف، ولكن كل ما أعرِفه هو أنّي لا زِلت حتّى هذه اللحظة أشعرُ بالخجل من نفسي، كما أنّني نادِمٌ أشدّ النّدم على إخباري لها بأمر تصنيفي لأوجه التشابه بين الطفلتين! محاولًا العثور على وجه الاختلاف الذي قد يُميّز طفلة عن الأخرى...

يا لحماقتي! تبًّا لي! فكم من مرّةٍ قطعتُ فيها على نفسي وعدًا مفاده "**إمساك لساني عن الحديث الذي لا فائدة تُذكر من ورائه**".

فليس كُل ما يختلِج في قلبي يجب أن أُخبِر به الآخرين، ولكن ماذا عساي أن أفعل؛ فهذهِ النّفس لازالت تُعانِدُني، سُحقًا لي ثُم سُحقاً لي! فلو أنّني احتفظتُ بأمر محاولاتي لنفسي لما أُريقَ ماءُ وجهي هكذا!

بقيتُ أتذّمر وأشتُم نفسي في أعماقي على مافعلت، **حتّى هتفت لورين بصوتها العذب** فتوقّفت:

- يا سيّد مايكل، أرجوكَ أن تتفضّل إلى حُجرة الطّعام، ينبغي أن تتناول وجبة الإفطار!

اقتربتُ أكثر من شجرة البرتقال وما إن أسندتُ ظهري عليها **حتّى قُلت:**

- حسنًا سآتي، ولكن شريطة أن تتوقفي عن مُناداتي "**بسيّد مايكل**" والاكتفاء بذكر اسمي دون أن تسبقيه بكلمة "**سيّد**" فهي تؤرقني جدًّا وتُشعِرُني بأنّني غريب في هذا القصر، لا بأس أن يُناديني الخدم هكذا، "**أقصد سيّد مايكل**"، إذ إنّني في نهاية الأمر أُعتَبر غريب بالنسبة لهُم؛ لذلك لن أشعُر بالغرابة مُطلقًا في هذه الحالة!

ولكنّني سأشعرُ بها في حال كان المُنادي أنتِ وچايدن، يا لورين سأضرِبُ لكِ مثالًا لعلّ من خلاله يصِلُك شعوري.. تخيلي أنّ أحدهُم كان ينتمي لعائلة دافئة لطيفة، ولكنّه مع ظروف الحياة العصيبة اضطرّ للسفر باحثًا عن مصدر لرزقهِ، وما إن عاد ذات يوم متلهّفًا متشوّقًا لذلك الموطن الذي يُريحه من عناء المُعاملات والألقاب الرّسمية حتّى صُعِقَ بأنّ أفراد عائلته يُسبِقون اسمه بكلمة "**سيّد**"!

إنّها الكلمة التي تحمِل في عُمقِها الكثير من الرسمية والغرابة وإن كان بها قدر عظيم من الاحترام والتقدير، صحيحٌ أنّهم استقبلوه بذات اللهفة والشوق، ولكنّهم بتلك الكلمة أشعروه بأنّهُ قد بات غريباً عنهم دون أن يعلموا بذلك!

صمتُّ قليلًا ثمّ استطردت:

- قد تقولين بأنّنا لم نكن على معرفة وثيقة ببعضينا -أعني أنا وأنتِ- لهذا لا مانِع من استخدام كلمة "**سيّد**" هُنا بوسعي أن أطرح عليكِ هذا السؤال؛ أولستِ زوجة أخي؟!.

حسناً، أحسبُكِ على علمٍ بأنّني قد فقدتُ عائلتي في سنٍّ مبكّرة وچايدن هو كلُّ "**عائلتي**" وبما أنّكِ قد أصبحتِ زوجةً له وأنجبتِ منهُ طفلتين فبوسعي القول بأنّكِ صرتِ ضِمنَ عائلتي هل فهمتِ قصدي؟

وضَعت خُصلة من شعرِها خلفَ أُذنها، **وقالت:**

- أفهمُكَ جيّدًا، ولكنّك مع ذلك تُناديني بسيّدة لورين!

قلت عندما ابتعدتُ عن الشّجرة:

- الحق أنّني لم أكُن أرغب في أن أدعوكِ بسيّدة، ولكنّني خشيتُ أن تنظُري لهذا على أنّهُ قلّة احترام وتقدير منّي بما أنّنا لا نعرف بعضينا كثيرًا!

تراجعت إلى الخلفِ قليلًا وكأنّها تتأهّبُ لإغلاق النافذة **ثمّ قالت:**

- هكذا الأمرُ إذًا، حسنًا لا تقلق أعِدُكَ أن أُناديكَ من اليومِ فصاعِدًا باسمكَ وحده ودون أن أُسبِقه بكلمة "**سيّد**" ماذا الآن؟ هل ستأتي لتناول الإفطار؟

انفرجت شفتيّ عن ابتسامة لطيفة **أتبعتُها بقولي**:

- بكل تأكيد، أنا قادمٌ في الحال...

***

وهل تموت الدُمى حُزنًا؟

أدخلت رأسها وأغلقت النّافذة بعد أن تأكّدت من أنّني سآتي لتناول الإفطار، وما إن تحرّكتُ بضع خطوات للأمام حتّى تذكّرت بأنّني لم أسألها أن تطلب من الخادمات أن يفتحنّ لي الباب الخلفي لأختصر الأمر وأدلُف عن طريقه بدلًا من أن أسير مُلتفًا عبر ذاك الممرّ المليء بالوحل والأعشاب الكثيفة، آهٍ يا إلهي إنّني أحمق! أحمق ولستُ أعلم وصفًا يُناسب غبائي الأسطوري! كما وتذكّرت في الحين ذاته بأنّني لم أُقدّم يد العون لتلكما الطفلتين في الأمر الذي كانتا ترجوان منّي المُساعدة فيه، ولكنّني عزمت أن أتظاهر أمامهما بالنسيان؛ وذلك من خلال السير بخطواتٍ متسارعة والاختفاء خلف القصر، صحيح أنّني سأجلب لنفسي العناء بمسيري من هناك ولكن ما باليدِ حيلة! إنّني شقي تعيس على أيّة حال!

وما إن هممت بتنفيذ خطّتي الجبّارة -أو هكذا كنت أعتقد- حتّى **صرخت كلير ذات العينين السوداوين بصوتٍ غاضب:**

- أيُّها الشاب الغبي توقّف! أنسيتَ أنّنا بحاجةٍ إلى مُساعدتِك؟

قالت كلارا ذات العينين الزرقاوين بصوتٍ مزعج:

- لقد سألتنا إنّ كنا نحتاج إلى المساعدة! فما لَنا نراك تهرب الآن من تقديمها إلينا أيّها السيّد الفاضل!

يا إلهي! يبدو أنّني قد تورّطت مع هاتين الطفلتين، أعتقد أنّهُ لا مفرّ منهما؛ استدرت وعُدت أدراجي إليهما وما إن اقتربت منهما حتّى انحنيت لهما وأمسكت بيديهما، ثم **قلت بنبرة حانية** محاولًا ترقيق قلبيهما **كي يترُكاني وشأني**:

- حسنًا يا حلوتيّ، أخبراني كيف أستطيعُ ذلك؟

أجابتا بصوتٍ واحد وهما تشيران بعينيهما ناحية الشّجرة:

- لقد علِقت كرتنا أعلى الشّجرة عندما كنّا نلعب معًا قبل مجيئك، هلاّ أحضرتها لنا من فضلك!

رفعت عينيّ صوب الشجرة وبالفعل كانت الكرة عالقة بين أوراقها، **فقلت معتذرًا:**

- أووه طفلتيّ الجميلتين! يؤسفني القول بأنّني لن أستطيع ذلك فإصبعُ قدمي قد ارتطم بصخرةٍ هذا الصباح وهو مُتضرّرٌ حتّى الآن؛ لذلك لن أتمكّن من تسلّق الشجرة حتّى لا يزداد به الأمر سوءًا!

أطرقتا معًا، **وقالتا بنبرةٍ حزينة:**

- ماذا نفعلُ إذًا؟ هذا يعني أنّ ناروتو سوف يحزنُ كثيرًا لأنّنا لم نُعِد إليه كرته!

حدّقت فيهما بتعجّب **وقلت مستفهمًا:**

- أتقصدانِ تلك الشّخصية الكرتونية الشهيرة في عالم الأنمي؟

قالتا بصوتٍ ممزوجٍ بالعبرات:

- بلى، إنّه ناروتو الشّهير، إنّ هذه الكرة مِلكٌ له وقد وعدناهُ بأنّنا سنعيدها إليه بعد أن ننتهي من اللعب بها، نعم لقد عاهدناه على إعادتها، ولكن إذا ما علِم الآن بأنّ كرته الصّغيرة قد علِقت في أعلى الشجرة فإنّهُ سوف يُفارق الحياة حُزنًا عليها!

وما إن قالتا جملتيهما الأخيرة حتّى انتابتني حالة ضحك مفرطة، إلّا أنّني حاولت كبحها قدر المُستطاع، يا لخيال الأطفال الواسع إنّهُ يُصيبني بالضّحك المُفرط، فمن ذا الذي يموت إذا ما علِقت كرته فوق الشّجرة هذا مُضحِك، مُضحِكٌ جدًّا، آهٍ يا بطني، يا إلهي! لا أستطيع إخفاء ضحكتي أكثر فأكثر!

افتضحتني شهقةُ ضحِك مفاجِئة خرجت من حنجرتي بشكل لا إرادي، فتداركتها عندما **قلت متظاهرًا بالحزن على ناروتو:**

- يا للصغير المسكين! علينا أن نساعده فلا يجب أن نقِف مكتوفي الأيدي هكذا!

وسرعان ما خطرت ببالي فكرة شيطانية استهدفتُ فيها ذلك الحارس الكهل ثقيل الدّم، **فهتفتُ بنبرةٍ متفائلة:**

- لقد عثرتُ على الحل يا صغيرتيّ اللطيفتين، عليكما أن تتّجها الآن وبسرعة نحو الحارس فوستر وتطلبانِ منه أن يجلب لكما الكرة من فوق الشجرة فهو قوي البنية كما ويهوى تسلّق الأشجار بأحجامها المختلفة، سوف يحضر لكما الكرة في بضع دقائق أنا متأكدٌ من هذا، هيّا أسْرِعا وإلّا سيموت ذاك النّاروتو!

فراحتا تركضان خلف القصر لإحضار ذلك العجوز، أمّا أنا فقد أطلقتُ الحرّية لضحكتي التي قيّدتُها قبل لحظات خوفًا على مشاعر الطفلتين، آه يا إلهي! إن التحدّث مع الأطفال يجلب السّعادة، ولكنّ المُرعب في الأمر أنّك قد لا تستطيع الفكاك منهم بسهولة إلاّ في حالةٍ واحدة؛ ألا وهي إرسالهم إلى شخص آخر سواء للعب معه أو طلب العون منه في أمرٍ ما، بالضبط كما فعلت قبل قليل مع الخرِف فوستر، الحق أنّني لا أشعر بتأنيب الضمير تجاهه، فهو مزعج ويستحقّ الكثير من الإزعاج حقًّا، لن أقول أعانهُ الرّب المُعين على الطفلتين، بل سأقول أعانَ الرّب الطفلتين عليه!

هرولت بسرعة من وراء القصر وما إن استدرت من خلال زاويته لأتقدّم نحو الباب الزّجاجي حتّى ألقيت نظرة خاطفة باتجاه حُجرة فوستر فوجدتهما تتحدّثان إليه برجاء، فتبادرَ إلى ذهني أنّهُ ربّما رفض الذّهاب معهما؛ فذاك الأمين المُخلص - والذي قد أدخل رجلًا غريبًا إلى قصر صديقي هذا الصّباح – لا يقدِر البتّة على ترك الباب بلا حراسة لعدّة دقائق، يا للمُخادع القذر! لابُدّ أن أُبلِغ چايدن بأمره!

صعدت الدرجات الثلاث المفضية إلى القصر ودلفت إليه على الفور؛ إذ إنّ الباب لم يكن مغلقًا أصلًا فجلست على الكرسي الخشبي ونزعت على عجل الحذاء المؤذي الذي بسببه تضرّر إصبع قدمي، ثمّ فتحت خزانة الأحذية وأخرجت قبقاب المنزل القطني المُريح وفي ذات اللحظة رمقت حذائي الذي كنت قد جئت به إلى هنا بنظرة امتنان ثمّ أوصدت الخزانة بهدوء!

نظرت لإصبعي بقلق فإذا به قد تورّم وتلوّن باللون الأزرق الممزوج بالقليل من اللون البنفسجي، فلم تكن الضّربة التي تعرضتُ لها بسيطة إطلاقًا، آه !فما زلتُ أشعر بمرارة الألم الذي ألمّ بي ساعتها!

أدخلتُ قدمي برفق داخل القبقاب، وما إن قمت واتّجهت ناحية الممرّ حتّى ظهرت لورين في آخِره، فصارت تتقدّم نحوي بخطوات أنيقة **وهي تقول بصوت عذب:**

- ماذا هناك؟ لِمَ تأخّرتم؟ فلقد ظننتُ أنّ شيئًا ما قد حدث لكم؛ لذلك قرّرت المجيء لأرى ما الخطب؟..

***

ما سِرُّ بُكاء الطفلتين؟!

أجبت وقد تجلّت علامات التّعجب على وجهي:

- ولكن ما الذي يدعوكِ لأن تتكبّدي عناء الخروج من هذا الباب تحديدًا؟ أعني أنّهُ كان بإمكانكِ اختصار الطريق من خلال الباب الخلفي!

راحت تعبث بخاتم الألماس الذي كانت تزيّن به إصبعها، فتارة ترفعه للأعلى، وأخرى للأسفل، **ثمّ قالت:**

- أنت على حق فيما تقول، فما كنتُ لأنوي الخروج من هنا لو أنّك كنت مع كلارا وكلير في الجهة الخلفية، ولكنّني لم أجدكم في تلك الناحية عندما أطلّيت من النّافذة فشعرتُ بقلق شديد حيال ذلك؛ لذا أتيت لأرى الأمر الذي كان سببًا في تأخّركم!

نظَرتْ إلى الباب خلفي، ثمّ أردفت:

- ولكن لماذا لم تأتيا معك؟ هل ما تزالان تلعبان في الحديقة!

تنحنحت لأستعيد صوتي الذي كان قد اختفى من شدّة البرد **ثمّ أجبتها:**

- كلّا! وإنّما رأيتهما قبل دخولي إلى هنا يرجوان الحارس فوستر

لكي يساعدهما في جلب كرتهما من أعلى الشجرة!

قالت بعد أن تنهّدت:

- إنّهما طفلتان شقيّتان، فقد طلبت منهما أن تتوقّفا عن اللعب في تمام السّاعة العاشرة والنّصف حتّى تستعدان لحضور درس الموسيقى الذي سيبدأ في تمام الحادية عشرة ظهراً، ولكنّهما هكذا على الدوام، لا تُذعنان لِما أمليه عليهما، لقد أتعبتاني حقًّا!

أزحت كُم معطفي الأيسر، ونظرت إلى الساعة فإذا بها تشير إلى العاشرة وخمسٌ وثلاثون دقيقة، ربّاه! كيف مرّ الوقت بهذه السّرعة! ثم أين چايدن مالي لا أراه؟ هل حدث له شيئًا ما؟

لا بدّ أنّ هناك مانعًا منع صاحبي من الاستيقاظ باكرًا! أنا أعرفه حق المعرفة، فهو لا يفضّل نوم الصّباح كما أنّهُ ليس ممّن ينام لساعاتٍ طويلة متواصلة!

حدّقت في العِقد الذي كانت لورين تُعلّقه في رقبتها، وشردت بعيدًا هناك، حيث مئات الأفكار والتساؤلات السيئة التي أصبحت تدور في ذهني، ترى هل بدأت إيميليا بتنفيذ خطّتها؟ أتراها وضعت لهُ الحبوب المنوّمة؟ إذًا لماذا لم يستيقظ حتّى الآن؟ من المحتمل أنّها قد رأت بأنّ الوقت مُناسبًا والفرصة سائغة أمامها ولا سيما أنّ سيّدتها لاهيةٌ معي الآن!

لا أعتقد أنّها ستُقدِم على عمل كهذا في الصّباح فقد قالت لي بأنّها

سوف تنتقم عندما يحل الظلام وتكون لورين خارج القصر، أجل صحيح! ولكن يجب ألاّ أنسى ما قالته بشأن تغيير خطّتها في أيّ وقت، ثمّ إنّ ...

قطعت لورين تفكيري عندما **قالت بصوتٍ خجول**:

- ما الأمر مايكل؟ لِمَ تحدّق في هذا العِقْد؟ هل أعجبك؟ إنّ نظراتك هذه تشعرني بالخجل إن كنت لا تعلم!

يا لها من مغفّلة فهي لا تعلم بأنني شارد الذّهن تمامًا، ولستُ مهتمًا لأمر عِقدها ذاك، ربّاه! ها قد ورّطت نفسي بنفسي، أقلّت الأشياء من حولي حتّى أحدّق في عِقدها؟ في ماذا قصّرت الأرضيّة؟ وكذا الجدار! لو كنت قد ركّزت بصري في أحدهِما وولّيت بذهني شاردًا لما وضعت نفسي في هذا المازق!

ما الذي سأقوله لها الآن، أأكذبُ عليها وأقول لها بأن هذا العِقد نادر وجميل؟

أم أقول بأنّهُ مذهل وأنيق بما أنّها هي من ترتديه؟

تظاهرت بأنّني مهتم لأمره، **فقلت بنبرة جادّة**:

- إنّهُ في منتهى الأناقة والفخامة؟ أكان هديّة من چايدن؟

تورّدت وجنتيها، **وقالت بنبرة فيها الكثير من الزّهو والتفاخر**:

- نعم إنّهُ كذلك؛ فحبيبي چايدن لا يكاد أن يتوقّف عن شراء

المجوهرات الثمينة لي، فإنّك إذا ما فتحت الخزانة الخاصّة بي فسوف تدهش عندما ترى ذاك الكم الهائل منها، ثمّ إيّاك أن تظن بأنّها مجوهرات عادية! لا أبدًا، إنّها فريدة ويندر وجودها، فمثلًا هذا العِقد كان هديته الثمينة لي في يوم ميلادي وقد أحضره لي من فرنسا، أمّا هذا الخاتم فهو هديته التي اشتراها من أفخم محلّات المجوهرات في لندن كان هذا عندما احتفلنا بذكرى زواجنا الـ...

قرّرت أخيرًا مقاطعتها لأنّني إن لم أتّخذ قرارًا كهذا فستظل تعرض عليّ قائمة بمجوهراتها، وهذا الأمر لا يعنيني على أيّ حال، **فقلت بصوت هادئ:**

- هذا عظيم! فزوجة مثلكِ يا لورين تستحقّ أن تُهدى أفخم المجوهرات وأثمنها!

نقلت نظري إلى الأسفل للحظة ثمّ عاودت النظر إليها مُجدّدًا، **وتساءلتُ بقلق قائلًا:**

- أرجو المعذرة منكِ، فقد قطعت حديثكِ، ولكنّني قلق على صديقي چايدن! أهو بخير؟ وإن كان كذلك فلِمَ ينام حتّى هذا الوقت المُتأخر من الصّباح؟ طمئني قلبي أرجوكِ!

سارت صوب الباب الزّجاجي **عندما قالت بنبرة مُطمْئِنة:**

- لا تخف، إنّهُ بخير الآن؛ ولكنّه لم ينم جيّدًا ليلة البارحة فقد بات يتقلّب في فراشهِ مرة إلى اليمين وأخرى إلى الشّمال، وأحيانًا مابين

هذا وذاك - أعني على ظهره - أضف إلى ذلك أنّني أفقت على صوتِ أنينه المؤلم، كان ذلك في تمام السّاعة الرّابعة والنّصف! فقد كانت حرارته مرتفعة جدًّا، ولكنّني هرعت بسرعة إلى المطبخ وأعددت له كمادات ماء باردة؛ فانخفضت بفضل الرّب ثمّ بفضلها تلك الحرارة فصار يغط في نومٍ عميق!

وما إن أنهت قولها حتّى فتحت الباب وأطلّت برأسها من خلاله، ولكن سرعان ما أدخلته وسدّت الباب!

أولجت يدي في جيبي ورحتُ ألمس ذلك المنديل المليء بحبّات التّوت، كم أتوق لتناولها مع چايدن، أرجو أن يستفيق من منامه وهو بأتم صحته وعافيته، فلا أطيق رؤيته مرهقًا مريضًا، عزيز قلبي يا چايدن!

بقيت أتأمل لورين التي راحت تلوّح بيدها للخادمة دوليريس -عندما أطلّت هذه الأخيرة برأسها من الباب المفضي إلى المطبخ- **وقالت بنبرة غاضبة:**

- سوف أضطّرُ إلى الإبكاء هذا اليوم، يا لهما من شقيّتين متعِبتين، تعالي يا فتاة!

ألقت نظرة خاطفة على ساعتها **ثمّ هتفت للخادمة التي كان تركض باتجاهنا:**

- بسرعة يا دوليريس! فلم يتبقَ الكثير حتّى يبدأ درس الموسيقى...

وما هي سوى لحظات حتّى وقفت تلك الخادمة أمامنا **وقالت**:

- لقد أمرتني السيّدة آرنستينا أن أطلّ برأسي من الباب، فقد أرادت أن تتأكد أنّكِ بخير؛ ولا سيما أنّها رأتكِ تعبرين الممرّ قبل ثلث ساعة من الآن، فكيف أُساعدكِ سيّدتي؟

تلك العجوز لا أصدّق بتاتًا أنها أرادت أن تطمئن على لورين، أظن أن فضولها هو الذي دفعها لمعرفة ما تفعله سيّدتها، فما كان أمامها إلاّ أن طلبت من دوليريس إلقاء نظرة من خلال ذلك الباب، إنّها لا تختلف عن فوستر الفضولي اللئيم، يا إلهي! لستُ أعلم لِمَ أتكلّم عنها بهذا السوء؟ على الرّغم من أنّها كانت تعاملني هذا الصّباح بلطف وكأنّني...

لحظة! لحظة! فتلك العجوز العجفاء لم تكن تعاملني كابنٍ لها، بل إنّها كانت تتحدّث إليّ كما لو كنتُ طفلًا، أجل لا زلت أذكر كلماتها تلك "**يا طفلي الظّريف**"، تبًّا لها كم أمقتها!

وبعد أن ساد الصمتُ المكان للحظات، **قالت لورين بوجه متجهّم ونبرة حازمة**:

- حمدًا للرّب الكريم أنّكِ أتيتِ، أريدُ منكِ أن تخرُجي حالًا إلى الحديقة وتبحثي عن كلارا وكلير وتحضريهما بأقصى سُرعة إلى هُنا، لا ضير في إبكائهما هذا اليوم إنّني أسمح لكِ بفعل ذلك، ولكن المهم ألاّ تجيئي إلاّ وهما معكِ هل هذا واضح!

هزّت دوليريس رأسها بالإيجاب عندما فتحت الباب وخرجت

لإحضار الطفلتين!

اعتلت علامات الذّهول ملامحي، **فقلت مُستغربًا:**

- كيف تطلبين من الخادمة أن تُبكي طفلتيكِ؟

راحت تذرع الممرّ جيئةً وذهابًا، **ثمّ قالت بصوت غضبان:**

- وماذا عساي أن أفعل معهما إنّهما لا تستمعان إلى كلامي إطلاقًا؟ لطالما كنتُ أتولّى أمر إبكائهما بنفسي عندما تعانداني ولا تُذعنان لأوامري، ولكنّني اضطررتُ هذا اليوم لأن أطلب من دوليريس أن تتكفّل بذلك نيابةً عنّي؛ إذ إنّني لا أستطيع الخروج في هذا الطقس الفظيع البارد، فكما ترى فإن هذا الفستان لا يعصِمُني من البرد، ولئن خرجتُ به إلى الحديقة فإنّني لن أبرح حتّى أصاب بالحُمّى...

الصدق أنّني لم أكن أعلم ما كانت ترتديه من لباس، على الرّغم من أنّها كانت تقفُ أمامي منذ أن قابلتها، لستُ أعلم فلربّما نظرتُ إليه، ولكنّني لم أتفحصه بشكل جيّد -أقصد لباسها- لذلك رحتُ أتطلّع إليه مُتفحّصًا إيّاه، لا لشيء وإنّما لأتبيّن ما إن كانت صادقة في ادعائها بأنّها لا تستطيع الخروج أو أنّها كانت تُبالغ كما تفعل النساء عادةً!

وبنظرة تفحّصية أيقنت أنّها كانت على حقٍ فيما قالته؛ إذ إنّها كانت ترتدي فستانًا حريريًا ذا لونٍ أبيض يصِل في طوله إلى أسفلِ رُكبتيها، كما أنّ لهُ فتحة طويلة تمتدُّ من رقبتها إلى أعلى صدرها بقليل بالإضافة

إلى أنّها لم تضع أيّة شيء على رأسها يقيها شر البرد، فلقد كانت تكتفي بترك شعرها الناعم منسابًا على ظهرها!

قطّبت جبيني وقلت بنبرة معترضة:

- أتعلمين يا لورين بأنّكِ مُخطئة في كل الأحوال؟ نعم أعني ذلك جيّدًا، دعيني أعدّد لك النّقاط الخاطئة التي ارتكبتها، فرحتُ أعدّد على أصابعي، بالنسبة **للنقطة الأولى**: هي تلك التي أكّدتِ لي قبل قليل أنّكِ واقعة بها من قبل ولا تزالين هي النقطة الخاطئة التي تعمدين فيها إلى إبكاء طفلتيكِ كلّما ازداد عنادهما ورفضهما للانصياع لأوامركِ، وبكل تأكيد عندما يسمع المرء أم تقول لطفلتيها "**سأضطرُّ إلى إبكائكما**" سوف يتبادر إلى ذهنه إلحاق العقاب بهما على الصّعيدين _ سواء أكان عقابًا جسديًّا أو معنويًّا _ وإلاّ فكيف سيكون الإبكاء فيما عداهما؟

يا لورين عليكِ أن تكُفّي عن ذلك، فالعقاب ليس الوسيلة الوحيدة التي من خلالها نحسّن سلوكيات أطفالنا، فثمة العديد من الأساليب الفعّالة التي نستطيع بواسطتها إصلاح تلك السلوكيات السيئة واستبدالها بأخرى حسنة، أنا لا أقول أنّه ينبغي عليكِ الاستغناء عنهُ نهائياً فهو في نهاية المطاف من الأساليب المُتبّعة في تنمية وتعزيز القيم لدى الأطفال؛ ولكنّهُ يأتي في نهاية القائمة أي بعد القدوة والقصّة والمناقشة؛ لذا ينبغي عليكِ أن تجعليه دائماً آخر اختياراتُكِ وفي حال

لم تُجدِ تلك الأساليب نفعًا معكِ واضطررتي إلى استخدامه فحذارِ أن تلجأي إليه بشكل مُطلق ودون قواعد محدّدة فإنّكِ إن فعلتِ هذا تكونين قد أفسدتي شخصية طفلتيكِ من غير أن تشعُري!

أمّا **النقطة الثانية** التي ...

قاطعتني لورين قائلة بصوتٍ يكادُ يختفي من تلك البحّة التي داهمت حنجرتها إثر توقّفها عن الكلام للحظات:

- لكن.. لكنّني ألجأُ عادةً إلى استخدام النّوع الثاني من العقاب، أقصد النفسي أو المعنوي، أعتقد أنّ وقعهُ أخفُّ بكثير من نقيضه الجسدي أليس كذلك؟

هززت رأسي نافيًا بشدّة ما قد قالته، **وأجبت بنبرة محذّرة:**

- لستُ أعلم نوعية العقاب النّفسي الذي تتبعينهُ مع طفلتيكِ، ولكن إيّاكِ أن تُشعريهما أو تُخبريهما بأنّ محبّتكِ لهُما لم تعُد كالسّابق وأنّكِ بتِّ تكرهينهما لقيامهما بذاك السّلوك الخاطئ! الحقيقة أنّني لا أُنكر بأن هذا النّوع من العقاب مُجدي وسيجعلهُما تقتنعان بأنّ ذلك السّلوك سيء، وبالتّالي تكُفّانِ عن تكراره، ولكنّه يا لورين يُدمّر الطفل داخليًا في الوقت الذي يُصلِحه وهذا ما لا نُريده فنحن نرغب في تعديل سلوك الطّفل دون إلحاق أيّة ضرر بصحّته النّفسية، يا لورين، عليكِ أن تجعلي جُلّ تركيزك على تغيير السّلوك غير المرغوب فيه وليس على الطفلتين، فمثلًا طفلتيكِ

الآن تتأخرانِ عن الدّرس وتفضّلان اللّعب في الحديقة على ذلك، حسنًا، هُنا يُمكنكِ أن تستعملي معهما الحوار والمناقشة وما إلى ذلك من الأساليب التي تأتي في بداية القائمة، وإذا ما رأيتِ بأنّ السلوك لم يتغيّر فبوسعكِ اللجوء للعقاب المعنوي، ولكن بشرط! ألاّ يكون على النحو الذي ذكرتهُ قبل قليل قد تتساءلين كيف يكون ذلك؟ حينها سأقول لكِ "**بالحرمان المؤقت**" نعم، فبمقدوركِ أن تحرمي طفلتيكِ من الخروج إلى الحديقة وتوضّحي لهُما السبب الكامن خلف تصرّفكِ هذا فتقولين "**إن لم تلتزما بوقت الدّرس ستُحرمان من الخروج للعب لمُدّة أسبوع**" عندئذٍ سُتلاحظين زوال ذلك السلوك السيء تدريجيًا بحيث تصبحان أكثر التزامًا من ذي قبل وستحضران الدّروس في موعدها، لأنّهما إن لم تفعلا ذلك؛ فسوف تُحرمان من اللعب بلا شكّ!

كانت لورين تُصغي إليّ باهتمام شديد كما لو أنّها تلميذة نجيبة تسعى للحصول على المعلومات المُفيدة!

نظرتُ إلى ساعتي التي كانت تُشير إلى الحادية عشرة وخمسُ دقائق.

فمضيتُ مُكمِّلا النقطة الثانية على عجل:

- دعينا نأتي الآن على ذكر **النقطة الثانية،** هذه النقطة في غاية الأهمية! ولكنّني سأختصرُها نظرًا لضيق الوقت فلا تنسي أنّنا

على موعدٍ مع اللص إدوارد في تمام الثانية عشرة، حسنًا ماذا كنت سأقول؟ نعم، صحيح هذه النقطة تحديدًا تُعتبر خطأً فادحًا ارتكبتهِ في حق طفلتيكِ، لقد قُلتِ لي بأنّها المرّة الأولى التي تفعلين فيها هذا الشيء، إنّ هذه النّقطة ...

قاطعتني قائلة بنبرة مُتعجّبة:

- أتعني عندما طلبتُ من الخادمة أن تُبكيهما؟ وماذا في ذلك؟

أكملتُ متجاهلًا سؤالها الذي لو كانت قد صبرت قليلًا لحظيت بإجابةٍ شافيةٍ عليه :

- إنّ هذه النقطة تكمن في إطلاقكِ العنان للخادمة بإبكاء الطفلتين، ما كان عليكِ أن تقومي بهذا العمل الغبّي، ألا تعلمين أنّكِ بذلك التصرّف الأهوج قدّمتي لها الحلّ الأكثر قسوة وإيلامًا، الحل الذي تستطيع من خلاله إسكات الطفلتين عنها حينما تُزعجانها في الوقت الذي تكونين أنتِ فيه خارج المنزل، أعتقد أنّها ستقول حينها بلا ريب: **"والدتهُما ليست مكترثة لأمرهما كما أنّها تلجأ إلى ذات الأسلوب إذا ما تسبّبت الطفلتين في إزعاجها، فلِمَ لا أتّبعه أنا أيضاً لكي أتخلّص من ضجيجهما؟"**.

يا لورين، عليكِ أن تُظهري أمام الخدّم محبّتكِ العميقة لطفلتيكِ وأنّ الويل لكل من يحاول أن يمسّهما بأيّة أذى، حينها فقط لن يجرؤ أيّ شخص على إيذائهما، تذكّري دائمًا بأنّهُما ليستا سوى طفلتين

بريئتين وهذه هي عادة الأطفال في مثل هذا السّن يُحبّون إثارة الشغب والمُشكلات وعصيان الأوامر، إنَّ الأمور طبيعية جدًّا، ولكن نحنُ من يُسيء التعامل معها بالشّكل الصحيح!

أطرقت وقالت بنبرةٍ مليئة بالنّدم والشعور بالذّنب على ما فعلته:

- أنت على حق في كل ما قلته، إنّني آسفة لأجل طفلتيّ، الحقيقة أنّني لم أكن أعلم بأنّي أجهل الكثير في المجال التربوي، أعترف بأنّك تتفوّق عليّ كثيرًا في هذا الجانب على الرّغم من أنّه أنا التي يجب أن تكون على دراية تامّة بمثل هذه الأمور بحكم أنّني أم ولديّ طفلتان! شكرًا لك يا مايكل فقد نبّهتني إلى ما كنت أجهله في تربيتي لطفلتيّ كما أنّك قد أيقظت حماستي لزيارة المكتبة في نهاية الأسبوع المقبل - بعون الرّب القدير - حيث سأقتني العديد من الكتب التربوية التي سوف تساعدني دون أدنى شك في زيادة حصيلتي المعرفية، فأنت لن تبقى بقربي دائمًا لأعود إليك وأستسقي منك المعلومات، بوسعي القول أنّك مكتبة مُتنقّلة!

أنهت حديثها بضحكة قصيرة ناعمة، أمّا أنا فقد ابتسمت ابتسامة لطيفة، **وقلت مداعبًا** بينما وضعتُ يدي على صدري وانحنيتُ قليلًا:

- المكتبة المُتنقّلة في خدمتِكُم دائمًا!

وما إن نظرنا إلى بعضنا حتّى انفجرنا ضاحكين من حماقتنا، ولكن سرعان ما توقفنا عن الضّحك حالما فتِح الباب الزجاجي بعنف

وولجت الطّفلتين وهما تبكيان بحرقة فظيعة تؤلم القلب إيلامًا شديدًا!

تقدّمت لورين ناحيتهما وفتحت ذراعيها لهُما، ولكنّ الطفلتين تجاهلتاها وراحتا تركضانِ عبر الممرّ!

اقتربت لورين من دوليريس، **وقالت بصوتٍ صاخِب**:

- ماذا فعلتِ بالطّفلتين حتّى جعلتيهما تبكيان هذا البكاء المؤلم؟

لم تنبس دوليريس ببنت شفّة، بل بقيت تحدّق في لورين التي أمسكتها مع ثيابها **وراحت تهّزها بعنف وتصرُخ**:

- ما لكِ لا تتكلّمين؟ ما الذي فعلتيه أيّتها السّافلة!

أزاحت دوليريس بعنف يد لورين **وقالت بصوتٍ غليظ أفقدها أنوثتها** التي كان يوحي بها مظهرها:

- ألم تطلبي منّي أن أُبكيهما؟ أم أنّكِ نسيتِ يا سيّدة! ثمّ لِمَ تطلبي منّي أن أفعل ذلك إن كنتِ ستوبّخينني بهذه الطّريقة الهمجيّة، إنّكِ لستِ أمًّا صالحة فلو كنتِ كذلك لما أمرتني بأن أُبكي فتاتيكِ!

احمّر وجه لورين من شدّة الغضب، فأغمضت عينيها ثمّ عضّت على شفتيها بقوة فقد بدت كمن غُرِس في قلبه سكين ولا يعلم كيف ينتزِعُها، فما كان من أمره إلاّ أن أغلق عينيه وراح يعتصر من شدّة الألم الذي أحدثته!

بقيت لورين على هذه الحال للحظات، وما إن اقتربت منها

وأمسكت بيدها محاولًا تهدئة الوضع حتّى أبعدت يدي بقسوة، ودنت أكثر من دوليريس وصفعتها على وجهها صفعةً قويّة عمّ صوتها أرجاء المكان...

***

سأُشعِل النّار في قلبُكِ

قالت لورين بصوتٍ مبحوح بعد أن صفعتها:

- سوف أُمهلكِ عشرُ دقائق لتحزمي فيهنّ أمتعتكِ وتُغادري هذا القصر، فنحن لسنا بحاجة إلى خادمة قذرة كريهة مثلكِ، هيّا اغرُبي عن وجهي، فأنا لا أرغب أن أرى وجهكِ القبيح هذا ثانيةً!

أمّا دوليريس فقد كانت تمسِكُ بخدّها الذي قد طُبِعت عليه أصابع لورين، والدّموع تنهمرُ من عينيها، تقدّمت خطوة باتجاه لورين التي كانت قد أدارت ظهرها لها، وما إن اقتربت منها حتّى **همست في أذنها بنبرة مُهدّدة:**

- لن أغفر لكِ إهانتُكِ هذه، وسوف أُشعِل النّار في قلبكِ، تذكّري هذا الوعيد جيّدًا!

وانصرفت بخطواتٍ سريعة غاضبة بعد أن قالت جملتها التهديدية تلك، أمّا لورين فقد جثت على ركبتيها ودسّت وجهها بين يديها، ثمّ أجهشت بالبكاء!

تقدّمتُ ناحيتها محاولًا تهدئتها عندما دلفت إيميليا من الباب وسارت باتجاهنا بسرعة فائقة، وكأنها تُريد إبلاغنا بأمر ما، وما إن

أصبحت على مقربة منّا حتّى استغربت من الحزن الذي قد ألمّ بسيّدتها!

نقلت عينيها إليّ، **وقالت بنبرة قلقة:**

- هل ثمّة مكروه أصاب سيّدتي؟

فأجبت بنبرة هادئة عندما مسحتُ لحيتي بيدي:

- نشب شجار بسيط بينها وبين الخادمة دوليريس، إنّهُ من أجل.. لا... لا تقلقي إنّها بخير، ولكنّها مُرهقة فحسب!

كانت إيميليا تتأمل عينيّ بعمق، ممّا جعلني أتراجع عن ذكر سبب الشجّار وأتطلّع في ساعتي من شدّة الخجل، وعندما أحسّت بإحراجها لي، **قالت بصوتٍ رقيق:**

- أووه! إنّني آسفةٌ لأجلها، ولكن حمدًا للرّب أنّهُ مجرّد شجار!

دنت إيميليا من لورين التي كانت غارقة في حُزنها، فصارت تمسحُ بحنانٍ على شعرها، **ثم مضت تقول برقّة:**

- أرجوكِ يا سيّدتي العزيزة، توقّفي عن البكاء إنّهُ يُفسِد الجمال، كما أنّ هذا الوجه الجميل لا يحقُّ له البُكاء إطلاقًا، هيّا دعيني أرى تلك الابتسامة الفاتنة تظهر على مُحيّاكِ، أرجوكِ! ابتسمي من أجلي أنا إيميليا إن لم يكن هذا من أجل أيّة شيء آخر!

وما هي سوى لحظات حتّى أزاحت لورين يديها عن وجهها الباكي؛ وانفرجت شفتيها عن ابتسامة ناعمة ساحرة زادت وجهها جمالًا فوق

الجمال الذي أحدثهُ البُكاء في ملامحها قبل لحظات، إنّها مذهلة، بل وفاتنة حتّى وهي باكية، ولكن لِمَ تقول إيميليا بأنّ البكاء يفسِد الجمال؟ فأنا لا أرى شيئًا من هذا القبيل! أووه نعم صحيح ربّما أرادت المواساة ليس إلّا!

أمسكت إيميليا بيدي لورين وساعدتها على النّهوض، **ثمّ هتفت بنغمةٍ طفولية:**

- مرحى مرحى! لقد ابتسمت سيّدتي، ربّاه ما أجمل هذا الثغر البهي الباسم!

قالت لورين بصوتٍ مُتقطّع وهي تنظر إليها:

- ممتنةٌ لكِ إيميليا، أنتِ في منتهى اللطف يا فتاتي الحلوة!

توقّفَت قليلًا ثمّ استدركَت:

- ماذا هل استيقظ چايدن؟ وهل جهّزتُم المائدة؟ لقد تأخر الوقت كثيرًا ومايكل لم يتناول شيئًا منذ أن استيقظ!

أجابت إيميليا بنبرة مُهذّبة:

- نعم يا سيّدتي، لقد أفاق من منامه قبل قليل وهو بانتظاركم في حجرة الطّعام وقد طلب منّي أن آتي لاستدعائكما، كما أنّ كلّ شيءٍ جاهز؛ ولكن عليكما ألاّ تتأخرا في الذّهابِ إلى هُناك؛ وإلّا فسيبرُد الطّعام، فالطّقسُ بارد كما تعلمين!

رمقتني بنظرة غريبة، ثمّ استأذنت سيّدتها وانصرفت، أمّا لورين فنظرت إليّ، **وقالت بنبرة مُعتذرة:**

- معذرةً إن كنّا قد جلبنا لك التّعاسة بهذا الشجار السخيف يا مايكل!

أومأت برأسي **وقلت بنبرة مفعمة باللطف:**

- لا داعي للاعتذار، فليس هناك ما يستحق ذلك يا لورين، ثمّ إنّني لستُ ممّن يتأثر بالمُشاجرات على الإطلاق!

تنهّدت بارتياح وقالت:

- حمدًا لإلهي، هذا عظيمٌ جدًّا، فهناك الكثير ممّن أعرفهم لا يلبثوا إلاّ أن يُصابوا بتعاسة وضيق شديد عند نشوب النزاعات حتّى ولو كانت لا تعنيهم البتّة...

***

أتراها مُهتمة لأمر طفلتيها؟

تطلّعت في ساعتها على عجل، **ثم أضافت:**

- آه ما أسرع الوقت! إنّها الحادية عشرة والنّصف، علينا أن نذهب إلى چايدن فلابدّ أنّهُ قد سئمَ الانتظار!

وبينما كنّا في طريقنا إلى حجرة الطّعام؛ قفز ببالي سؤال تردّدت في طرحه خشية أن يكون سببًا في إثارة انزعاجها، **ولكنّني فكّرت بأخذ الإذن منها أوّلًا:**

- لورين، لديّ سؤال أودُّ أن أطرحه عليكِ، طبعًا إن كنتِ تسمحين لي بذلك!

التفتت نحوي وقد ظهر على وجهها تعبير فضول، **فقالت:**

- بكل تأكيد، كما وأرجو ألاّ تستأذن منّي إذا ما رغبت في طرح أيّة سؤال مهما كانت طبيعته، هل كلامي واضح؟

ضحكتُ ضحكة خجولة، **ثمّ قلت بلطف:**

- بالطّبع واضح أشدّ الوضوح!

حسنًا إليكِ هذا السؤال:

- أنتِ لم تذهبي للاطمئنان على طفلتيكِ بالرغم من علمكِ بحزنهما، فهلاّ أوردتِ لي سببًا مقنعًا يبرّر تصرّفكِ هذا؟

توقّفت لورين عن المشي وراحت تمعن النّظر في عينيّ عندما **قالت باقتضاب:**

- إنّني أفهمك جيّدًا يا مايكل، فأنت لا تريد أن تسأل بقدر ما تريد أن توضّح لي بطريقةٍ لبقة بأنّني أمٌّ مهملة وغير مبالية لحزن طفلتيها، فلم تجد أمامك سوى هذا السؤال، أوَ لستُ على حقٍ في ذلك؟

الحقيقة أنّني لم أطرح هذا السؤال لكي أوضّح لها ما اعتقدته وإنّما طرحته؛ لأُريحَ عقلي الذي صار يصِف تصرفاتها وذهابها لتناول الإفطار قبل أن تطمئن على فتاتيها بالإهمال، أجل أردت أن أحصل منها على إجابة شافية تُحبِط تداعيات هذا العقل القائل بأنّها لا تحب طفلتيها ولا تأبه لأمرهما!

ولكنّني لم أكن أمتلك من الجرأة مايكفي حتّى أقول ذلك لها فما كان أمامي إلاّ أن **قلت:**

- لا لا أرجوكِ يا لورين! إيّاكِ أن تفهمي سؤالي بهذا الشكل السّاذج، إنّما طرحته لأُرضي فضولي حول سبب بكاء الطفلتين، فكل ما في الأمر أنّني أردُتكِ أن تذهبي إليهما لتتبيّني السبب خلف نُواحِهما المؤلم، ولم أستطع أن.. أن أُصارحكِ برغبتي العارمة في معرفة ذلك، لقد.. لقد خشيت أن تأخذي عنّي انطباع سيء مفاده

أنّي "**شخصٌ فضولي**"، صدّقيني لورين هذا كل شيء!

غطّت فمها بيدها وضحكت ضحكة ناعمة، **ثمّ قالت ببهاء:**

- كلّا لستَ فضولي، ولكن بكاء كلارا وكلير كان غريبًا جدًّا إلى الحد الذي يدفع المرء دفعًا للبحث عن الأسباب الكامنة وراءه، أضف إلى ذلك بأنّني لم ألحق بهما لأنّني أعلمُ بأنّ معلمة الموسيقى كاميليا تنتظرهما في حجرة الدّرس، إنّني على ثقة بأنّها استطاعت تهدئتهما؛ فهي متعلّقة بهما وتحبُّهما كثيرًا!

قالت جملتها الأخيرة وأكملت مسيرها فأكملتُ معها وقد تنهّدتُ تنهيدة تنُم عن مدى ارتياحي لشيئين **أوّلهما:**

اقتناع لورين بالسبب الذي ذكرته لها فيما يتعلّق بطرحي للسؤال!

ثانيهما:

أنّني حظيت بإجابة وافية منها كذّبت كل تلك الأفكار التي كان يقرّها عقلي حول إهمالها وعدم اكتراثها، **فقلت:**

- هذا جيّدٌ جدًّا؛ لهذا السبب أراكِ مطمئنة، أتعلمين يا لورين لقد كنت أرى الخادمة دوليريس في غاية التهذيب عندما رأيتها لأول مرّة، لكننّي صُعِقت فعلًا عندما قالت لكِ تلك العبارة الجارحة فضلًا عن ذاك التهديد الذي اختتمت به حديثها، هذا عجيبٌ غاية العجب؛ فالمظاهر توحي لنا بشيء والمواقف تكشُف لنا شيئاً آخر!

قالت لورين وقد قطّبت جبينها:

- الحقيرة تستحق تلك الصفعة! سأذهب بعد تناول الطّعام لأتحقّق من مغادرتها للقصر فلم أعد أحتمِل رؤيتها، صحيح أنّني مُخطئة إذ أمرتها بإبكاء الطفلتين ثمّ وبّختها على ذلك، لكنّها أساءت إليّ بكلامها في نهاية الأمر، كما أنّهُ من الأفضل ألّا تبقى في دارنا خاصّةً بعد أن - أطلقتُ العنان لها بإبكاء كلارا وكلير - فقد بتّ أخشى عليهما كثيرًا لا سيّما بعد أن تنبّهت من حديثك المثري وقولك بأنّها قد تقوم بتكرار هذا مع الطفلتين حال غيابي عنهما!

اقتربنا من الباب فتسارعت خطواتنا، وما إن إليه وصلنا حتّى على الفور دخلنا!

***

صديقي يتلذّذُ بفكرة القتل!

كان چايدن قد استند على ظهر الكرسي وأمسك بمعدته عندما **قال بصوت أقرب للاختفاء:**

- هذا مبكّر جدًّا! كان بوسعكما إكمال أحاديثكما لوقتٍ أطول، لستُ أفهم كيف طاوعتكما نفسيكما أن تتبادلا الأحاديث والضّحكات بدوني، ولكن لم يعد يهمّني هذا الآن فقد اقتصّيتُ لنفسي وتناولت الطعام قبلكما!

تقدّمتُ ناحية المائدة مع لورين، **وقلت بنبرة مشاكسة:**

- يا للمسكين! لقد قضينا صباحًا ممتعًا للغاية، ثمّ كفاك زعمًا بأنّك قد اقتصّيت لنفسك بتناول الطّعام قبلنا فهذا لا يُغني أبدًا عن المُتعة التي حظينا بها، أليس كذلك يا لورين؟

قالت لورين بينما سحبت كرسي وجلست إلى المائدة:

- نعم هو كذلك، أظن أنّ تناوله للطعّام قبلنا ليس سوى رثاء يرثي به نفسه المكلومة، أضف إلى ذلك بأنّ ما فعله لا يمت للاقتصاص بصلة...

جلستُ إلى المائدة، **وقلت عندما رفعت زجاجة الماء وسكبت**

الكثير منها في كأسي:

- عجبًا إنّني أشعر بعطش غريب منذ أن استيقظت هذا الصّباح، لستُ أعلم سببًا لهذا على الرّغم من أنّنا مازلنا في فصل الشتاء أي لم يحن الوقت بعد لأن يشعر المرء بالظمأ في كل لحظة من لحظات يومه!

ضحك چايدن بعنف، **ثمّ قال مقهقهًا:**

- أحسب والعلمُ عند اللّه أنّك قد ابتلعت السّمك الموجود في الحوض المُخصص في حُجرة الاستقبال، وإلّا لِمَ كل هذا العطش؟ بمقدوري أن أقسِم بوجود عدد لا يُستهان به من الأسماك القاطنة في معدتك المُظلمة القاحلة الخالية من أيّة نباتات، يا للأسماك البائسة! لقد قادها حظّها السيء لأن يكون مهلكها في هذا الجسد الطويل المُرعب!

انفجر ضاحكًا مرّة أخرى وصار يضرب فخذيه بكلتا يديهِ من شدّة الضّحك، توقّف للحظة وما إن استردّ أنفاسه التي سرقها الضّحك حتّى تبصّر في وجهي، **وقال بنبرةٍ ساخرة:**

- أخبرني يا عزيزي لا تخشَ شيئًا، فلن أوبّخك ما دمتَ ستقول الحقيقة، هل ابتلعتَها فعلًا، ومتى كان ذلك؟

استدار برأسهِ ناحية لورين، **وقال بنبرة معاتِبة تكاد تكون أقرب للحقيقة:**

- وأنتِ يا زوجتي لماذا لم تنتبهِ لهذا الغر الصّغير؟ أعلم تمامًا بأنّ طيبة قلبُكِ لا تسمح لك بتأنيبه وزجره، ولكن ماذا كنتِ ستخسرين لو أنّكِ طلبتِ من الخدم أن يقلوا له الأسماك على الأقل قبل أن يلتهمها بهذه الطّريقة المُزرية، إنّهُ لا يختلف عن الحيوانات إطلاقًا، نعم الحيوانات!

ظلّ يردّد كلِمته الأخيرة وهو يضحك بشكلٍ مفرِط جدًّا لدرجة أنّهُ انتزع من العلبة منديلًا ورقيًا وأخذ يمسح دموعه التي انهمرت من شدّة الضّحك!

فكّرت وأنا ألتهم قطع البيض الواحدة تلو الأخرى بأنّ هذا الضّحك المفرط الذي وقع فيه صديقي ما هو إلّا أثر واضح لِما قد حلّ به ليلة البارحة من قلقٍ وأرق؛ فلا شكّ بأنّهُ يريد التنفيس عن نفسه من خلاله، يا له من مسكين!

تراجع بكرسيه إلى الخلف حتّى سُمِعَ له صوت احتكاك مُزعج، **ثمّ قال بنبرة مستفزّة:**

- كم أرجو أن أكون قد أصمّيتُ آذانكما بهذا الصّوت القبيح!

ثمّ انفجر ضاحكًا مرّةً أخرى، أمّا أنا ولورين فكنّا مُنكبّين على الطّعام لذلك لم نرُّد عليه البتّة، بل اكتفينا بالاستماع إلى سذاجته!

وما إن ضجِرَ منّا حتّى قام من مقعده، **ثُمّ قال بتذمّر:**

- تبقّت عشر دقايق على مجيء ذلك اللّص القذر، تبًّا له فبسببهِ

لم أذق لذّة النّوم ليلة البارحة، أعتقد أنّ تفكيري بما سيقولهُ لي قد انعكس سلبًا على جسدي، وإلاّ لما ارتفعت درجة حرارتي وأُصِبت بالصّداع وآلام العظام، إنّهُ المُتسبّب في ذلك بلاريب، يا لهُ من رجُلٍ بغيض!

تقدّم بضع خطوات نحو الباب، **ثمّ استدار وأضاف:**

- سأذهب للمكتبة استعدادًا للقائه، اتبعاني حالما تنتهيان!

دفعت الكرسي إلى الخلف بسرعة، **وقلت بصوت محشرج:**

- على رسلِك چايدن! أودُّ الذّهاب معك، لقد أنهيت طعامي!

قال بعد إن ابتسم ابتسامة عريضة باهتة:

- أتعلم بأنّك تفتقر للذّوق؟ فكيف لك أن تدع لورين لتتناول الطّعام بمفردها؟

استرقت النّظر إلى لورين التي أمسكت كوبها بيديها وانتصبت، وما إن فتحتُ فمي لأعتذر منها، **حتّى سبقتني قائلة:**

- حبيبي چايدن أرجوك لا تُشعِره بأنّهُ مخطئ، فماذا إن بقيت أتناول الطّعام بمُفردي لا أظن بأنّ في الأمرِ ما يُخجل، ثمّ إنّ انصراف أحدهم عن المائدة وتركه للآخر يتناول الطّعام بمفرده لا يعني أبدًا أنّهُ يفتقر للذّوق، إنّها مجرّد قوانين سخيفة وضعها البشر وقيّدوا بها أنفسهم وليس هذا فحسب، بل إنّهم أصبحوا يتناقلونها

فيما بينهم دون أن يفكّروا في مدى سخافتها!

عبرت الحجرة **وهي تقول بنبرة مطمئنة:**

- لا تقلق يا مايكل فأنا لم أنهض لأنكَ كنت ستتركني وتمضي، ولكنّني اكتفيت تمامًا، حمدًا وشكرًا للرّب الرّزاق المنعم!

تفاجأتُ مّما قالته! فكيف علِمت بما يدور في أعماقي! الحق أنّني كنت قد شعرت بتأنيب الضمير؛ إذ ظننت بأنّني السبب في إنهائها لطعامها بسرعة، إلاّ أنّها بقولها هذا قد أخمدت عنّي نيران التأنيب التي اجتاحتني!

سألها چايدن الذي قد خيّمت على ملامحه علامات الدّهشة:

- لورين إلى أين يا طفلتي؟ ألا تُريدين الذّهاب معنا للقاء ذلك الوغد؟

ارتشفت بهدوء القليل من كوب الشّاي الذي كانت تحمله بنعومة بين يديها، **ثمّ قالت بصوت عذب:**

- بلى يا عزيزي، أودُّ ذلك كما ويهمُّني جدًّا أن أكون قريبةً منك في وقت كهذا، ولكنّي سأذهب بضع دقائق لأطمئن على كلارا وكلير!

قال بنبرة قلقة وهو يسير نحوها:

- ما الشأن يا لورين؟ ما بهما؟ أهما مريضتان؟

طلبت لورين منّي أن أقُصّ على زوجها تفاصيل الشجّار الذي نشب بينها وبين الخادمة دوليريس، ومضت هي للاطمئنان على طفلتيها والتأكد من مغادرة دوليريس للقصر، فجعلتُ أسرِد على چايدن ما حدث بالتّفصيل المُمل، منذ أن طلبت زوجته من الخادمة أن تُبكي طفلتيها.. وحتّى ذاك التهديد الذي وجّهته تلك الأخيرة إلى زوجته، كان ذلك ونحن نسير عبر الممّر في طريقنا إلى المكتبة، **أنهيتُ سردي لما جرى بقولي:**

- الحقيقة يا چايدن أن كلتاهما على خطأ؛ ولكنّني أرى بأن دوليريس أعظمهما خطأً، فما كان ينبغي عليها أن تقلّل من شأن سيّدتها وتصفها بأنّها أُم غير صالحة، أضف إلى ذلك أنّها عمِدت إلى قول تلك الجملة التهديدية؛ لطالما كانت تلك التهديدات تُثير مخاوفي وفزعي، فأنا أشعر بأنّ من يقولها يعنيها تمامًا!

قلت جملتي الأخيرة عندما ابتلعت ريقي بقلق وخوف ممّا ستفعلهُ تلك الخادمة! وحينما وصلنا إلى المكتبة فتح چايدن الباب بعنف، **وهو يقول بنبرةٍ قد جمعت ما بين السّخط والتوتّر:**

- يا لها من خادمةٍ حقيرةٍ ناكرةٍ للمعروف أتهدّدنا بعد أن تفضّلنا عليها وسمحنا لها بالعمل عندنا! لطالما كنت أراها من خيرة الخدم لدينا، لكن وا أسفاه فقد خيّبت آمالي وظنوني الحسنة بها سُحقًا لها!

اتّجه إلى كرسيّه خلف مكتبه، وقذف بنفسه عليه بقوّة **وهو يقول بنبرة متحسّرة:**

- إنّني لآسفٌ لأجلِنا! فلقد خُدِعنا بها، أرى أنّ لورين قد أحسنت صُنعًا إذ طردَتْها من هنا حتّى وإن لم تفعل ذاك؛ كنت سأفعلهُ أنا عِوضًا عنها، آه! يا ليتني كنت معكم في تلك اللحظة، فلديّ الكثير ممّا كنت سأفعله بتلك القذرة!

فغرت فاي وحدّقت في وجهه، **ثمّ قلت مذهولًا:**

- مثلُ ماذا؟ أقصد من بين ذاك الكثير الذي كنت سوف تفعله بها؟

أشار إليّ بعينيه لأجلس على الكرسي المُقابل له، **ثمّ مضى يقول وهو يُمثّل حديثهُ بكلتا يديه:**

- كنتُ سأطلب من إحدى الخادمات أن تستدعي زميلاتها الأخريات من المطبخ وتحضر معها سكّينًا كبيرة، وحالما يجتمع الجميع سوف أُشمّر عن ساعديّ وأشرعُ بقطع لسان دوليريس، وانتبِه! إيّاك أن تتخيّل بأنّني سأقطعهُ بسرعة دفعة واحدة، لا يا صديقي! فلا بدّ أن أجعلها تتجرّع الألم وتبكي دمًا، أجل سوف أقطعه رويدًا رويدًا وببطءٍ شديد إلى أن أُبصِر دمعها وقد تحوّل إلى اللون الأحمر الغامق، وبعد أن أنتهي من تلك العملية المُمتعة؛ سوف أعرِض لسانها أمام ناظريها، لتشتعل النّار في جوفها من شدّة الألم والحزن المرير على حالها، أريد لقلبها أن

يتمزّق ندمًا وأسفًا على ما فعلته مع العائلة التي آوتها وأكرمتها خلال السنوات الطوال الماضية، لا تعتقد بأنّني سأجعلها تتعذّب جسديًا فحسب! بل سأُلحق بها أشدّ درجات العقاب النّفسي بحيث سأُحضر كابي كلب حراسة منزل جارنا السمين السيّد ماثيو، وسوف أقدّمُ له لسانها المبتور كوجبةٍ لذيذة يتلذّذ بها أمام عينيها الغارقتين في دمعها ذا اللون الأحمر، وليس هذا فقط يا صاحبي! بل إنّني سأطلب من زميلاتها أن يسخرنَ منها لأنّها لا تمتلك لسانًا، والويل لمن سترفض ما آمُرها بها لأنّها سوف تلقى أفظع وأمرّ ممّا لاقته هذه الحقيرة!

ارتجفتُ بقوّة، **وقلت محاولًا تكذيب ما سمعته:**

- لا بدّ أنّك تمزح! لستُ أعلم متى ستكف عن سذاجاتك هذه يا چايدن!

اتّكأ بمرفقيه على الطاولة، **ثمّ قال بنبرة جادّة:**

- ومن قال لك بأنّني أمزح أيُّها الأحمق؟

إنّني أعني كل كلمة قُلتها، نعم أعنيها وبشدّة!

لم أنطق بكلمة وإنّما بقيت أتأمّل ذلك الوجه البريء النّقي الذي لا يظن من ينظر إليه بأنّهُ مجرّد وجه تنكّري يختبئ خلفه قاتل شرس يهوى الدّماء ويتلذّذ بمنظر البؤس والشّقاء في عيون ضحاياه!

الآن فقط أدركت بأنّ ما قالته لي إيميليا ليلة أمس كان صحيحًا؛ فما

تفوّه به صديقي قبل لحظات خيرُ دليل على صحّة كلامها فيما يتعلّق بمحاولته لقتل والدها!

آهٍ يا قلبي! أشعر بأن صوتًا صاخبًا يصرخ في أعماقي، يصرخُ بقوّة وكأنّه يطلب منّي مواجهة صاحبي وإعادته إلى رشده؛ إلاّ أنّني لا أستطيع حقًّا فعل ذلك، لا أستطيع! فإن فعلتُ ذلك سيعلم بلا شك أنّ إيميليا هي الشّخص الوحيد الذي أخبرني بمحاولات القتل التي أقدم عليها فيما مضى حينها لن يتردّد في إلحاق الأذى بها، وربّما ألحقهُ بي أنا أيضًا!

قطع چايدن تفكيري عندما قال بفظاظة:

- إلى أيّ العوالم سافرت؟ ما لي أراك شارد الذهن؟

حاولت التّصرف بشكل طبيعي فاتكأت بمرفقي على يد الكرسي، **وقلتُ مداعبًا:**

- الحقيقة.. الحقيقة.. حسنًا سوف أخبرك، ولكن أرجوك يا چايدن لا تهزأ بي فأنا.. فأنا أفكّر في الطّعام الذي سنأكلهُ خلال وجبة الغداء!

ضحك ضحكة صاخبة وقال:

- يا لك من جشع؟ ما هذه المعِدة التي لا تكاد أن تشبع؟ أو لم يكفيك ما التهمته قبل لحظات؟

ألقى نظرة على ساعته وقال بضجر:

- أين ذهب ذلك السّافل؟ فالسّاعة الآن الثانية عشرة والرّبع، أتراهُ لم يعد يرغب في المجيء؟ ...

***

دعني أقتُلها إنّها إمّعة!

وما إن هممتُ بإجابته حتّى فُتِح الباب ودخلت لورين بصحبة سيّدةٍ بدا واضحًا من مظهرها أنّها في العقد الثالث من عُمرها، سمراء البشرة، طويلة القامة، ذات شعر أسود قصير، ترتدي بنطالًا ذا لونٍ أحمر ومِعطفًا صوفيًا أخضر، أدخلتها لورين وأغلقت الباب، وعندما وقفتا أمامنا مباشرةً؛ أشارت بيدها إليها، **وقالت بصوتٍ أعذب من العسل**:

- إنّها السيّدة أماندا جاكس زوجة السيّد إدوارد جاكس فقد أتت عِوضًا عنه؛ لتُناقش معك ذلك الموضوع المُهم يا عزيزي.

ثمّ أشارت بيدها إلى چايدن الذي نهض من مقعده وصافحها بحرارة، **وقالت بعذوبة**:

- هذا هو زوجي السيّد چايدن كليمنت!

فقالت أماندا بصوتٍ لهُ بحّة مميزة:

- سعيدة برؤيتكَ سيّد كليمنت، لقد حدّثني زوجي عنك كثيرًا!

تنحنح چايدن **ثمّ قال مُرحّبًا**:

- بل نحن السّعداء لأنّكِ أنرتِ دارنا بمجيئكِ إليها يا سيّدة جاكس!

أمّا أنا فكُنت شارد الذّهن – مُتعجّبًا من طريقتها الغريبة في اختيارها لملابسها ذات الألوان غير المتناسقة والتي تظهر فيها كرجُلِ البهلوانِ تمامًا – عندما أشارت لورين إليّ بيدها – **وهي تقول بنبرةٍ ودودة:**

- إنّهُ السيّد مايكل ديفيد صديق زوجي منذ الطّفولة!

لقد فاجأتني بهذا؛ إذ لم أكُن أرغب في مصافحة تلك السيّدة، كما أنّني لا أُطيق البتّة لحظات التعارف السّخيفة هذه فهي تثير انزعاجي كثيرًا، لستُ أعلم ما السّبب، ولكن ما أعلمُه هو أنّني لا أُحبّذها على كل حال!

قمت وصافحتها ببرودٍ شديد جعلها ترمي إليّ نظرات غريبة، كما أنّني لم أنطق بأيّة كلمة ممّا جعل چايدن يتدارك الوضع، **ويهتف مُرحِّباً بها مرّةً أخرى:**

- أهلًا بكِ يا سيّدة جاكس ، تفضّلي بالجلوس!

تناول سماعة الهاتف وهو ينظر إليها، **بينما قال:**

- ماذا تفضّلين يا سيّدة؟ القهوة أم الشّاي؟

جلست بنعومة على الكرسي ووضعت برقّة قدمًا على الأخرى، **ثمّ قالت بنبرة مهذّبة:**

- شكرًا لك يا سيّد چايدن، فأنا لا أرغب في شرب أيّة شيءٍ الآن!

اتكأ چايدن بمرفقيه على طاولة مكتبه، وشبّك أصابع يديه ببعضها..

ثمّ أسند ذقنه فوقها، **وقال متسائلًا:**

- لِماذا لم يأتِ زوجكِ يا سيّدة؟ أرجو ألاّ يكون الأمر الذي منعه من المجيء إلينا خطيرًا!

كانت تعبثُ بقُرطِها الطّويل الثقيل - الذي يُخيّل لناظره أنّها ما هي إلاّ لحظات وتُقطع أُذنها بسببه - **عندما قالت بذات الصوت الخافت المبحوح:**

- لا ليس الأمرُ خطيرًا؛ ولكنّهُ منذ أن أفاق صباح اليوم وهو لا يكاد يتوقّف عن العُطاس، أعتقد أنّهُ قد أُصيب بالزُّشاح نتيجة تعرّضه لهواء التكييف البارد ليلة أمس، لقد حذّرته ومع ذلك لم يأبه لي فكان هذا درسًا قاسيًا له، إنّه يستحقُّ ما أصابه!

حدّقنا نحنُ الثلاثة فيها بذهول، ثمّ تبادلنا النظرات مع بعضنا، **وكأنّ أحدنا يقولُ للآخر:**

- يا لها من امراة لئيمة فكيف تشمت وتهزأ بزوجها في مرضه!

هزّ چايدن رأسه، **وقال بحُزنٍ مُصطنع:**

- إنّني آسِفٌ لأجله عافاهُ الرّب الشّافي المُعافي، والآن يا سيّدة دعينا ندخل في صلب الموضوع، فما هو الأمر الذي يود زوجكِ إخباري به، ولم يستطع لسببٍ ما من الإتيان على ذكره في تلك الرّسالة!

شبّكت أصابع يديها ببعضها، **وقالت:**

- حسنًا، لن أُطيل عليك وسأختصر ذكر ما يبغيه زوجي منكَ أيُّها السيّد المُبجّل!

أطرقت قليلًا، **ثمّ أردفت:**

- إنّ.. إنّ زوجي يأمُرك بأن تتعمّد الخسارة في سباق السيارات الذي سوف يُقام في نهاية الأسبوع، فكما تعلّم يا سيّد كليمنت فإنّ المبلغ المالي الذي سيحظى به الفائز ليس مبلغًا بسيطًا أبدًا، إنّه ثروة هائلة! ولكَ أن تعلم بأنّ إدوارد ما كان ليُضيع فرصة عظيمة كهذهِ على نفسه؛ لذلك قرّر أن يتحاور معك بشكل ودّي فيما يتعلّق بهذا الشأن خاصّةً أنّك المُنافس القوي الأوحد الذي سيخوض معه السّباق، نعم لقد اختار الحوار ليكون السّبيل الأول في إقناعك وإن لم تقتنع به فإنّك ستقتنع بالإجبار؛ فالأفضل لك أن ...

قفز چايدن من مقعده والشّرر يتطاير من عينيه فراحَ يضرب الطّاولة بيده ضربًا عنيفًا، **وهو يصيح بأعلى صوتهِ:**

- بل الأفضل لكِ أن تخرُجي من قصري حالًا؛ وإلاّ فإنّني سوف أرتكِبُ فيكِ جريمة قتل تهُز نيويورك من شدّة بشاعتها!

ابتعد عن كرسيّه سريعًا واقترب منها ببُطء وهو يرفعُ يديه ناحيتها وكأنّهُ راغبٌ في خنقها، **ثمّ استطرد بصوتٍ متوحّش:**

- وحينما يسألوني لِمَ ارتكبتها بكل تلك البشاعة سأجيبهم

حتمًا بأنّني أعشق العدل في ارتكاب الجرائم وبما أنّ السيّدة التي أجهزتُ عليها بشعة جدًّا؛ فإنّ من الواجب أن تكون طريقة قتلها بنفس مستوى بشاعتها!

تسمّرت السيّدة أماندا في مقعدها من شدّة الخوف، ولكنّها ظلّت تتبعهُ بنظراتها القلقة؛ خشية أن يفعل بها شيئًا، دنا چايدن منها وما إن وضع يديه حول رقبتها استعدادًا للإجهاز عليها، **حتّى صرخت بأعلى مستوى من مستويات صوتها:**

- لا.. لا تقتُلني أرجوك، أعِدك ألاّ تشاهد وجهي مجدّدًا، ولكن دعني أمضي في حال سبيلي، صدّقني أنا لا علاقة لي بمُخطّطاتِ إدوارد بتاتًا، ما أنا سوى زوجة مسكينة ليس لها من أمرها شيئًا سوى أن تنفّذ أوامر زوجها!

لفّ يديهِ حول عنقها – غير آبه لتوسّلها – وراح يضغطُ عليه بكل ما أوتي من قوة، وهي تتأوهُ بصوتٍ مختنق وتحاول المقاومة بإبعاد يديه عنها، ولكن دون جدوى!

ألقيتُ نظرة على لورين التي كانت تجلس على الأريكة بمحاذاة رفّ الكتب وتنظر بهدوء لما يحدث، إنّها تُشبِهني تمامًا فلكلينا ذات التّبلد في مثل هذه المواقف؛ ولكن حالما رأينا بأنّ الوضع قد ازداد سوءًا حتّى أشار أحدُنا إلى الآخر بضرورة التصرّف حيال ما يجري!

فوثبتُ على عجل وقبضت بچايدن من ذراعيهِ بقوّة وأبعدتهُ عنها،

أمّا لورين فقد قادت السيّدة التي راحت تصرخ وتُجهش بالبُكاء إلى خارج الحُجرة! نفض چايدن يديّ اللتَين كنتُ أُمسِك بهما ذراعيه ودفعني إلى الخلف، **قائلًا بنبرة تمتازُ غضبًا**:

- أيُّها الغبي لِمَ تدخّلت! لِماذا قطعت عليّ متعتي في إنهاء حياتها؟ إنّها إمّعة لذلك اللّص الحقير، فلو لم تكُن صاحبي لكنت قد قضيتُ عليك معها!

لم أُجِب عليه، بل بقيتُ صامتًا أتطلع بحُزن إلى صاحبي الذي انجرف إلى عوالم القتل السحيقة، لقد أصبح القتل أداة صديقي الشافية التي يلجأُ إليها كلّما أثار غضبهُ شخصٌ ما!

ولجت لورين إلى الحُجرة مجدّدًا، وصارت تتأمل چايدن الذي كان يجلس على الكرسي ويمسك رأسه بكلتا يديه!

***

كلارا وكلير فارقتا الحياة

وبينما نحنُ على هذه الحال علا صوت صرخة مدوية تجعل الرّعب يدُب في قلب المرء من شدّتها بحيث اعتلت علامات الفزع ملامح كلّ واحدٍ منّا! وما هي سوى دقائق حتّى ظهرت إيميليا أمامنا بوجهٍ شاحب شحوب الموتى فجثت على ركبتيها بقوّة، **وقالت بصوتٍ مُرتجِف**:

- لقد ماتتا الطفلتين، كلارا وكلير فارقتا الحياة!

حدّق كلٌّ منّا في الآخر وكأنّنا غير مصدّقين لِما قالته إيميليا! ولكنّها جعلت تضرِب الأرض بكلتا يديها ودموعها تتساقط من عينيها كقطراتِ المطر الكثيفة؛ ممّا دفع لورين لعبور الحجرة باتجاهها بينما قام چايدن ببطء من مقعده وراح يتبعها وما إن اقتربا منها حتّى انحنيا إليها، **فقالت لورين بصوت مذعور**:

- إيميليا كُفِّ عن هذا، فلسنا في وقتٍ يسمحُ بالمُزاح، أين كلارا وكلير هل تناولتا طعام الغداء؟

نظرت إيميليا إليهما بعينين دامعتين قد اكتساهما الاحمرار من شدّة البُكاء، **ثمّ هتفت قائلة**:

- ما الذي تقولينه يا سيّدتي؟ فمن ذا الذي عساهُ يستطيع المُزاح

في أمرٍ كهذا؟ لِمَ تتطلعانِ إليّ هكذا؟ أقول لكُما بأنّ طفلتيكُما قد رحلتا عن الدّنيا! ألا تفهمان؟

تشبّثت لورين بچايدن الذي قد شحب وجههُ واتّسعت حدقتا عينيه وصارت تهزّهُ بعنف وتضرِب صدره بقبضتيها الصّغيرتين، **وهي تصرخ بمرارة:**

- إنّها تكذب أليس كذلك؟ إنّهُن خادمات كاذبات مُخادعات أليس كذلك؟ كلارا وكلير لم تموتا أليس كذلك؟

توقّفت عمّا كانت تفعله، **وقالت بصوت هادئ** وكأنّها لم تكُن تلك التي تُجلجل قبل لحظات:

- حبيبي چايدن طفلتينا على ما يُرام، فلقد تركتهُما قبل قليل لتتناولا الشوكولا ورقائق البطاطا، وكانتا سعيدتين جدًّا، لا تصدّق ما تقوله هذه الخادمة الكاذبة القذرة، لذلك دعنا نطردها من قصرنا حتّى نسلم شرّها؟ ها ماذا قلت عزيزي؟

لم ينبُس چايدن بأيّ كلمة؛ بل أبعدها عنه وغادر الحُجرة بهدوء، أمّا هي فراحت تسير على أثره بخطواتٍ مثقلة بالقلق على طفلتيها، **وهي تقول بذات النّبرة الهادئة:**

- هل صدّقتها؟ إلى أين أنت ذاهب؟ إنّهما بخير توقّف!

لقد كانت صرخاتها ومحاولاتها الباهتة في تكذيب ما يحدُث؛ دليل واضح على حُبّها العميق لطفلتيها حتّى وإن أظهرت تصرّفاتها

هذا الصّباح عكس ذلك، يا للمسكينة! يبدو أنّها سوف تنهار تمامًا إذا ما تبيّنت من وفاتهما!

بقيتُ واقفًا في مكاني أتساءل في أعماقي كيف أنّ الطفلتين ماتتا ولورين كانت قد اطمأنت عليهما قبل لحظات من مجيء السيّدة أماندا، ثمّ ليس ثمة مرض تعانيان منه لتموتا بسببه! ماذا؟ أتراهُما قد سقطتا على رأسيهما وفارقتا الحياة على إثر ذلك؟ أم أنّ.. أنّ دوليريس فعلتها، أيعقل ذلك؟

أردت أن أسأل إيميليا عمّا إن كانت قد رأت في حُجرة الطفلتين قبل مجيئها ما يُشير إلى حدوث جريمة قتل، ولكنّني تراجعت عندما نظرتُ إليها ووجدتها ما زالت تنوح وتنشُج من شدّة البُكاء، فقررّتُ أن أذهب بنفسي لأرى ما الخطب...

كنتُ أرقى الدرجات في طريقي لحُجرة الطفلتين التي لم أكُن أعلم بموقعها من الأساس؛ وإنّما كنت أمشي بلا وجهة على أمل أن تقودني الصّدفة إليها عندما تعالت أصوات أقدام من خلفي كادت من قوّتها أن تهشُم السّلم وتُسقِطهُ أرضًا، وما إن توقّفت لوهلة حتّى توقّفت – في ذات الوقت – تلك الخطوات، فعجِبتُ لذلك، والتفتُّ خلفي لأتبيّن صاحب تلك الأقدام القويّة التي هزّت الأرض هزًّا، ويا ليتني ما التفتّ! فقد أرعبني ذلك الوجه السّمين المليء بالتّجاعيد والذي كاد أن يلتصق بوجهي من شدّة قربه منّي، تراجعتُ إلى الوراءِ سريعًا، **وقلتُ بحنقٍ شديد:**

- ما هذا يا سيّدة آرنستينا، لقد أرعبتني!

قالت بنبرة متألمة عندما فرّت من عينيها **دمعة هاربة وسقطت على** الأرض:

- المعذرة يا بُنيّ، فقد كنتُ في عجلةٍ من أمري، فأنا ذاهبة حتّى أُبلِغَ سيّدي بأنّني قد أجريت مكالمة مع مركز شرطة الولاية وأخبروني بأنّهُم سوف يرسلون إلينا الكولونيل ريتشارد مع بعض رجال الشّرطة بعد عدّة دقائق...

قلتُ وقد خيّمت علامات الذعر على وجهي:

- أتعنين أنّ الطفلتين قد فارقتا الحياة حقًّا؟ ولكن..لكن ما السبّب في ذلك يا سيّدة آرنستينا؟

قالت بتمهُّل وهي تنشق أنفها:

- نعم يا ابني العزيز هذا ما أعنيه تمامًا، في الواقع أنّني لستُ أعلم سبب الوفاة، ولكن السيّد چايدن يقول بأنّها جريمة قتل لذلك طلب منّي الاتصال بمركز الشُّرطة، وا أسفاه على الطفلتين البريئتين!

دلفتُ إلى الحُجرة بعد أن أرشدتني إليها السيّدة آرنستينا، فوجدتُ چايدن جاثيًا بالقُرب من طفلتيه يتأمّل بحزن وحسرة تلك الملامح الطفولية، كان يُقاوم الدّموع التي غطّت عينيه **عندما قلت له بنبرة مواسية:**

- لا تكُن قاسيًا على نفسِك يا صاحبي، واجعل تلك الدّموع تتحرّر من عينيك، أجل تخلّص من تلك المشاعر التي تعبث الآن في أعماقك، أعلمُ تمامًا بأنّك لا تريد أن تظهرَ بمظهر الضّعيف العاجز، ولكن ليس ثمة أحدٌ هنا غيري، لطالما أظهرنا ضعفينا أمام بعضينا في أوقاتٍ مضت، أنسيتَ لحظات ضعفي عند وفاة مخطوبتي! أتذكُر كيف كنت قد ساعدتني ساعتها، لقد حوّلت ضعفي ذاك إلى قوّة وليس أيّما قوّة، بل قوّة هائلة تمكّنتُ من خلالها من متابعة الحياة التي كنتُ أظن بأنّها قد توقّفت وبأنّه لم يعُد بمقدوري إكمالُها، وها قد جاء اليوم الذي يتوجّب عليّ فيه أن أقِف معك وأساندك في هذه المأسأة بحيث أردّ لك ذاك الجميل يا حبيب قلب صاحبك!

دنوتُ منه وضممتهُ إلى صدري، **ثمّ أضفت بصوتٍ مُرتجف:**

- عليك أن تعلم بأنّني عُكّازك القوّي الذي بوسعك الإتكاء عليه عندما تعصِفُ بك الآلام وتشتدُّ بك المحن، فكن على ثقة بأنّهُ لن ينكسر أو حتى يميل بك ولو قليلًا!

وما إن قلت جملتي الأخيرة حتّى انفجر صاحبي باكيًا بُكاءً مؤلمًا يقطعُ نياط القلب من قوّته!

في هذه الأثناء قُرِعَ باب الحُجرة ودلف الكولونيل ريتشارد الذي كان قصير القامة، ضئيل الجسم ذا شعر أشقر اللون وعينين خضراوين

لا تنقصهُما الحدّة والذّكاء بتاتًا، بدا واضحًا أنّهُ شديد الاهتمام على الرّغم من ظهور مسحة هلع وقلق على مُحياه، وما هي إلاّ ثواني حتّى دخل خلفه اثنان من رجال الشّرطة أتيا لتخطيط مكان الحادثة!

مرّر نظره بيننا، **ثمّ قال بصوتٍ أجش**:

- طاب مساؤكم يا سادة، لقد فهِمتُ من البلاغ الذي قدّمتموه لنا بأنّ الطفلتين قد ماتتا مقتولتين، أليس كذلك؟

لم يستطع چايدن أن ينطق بكلمة إذ كان يعتصِر ألمًا وحزنًا على طفلتيه، **فأجبتُ عِوضًا عنه**:

- نعم يا سيّدي! هذا ما يبدو لنا، فقد كانتا الفتاتين بصحّةٍ جيّدة كما أنّهما لم تتعرضا لأيّة سقوط أو ضربات أفقدتهما الحياة، أضف إلى ذلك أنّ والدتهما تعرّضت لتهديد من إحدى الخادمات صباح اليوم!..

***

ما بين الثانية عشرة والرُّبع والثانية عشرة والنّصف!

أخذ يتفحّصني بنظراتٍ مليئةٍ بالشّك، **ثُم قال متسائلًا:**

- ليس لك صلة قرابة بالطفلتين أليس كذلك؟ فإن كان الأمر كذلك؛ فلِمَ تحشر أنفك في القضيّة يا هذا؟

شعرتُ بحرارة حارقة في جسدي من أسلوبه المُستفز، ومع ذلك ما كنتُ لأجرؤ على ملاسنتهِ فهو في نهاية المطاف رجلُ سلطة، **فقلت بنبرة هادئة محاولًا تمالك غضبي:**

- بلى يا سيّدي، ولكنّهما طفلتا صديقي وهو لا يستطيع التّحدث، إذ أنّ نبأ وفاة طفلتيه ليس بالأمر الهيّن كما تعلم؛ لذلك نبتُ عنه بالإجابة، هل ثمة خطأ فيما فعلت؟

تجاهلني تمامًا وقرُب من الطفلتين اللتّين كانتا مُستلقيتان على الأرضية الخشبية وراح يتفحّصهما بإمعان، **ثمّ قال باقتضاب:**

- هل لمس أحدكما الجُثّتين أو دنا منهما؟ كما وأرجو أن تحدّدا لي الوقت الذي اُكتشِف فيه وفاة الطفلتين!

قلت بذات النّبرة الهادئة عندما قمت وساعدت چايدن على القيام معي:

- لا يا سيّدي لم يلمس أحدنا أيّة شيء، أمّا بالنسبة لوقت اكتشاف الحادثة؛ فقد كان ذلك عندما أتت إيميليا لإبلاغنا بما شاهدته حيث كانت تشير السّاعة آنذاك إلى الثانية عشرة وخمسٌ وثلاثون دقيقة!

صمت بُرهةً، **ثمّ قال**:

- حسنًا، إنّ المُحقّق جاك يتولّى الآن عملية التّحقيق مع تلك الخادمة وغيرها ممّن يقطن في هذا القصر، لابدّ أن يتوصّل إلى شيءٍ ما!

انكبّ على يديه ورُكبتيه وصار يجولُ بنظره بالقرب من الجُثّتين؛ باحثًا عن أيّة دليل يشير إلى أنّ ما حدث كان جريمة قتل مفتعلة وما هي إلاّ دقائق حتّى **هتف بنبرة المُنتصر وهو يحمل بين يديه ورقة صغيرة**:

- آه عظيم! ها قد وجدتُ الدليل، لا شكّ بأنّها رسالة من القاتل!

فتح الورقة وراح يحدّق فيها للحظات ثمّ نقل بصره إلينا، **وهو يقول مدهوشًا**:

- إنّها رسالة من الفتاتين! فهذا الخط المُتقطّع السيء يدل على أنّهُما من كتبتاها وليس أيّة شخصٍ آخر! ولكن يجب أن نتأكد من ذلك، على كل حال، فقد يستطيع أيّ شخص تقليد خط الطفلتين ونحنُ لسنا بحمقى لكي نغفل عن أمرٍ كهذا؛ لذلك سوف نتخّذ الإجراء اللازم بما يتعلّق بهذا الشأن!

حسنًا دعوني أقرأها لكُما:

إلى والدنا الحنون ووالدتنا الجميلة...

سوف نرحل الآن إلى **بلاد العجائب**، *لقد أفسدت الخادمة دوليريس كر.. كرة ... ناروتو الصّغيرة.. الصّغيرة الجميلة صباح هذا اليوم عندما أدخلت دبوّس الشعر فيها إنّها شر.. شريرة جدًّا، حزِنَ ناروتو كثيرًا، فقررنا أن نذهب لجلب كر.. كرةٌ أخرى له من هنا.. هناك!*

لا يجب أن تقلقا سنعود إليكُما حال انتهاء.. انتهائنا من العثور على كر جميلة له!

خالصة، بل خالص تحياتنا لكُما، نُحبّكما!

وما إن أنهى قراءتها حتّى اختلس النّظر إليّ، **وقال مستفهمًا:**

- هل حدث شيء من هذا القبيل صباح اليّوم أم أنّهُ مجرّد ضَرب من ضروبِ الخيال!

تقدّمتُ نحو السّرير وساعدتُ چايدن - الذي كان منهارًا تمامًا - من الجلوس عليه، **ثمّ أجبت بجدّية:**

- الحقيقة يا سيّدي أنّني لا أعلم بالضّبط إذا ما أفسدت تلك الخادمة كرتيهما بالفعل أم لا، فأنا لا أستطيع إلقاء الاتهامات على الآخرين جُزافًا؛ ولكن كل ما أعلمه هو أنّ والدة الطفلتان قد أمرتها بالخروج إلى الحديقة وإحضار الطفلتين معها إذ لم يتبقَ آنذاك على درس الموسيقى سوى دقائق معدودات!

كما أنّها قد أطلقت العنان للخادمة بقولها أنّهُ لا بأس عليها بأن تبكيهما هذا اليوم، المُهم أن تتمكّن من إحضارهما معها، وما إن عادتا الطفلتين حتّى فوجئنا نحن الاثنين – أعني أنا ووالدتهما من بُكائهما – الغريب والمؤلم!

حينها سألت لورين الخادمة عمّا فعلتهُ مع الطفلتين حتّى جعلتهما تبكيان بهذا الشكل الغريب، ولكنّها لم تقدّم إجابة واضحة على ذلك، بل اكتفت برفع صوتها على سيدتها ووصفها بأنّه أمّ غير صالحة...

فما كان من لورين إلّا أن صفعتها لوقاحتها، ثمّ طلبت منها أن تحزِم حقائبها وتغادر القصر خلال عشر دقائق، ولكن تلك الخادمة ما كانت لتصمُت عن ذلك، وإنّما قرُبت منها ووشوشت مهدّدة بعبارةٍ ما أرجو أن تُسعِفني الذاكرة لأتذكّرها .. يا إلهي ساعدني على ذلك...

صمتُّ لدقائق محاولًا تذّكرها، **ثمّ قلت بتردّد:**

- أحسب أنّها كانت **"لن أغفِر لكِ إهانتُكِ هذه وسأجعل النّارَ تشتعِل في قلبُكِ، تذكّري هذا"!**

كان الكولونيل ريتشارد يصغي إليّ باهتمام، ويضع ذقنه الطويل بين إصبعيه السّبابة والإبهام وكأنّهُ يحاول التوصّل إلى حقيقةٍ ما، **ثمّ قال:**

- ولكن هل غادَرَت القصر خلال المُدّة المحدّدة؟ أعني العشر دقائق التي حدّدتها لها السيّدة والدة الطفلتين؟

هززتُ رأسي نافيًا، **ثمّ قلت:**

- في.. في الواقع أنّني لم أعد أعرف عنها شيء بعد ذلك، فبعد المُشاجرة مباشرة ذهبتُ مع لورين لتناول وجبة الإفطار، لكن بوسعك أن تسأل زميلاتها الخادمات، فمن المؤكد أنّهُن على علم بالوقت الذي فارقت فيه القصر!

راح يذرع الحُجرة جيئةً وذهابًا وهو يركّز بصره في تلك الرّسالة، **ثمّ قال بنبرةٍ واثقة:**

- بمقدورنا تجزئة هذه الرّسالة إلى جزئين فهي كما سمعتما خليط ما بين واقع وخيال، فالجزء الواقعي قد ظهر واضحًا جدًّا في تلك الكلمات "**أفسدت دوليريس كُرة ناروتو عندما غرست الدّبوس فيها**" إنّ هاتين العبارتان تُبديانِ توافقًا مع ما قلتهُ لي قبل قليل بشأن بكاء الطفلتين!

وإذا ما تحدّثنا عن ذلك الخيال فسنجد أنّهُ قد تمثّل في عدّة كلمات من الرسالة ألا وهي "**سوف نرحلُ إلى بلاد العجائب - حزِنَ ناروتو - سنجلب لهُ كُرةً أُخرى**"

كل هذه العبارات تدُل على أنّ للطفلتين خيالٌ واسعٌ جدًّا، وهذا الخيال قد يكون أداة بريئة أدّت إلى قتل الفتاتين لنفسيهما رغبةً في الحصول على كرة جديدة تُقدّمانها إلى ناروتو الحزين وربّما كانت أداة خبيثة في يد شخص لا نعرفه تمكّن بفضلها من الإجهاز عليهما!...

بحلق في الأرضية وقطّب جبينه، **ثمّ استدرك:**

- ولكن ما يؤرقُني الآن هو أنّنا لا نعلم السّر الكامن وراء موت الطفلتين، فنحن لم نبصر أيّة آثار للخنق على رقبتيهما، ولا حتّى دماء وهذا محيّر! بل محيّرٌ جدًّا! ولكن نتائج تشريح الجُثتين سوف تُظهِر لنا دون أدنى شك ما إذا كانتا الفتاتان قد ماتتا بفعل السّم أم كانت الوفاة طبيعية مع أنّني لا أظنّ ذلك إطلاقًا، فلو كانت طبيعية لما وُجِدَت هذه الرّسالة، الحق أنّني ...

خطرت في ذهني تساؤلات على قدر كبير من الأهمية فلم أستطع قبعها، **لذلك قاطعته قائلًا:**

- يا سيّدي! ماذا لو افترضنا أنّهُ تبيّن من خلال التّشريح الجنائي أنّ الطفلتين قد توفيتا بفعل السّم حقًّا، هل سيعني ذلك أنّهُما تعمّدتا قتل نفسيهما بما أنّ تلك الرّسالة كُتبِت بخط يديهما؟ ثمّ لو أنّهما فعلتا ذلك حقًّا فمن أين جاءتا بذاك السّم القاتل؟

حدّق بي بشراسة متجاهلًا سؤالي، **ثم تابع حديثه بصوت حازم:**

- إنّني محتارٌ جدًّا! فتارة أجزِم بأنّ الطّفلتين هما من ارتكبتا هذه الجريمة في حقّ نفسيهما؛ تأسّيًا بأفلام الكرتون، بمعنى أنّهُما حسبتا أنّهُ بمقدور الشخص الذي يُفارق الحياة أن يرجِعَ إليها مرّة أخرى، وذلك بعد أن يُحلّق في عالم سحري مليء بالعجائب والمُفاجآت، بما في ذلك كُرة ناروتو تلك التي أرادتا جلبها من هناك، كما ويجب أن نركّز انتباهنا على ما كتبَتاه في بداية السطر

الأول من الرّسالة «**بلاد العجائب**»، فهذا وحده دليل قاطع على أنّ فكرة الحياة والموت لم تتشكّل لدى الطفلتين بالشّكل الصحيح!

وتارة أخرى تساورني الشكوك بأنّ هناك قاتلٌ وضيع، استغلّ خيال الطّفلتين في القضاء عليهما، كما وأعتقد أنّ تعلّق الطفلتان بالكُرة قد سهَّل عليه مهمّة القتل، ولكنّني سرعان ما أتراجع عن هذه الفكرة إذ ليس ثمة ما يُثبِت تورّط أحدهم في الحادثة، ولا سيما أنّ تلك الرّسالة قد كُتِبت بخط الطفلتين ظاهريًّا، لا أعلم ما ستؤول إليه نتيجة مطابقة الخطوط، ولكن إن كانت هذه الرّسالة مزوّرة حقًّا والخط الذي خُطّت به مُقلّد أيضًا؛ فمن المؤكد أنّني سأعتنق فكرتي هذه وسوف أتوصل إلى الحقيقة من خلالها...

نظر إلى ساعته، **واختتم حديثه قائلًا:**

- هذا كلّهُ مجرّد تحليلات مبدئية ليس إلّا، وسوف يتّضح كل شيء بعد استكمال التحقيقات وعمل التشريح الجنائي بالإضافة إلى التأكد من تطابق الخط الموجود في هذه الرّسالة مع نموذج مُحتفظ به من خط الطفلتين والذي أرغب في أن تقدّماه لي حالًا!

تطلّعت إلى چايدن الذي أشار بعينيه إلى ثلاثةِ أدراج بجانب مكتبة الطفلتين، فأدركتُ على الفور بأنّها تحوي بعضًا من كتبهما التي يوجد بها نماذج سابقة لخطّيهما، لذا توجّهت ناحيتها وجذبت منها دفترَ مذكّرات مكتظ بالعديد من الكتابات التي كانتا قد كتبتاها فيما مضى،

وقدّمتها للكولونيل الذي تناولها منّي بحماسة، ووضعها على الفور في ملفّه الأسود الصّغير!

انكبّ الكولونيل على الأرضية مجدّدًا باحثًا عن خيطٍ يقوده إلى اكتشاف الحقيقة، وفي هذه الأثناء كان الصّمت قد هيمن على المكان، حتّى اخترقه صوت الباب الذي كان طارِقهُ الطبيب هينري، ذاك الذي بدا واضحًا من مظهره أنّهُ في العقد السّادس من عمره، كان طويل القامة، هزيل الجسم، أشيب الشعر، تحتل التّجاعيد حيّزًا كبيرًا من وجهه المكسو بالإرهاق، ومع ذلك أحسست بأنّهُ رجل وقور وحاذق في مهنته!

هتف الكولونيل ريتشارد بصوتٍ حاد ومُزعج:

- أهذا أنت يا طبيبنا، ما الخطب يا رجل لقد تأخرت كثيرًا حتّى كِدتُ أفقِد عقلي من قوّة فضولي لمعرفة الوقت التقريبي لوفاة الطفلتين!

قال الطبيب وهو يسير نحوه بخطوات هادئة:

- المعذرة! لقد كان الطّريق مُزدحمًا في الخارج، فقد نشب حريق في إحدى المنازل التي تطلُّ على الشارع العام تعطّلت على إثره حركة السيّارات، ممّا دفعني إلى إعطاء السائق أجرته وإكمال الطريق سيرًا على الأقدام!

اقترب من الجثّتين وانحنى عليهما، وما إن فحصهما حتّى رفع

رأسه، **وقال بأسى:**

- أظن أنّ الوفاة قد حدثت ما بين الثانية عشرة والرّبع وحتّى الثانية عشرة والنّصف يا سيّدي الكولونيل، إنّها عملية قذرة أليس كذلك؟

قال الكولونيل ريتشارد بحنق:

- بلى إنّها كذلك**!** يُقال أيّها الطبيب بأنّ الخادمة قد جاءت لإخبار والدا الطفلتين عن وفاتهما عندما كانت السّاعة تشير إلى الثانية عشرة وخمسٌ وثلاثون دقيقة ممّا يعني أنّهُ لم يمضِ وقت طويل على اكتشاف الجثّتين**!**

وما إن قال جملته الأخيرة حتّى عاد لمتابعة عملية بحثه فراح يحبو في أرجاء الحُجرة راجيًا أن يجد ما يقودهُ إلى حقيقةٍ ما، أمّا الطبيب هينري فقد أخذ يتفحّص الجثّتين عن كثب آملًا أن يعثر على ما يوصِله لمعرفة السبب الكامن خلف وفاة الطفلتين ...

***

السيّدة أماندا أم الخادمة دوليريس؟

وعلى حين غفلة، فُتِح باب الحُجرة بعُنفٍ إلى الحدّ الذي ارتطم معهُ بالجدار مُحدثًا صخبًا فظيعًا تُصم منهُ الآذان، وما إن نقلت عينيّ باتجاه الباب لأتبيّن صاحب هذا الصّخب؛ حتّى رأيت رجُلًا سمينًا قصير القامة يُعلّق نظّارتهُ على رقبته بواسطة سلسلة حديدية ويضع قبّعة غريبة الشّكل على رأسِ المدوّر، بدا واضحًا من عينيه أنّهُ أبله وغبي وأحمق لا يصلح لعمل شيء، ولكن ما شدَّ انتباهي هو دفتر المُلاحظات الصّغير الذي كان يحمله بين يديه، ففهمت حتمًا أنّهُ المُحقق جاك الذي تحدّث عنه الكولونيل قبل لحظاتٍ من الآن!

قفز الكولونيل ريتشارد الذي كان منهمكًا في عمله، **وصرخ بنبرةٍ جمعت ما بين الذّعر والغضب:**

- ما هذا؟ أتظن بأنّك في منزلك أيّها الأهوج؟ ثمّ إنّ الأبواب لا تُفتح بهذه الطريقة الهمجيّة!

عبر المُحقق جاك الحُجرة حتّى انتصب في منتصفها، **ثمّ قال بصوتٍ خشنٍ غليظ لا يتوافق مع مظهره إطلاقًا:**

- المعذرة يا سيّدي الكولونيل! ولكنّني أُفكّر في أمرٍ جلل

يجعلني أتميزُ غضبًا؛ لذلك ما شعرتُ بنفسي عندما فتحتُ الباب بهذه الطّريقة المُخزية!

نظر الكولونيل إليه بفضول، **ثمّ سأله بلهفةٍ قائلًا:**

- وهل لهذا الأمر علاقة بقضيتنا؟

تنحنح المُحققّ وهزّ رأسه بالإيجاب **عندما قال بنبرةٍ جادّة:**

- بالتأكيد يا سيّدي! فلا أعتقد أنّ هناك أمرًا آخر يشغل ذهن المُحقق في مكان عملهِ سوى القضيّة التي جاء من أجلها، نعم القضيّة فحسب!

ابتلع ريقه، **ثمّ مضى يقول:**

- لقد أجريتُ التّحقيقات اللازمة مع جميع قاطني هذا القصر بما في ذلك حارس البوابة فوستر - باستثناء والدا الطفلتين وكذا صديقهما الشّاب السيّد مايكل - بحيث سيتم استجوابهم بعد دقائق، فمن يدري! فربّما كان هذا الشّاب هو من قتل الطفلتين بدافع الغيرة نعم، فقد تكون غيرتهُ من صاحبه الذي يحظى بقصرٍ فاره وعائلة دافئة قد أعمت عينيه ودفعته لقتل الفتاتين البريئتين من أجل تفريق شمل العائلة!

إنّ تفسيرَه للقضيّة بهذا الشّكل؛ لدليل كافٍ على أنّ نظرتي لهُ منذ أن رأيته لم تخِب أبدًا، نعم إنّه أبله، أحمق لا يصلح للتحقيق في جرائم

القتل نهائيًا، لم أردّ عليه، فلا خير في الجدال معه إطلاقًا، وبما أنّني واثقٌ من نفسي؛ فلا حاجة بي إلى التبرير، فالتبرير للمُجرم فقط!

نظر إليّ بتعجّب عندما رأى بأنّني لم أُبدِ ردّة فعل تجاه اتهّامه لي، **فأكمل كلامه عندما نقل نظره لچايدن:**

- ولربّما كان القاتل أيضًا أحد والديهما! فنحنُ لا نعلم ما تُخفيه البيوت من مشاكل ومتاعب، فقد تكون هنالك نزاعات بين الزّوجين دفعت أحدهما إلى قتل الفتاتين ليتخلّص من الرّابطة التي تربِطهُ بالآخر، ألستُ مُحقًّا في ذلك ياسيّد چايدن؟ علينا أن نأخذ جميع الاحتمالات في الحُسبان!

لم يجد أيضًا أيّة ردّة فعل من صديقي چايدن، حينها فتح دفتر ملاحظاته وراح يسجّل بعض المُلاحظات بداخله!

قال الكولونيل ريتشارد بعد أن سعل بهدوء:

- إنّك على حقٍ يا جاك، فيجب ألاّ نستبعد أيّ احتمال في مثل هذه القضايا، ولكن زوِّدني يا عزيزي بنتائج التّحقيق وحبّذا لو لخّصت لنا الحقائق بقدر الإمكان، فلدينا الكثير ممّا يتوجّب علينا القيام به في مركز الشّرطة!

مسح المُحقق جاك نظّارته بطرف كُمّهِ ثمّ رفعها إلى عينيه، **وجعل يقرأ ما سُجِّل في الدّفتر:**

- حسنًا سنبدأُ بحارس البوابة السيّد فوستر الذي أقسم لنا بأنّهُ ما

من أحدٍ غريب عبر البوابة خلال تلك الفترة سوى السيّدة أماندا والتي قد جاءت عِوضًا عن زوجها الذي رتّب موعد مُسبق مع السّيد چايدن ولكنّه لم يستطع المجيء؛ نظرًا لظروفه الصّحية!

وعندما سألتهُ عمّن خرج من أهل القصر أجابني قائلًا: "**الخادمة دوليريس، نعم لقد عبرت البوابة وهي تجرُّ أمتعتها خلفها جرًّا في تمام السّاعة الثانية عشرة والرّبع؛ ولكنّها سرعان ما عادت في الثانية عشرة وعشرين دقيقة قائلة بأنّها قد نسيت محفظة نقودها في حُجرتها وقد استغرقت لإحضارها خمس دقائق رحلت بعدها دون عودة**"

قال الكولونيل وهو يُخرِج قلمه من جيبه ويفتح دفتر ملاحظاته:

- هذا عظيمٌ جدًّا! فلنُسجّل أوّل اسم كان صاحبه يدور حول مسرح الجريمة التي وقعت ما بين الثانية عشرة والرّبع وحتّى الثانية عشرة والنّصف، إنّها خادمة سيئة الحظِّ حقًّا فكُل الشُّبهات تحوم حولها الآن، ولا سيما أنّ لديها ما يُدينها، نعم ذاك التّهديد الذي وجّهتهُ لسيّدة القصر كفيل بأن يُحتسب ضدّها في حال لم يتوافق خطّ الرسالة مع نموذج خطّ الطفلتين الذي حصلنا عليه!

نظرَ إلى جاك عندما انفرجت شفتيه عن ابتسامة عريضة أظهرت تلهّفه الشّديد لمعرفة المزيد من نتائج التحقيق، **فقال بحماس**:

- أكمِل يا عزيزي جاك أكمِل!

ضحِك المُحقق جاك، **وقال بنبرةٍ ساخرة:**

- لم تكذِب عندما شبّهت نفسك فيما مضى بكلاب التحري الحاذقة، فما إن تشتمّ رائحة حقيقة مثيرة حتّى تتعقّب أثرها ثمّ تنقضُّ عليها، حسنًا ما الذي كنت سأقوله؟ نعم، نعم تذكّرت.. دعنا نأتي على ذكر الخادمات اللّواتي كُنّا يتواجدن هنا هذا الصّباح بما فيهن رئيسة الخدم السيّدة آرنستينا، التي أكّدت لنا بأنّها كانت تُعِد طعام الغداء مع زميلاتها الثلاث: كوكي، كاترين، صوفيا، في الوقت الذي اُرتكِبت فيه الجريمة أي ما بين السّاعة الثانية عشرة، والثانية عشرة والنّصف وعندما سألتُها عن الوقت الذي رحلت فيه الخادمة دوليريس أجابتني بذات الإجابة التي حظيتُ بها من ذلك الحارس!

أمّا بالنسبة للخادمة إيميليا، فقد أوضحت لنا بأنّها كانت قد بدأت في تمام السّاعة الثانية عشرة وخمسُ دقائق بعمل جولة تنظيف في أرجاء القصر، كان ذلك عندما جاءت إليها والدة الطفلتين وطلبت منها أن تذهب للمطبخ وتُحضِر من هناك بعض قطع الشوكولا والبطاطا وتصعد بها إلى الطفلتين في حُجرتهما كمكافأة لهما نظير إتمامهما لدرس الموسيقى!

وبالفعل راحت إلى المطبخ وأحضرت منه ما طلبته سيّدتها، ولكنّها سرعان ما عدلت عن تقديمه لكلارا وكلير عندما علِمت بأنّ هناك ضيفة تُدعى أماندا ترغب برؤية السيّدة وطفلتيها، فتوجّهت على الفور إلى لورين لتُخبرها بذلك فما كان أمام هذه الأخيرة إلّا أن استقبلت

أماندا بحرارة وقادتها إلى حُجرة الفتاتين بناء على طلب ضيفتها، ولكنّها أخطأت عندما ...

صمت وهو يطرقُ في الأرض وكأنّه قلِق من شيءٍ ما!

صاح الكولونيل بحدّة قائلًا:

- ما الأمر؟ ما لي أراك قد أحجمت عن الحديث؟ عندما ماذا؟ هيّا قُل ما لديك فلا وقت لدينا يا جاك!

مرّر المُحقق جاك لسانه على شفتيه، **ثُمّ قال:**

- على رسلِك يا رجُل! أفلا يُمكنني أن أستعيد أنفاسي ولو قليلًا، إنّ الكلام المتواصل يُتعِبني كثيرًا وأنت أكثر الأشخاص علمًا بذلك!

وضع يده على صدره وسحب نَفَسًا عميقًا، **ثمّ تابع قائلًا:**

- عندما .. عندما تركت أماندا عند الطّفلتين بمفردها وخرجت لتوبّخ إيميليا التي لم تأتِ بما طلبته منها!

قام چايدن من مقعده والشّرر يتطاير من عينيه **وهو يُتمتِم بغضب:**

- تلك الحقيرة! إنّها مؤامرة! نعم مؤامرة، حاكتها تلك الصعلوكة مع زوجها ضدّي، لابّد أنّهُما قد توقّعا رفضي لذاك الطّلب، آهٍ يا إلهي! يا ليتني بعثتُ إليه برسالة أُخبِره فيها بموافقتي على ما يُريد، يا لجشعي وطمعي! ها قد فقدُت طفلتيّ بسببِ سباقٍ سخيف!

قال جُملته الأخيرة عندما جثا على ركبتيه، وراح يضرب الأرض بكفيه، **وهو يعتذر بمرارة:**

- سامحاني يا حبيبتا والدكُما، سامحاني!

كانت علامات الدّهشة قد برزت على ملامح الجميع **عندما سأل الكولونيل ريتشارد وهو ينظر إليّ:**

- ما الذي يعنيه صاحبك بكلمة مؤامرة؟ أثمة شيءٌ نجهلهُ؟

الحقّ أنّني تردّدتُ كثيرًا، ولم أعرِف ما أقول، فقد خشيت أن يكون چايدن مُتورّط بأمرٍ ما مع ذلك اللّص حينها لن يسلم البتّة من أيديهم!

صرخ الكولونيل بفظاظة:

- ما بِكَ أيُّها الشّاب؟ ألا تسمعُني إنّني أسألُك وآمُرك بالإجابة حالًا!

وما إن فتحت فمي لكي أُجيب حتّى **قال چايدن بصوتٍ ضعيف:**

- دعكَ منهُ أيُّها الكولونيل واطرح أسئلتك عليّ فهو لا شأن لهُ إطلاقًا بهذا الأمر!

أشار بسبابته إلى صديقي، **وقال بنبرة آمرة:**

- عليكَ أن تنهض الآن يا سيّد وتعتدل في جلوسك، فليسَ هذا وقت التحسّر والنّدم، فإن كنت تُريد الاقتصاص لطفلتيك حقًّا؛ فإن عليك تزويدنا بكل ما قد يفيدنا للإطاحةِ بمرتكب الجريمة!

قام صاحبي وجلس على طرف السّرير وأطرق في الأرض، **ومضى يقول بنبرة مُثقلة بالأسى:**

- نعم يا حضرة الكولونيل سوف أُفصِح لك عن جميع الأمور!

دعني أخبِرك أولًا من تكون السيّدة أماندا، إنّ أماندا هي زوجة السيّد إدوارد جاكس والذي كان زميلٌ لي في جامعة نيويورك عندما كنتُ أعمل أكاديميًا هناك، الحقيقة أنّني لم أعُد أراه أو حتّى أعرِف عنه أيّة شيء بعد أن قدّمتُ استقالتي من تلك الوظيفة، فكما قلت لك لم تربطني بذاك الرّجل سوى علاقة زمالة، أضف إلى ذلك بأنّهُ لم تكن بيننا معرفة عميقة لنبقى على اتصال!

وبعد سنة من ذلك تقريبًا، شاء الرّب والتقينا مجددًا في إحدى سباقات السيّارات المُقامة في واشنطن حينها سُعِدت كثيرًا بوجود شخص يشاركُني نفس الاهتمام؛ لذا لم أتردّد في تبادل الحديث والنقاش معه حول أنواع السيّارات المُشاركة في السّباق، وكيف يمكن للمرء أن يُصبِح مُحترفًا ليتمكّن من إحراز البطولات في مثل هذه السّباقات، وغيرها من الأمور التي تدور حول هذا الاهتمام المُشترك فيما بيننا، وشيئًا فشيئًا حتّى أصبحنا نلتقي بكثرة ونتبادل الرّسائل فيما بيننا، كنت آنذاك قد حصلتُ على المراكز الأولى في جميع المُنافسات التي خضتها ضدّه، وكان هو سعيد جدًّا بفوزي على الرّغم من خساراته المُتكررّة، تعجّبتُ حينها فكيف لشخص أن يُظهِر فرحًا هائلًا وهو مهزوم في عدّة منافسات!

وفي ذات يوم، وبينما كنتُ أتدرّب في مضمار السّباق؛ سمِعتُ أحد المُتدربين يقول لصاحبه الذي كان يقف أمامه: "**اِحذَر من متسابق يُدعى إدوارد جاكس إنّهُ شخص خطير فقد طلب من أخي أن يخسر السّباق ليفوز هوَ وعندما رفض تلبية ما طلبه منه هدّدهُ بالقتل فلم يأبه أخي لتهديداتهِ ظنًّا منه بأنّ مُغفل مثل إدوارد لا يستطيع فعل شيء على الإطلاق، ولكن ظنّه ما كان في محلّه، فقد أفسد ذلك الخبيث عجلات سيارته التي انحرفت عن مضمار السّباق وكادت أن تُنهي حياته لولا العناية الرّبانية التي أحاطت به حينها**"

لم أُصدّق البتّة ما قاله ذلك المُتدرّب عن إدوارد، فمشاعرهُ الطيّبة تجاهي وفرحهُ بي خلال النزالات الماضية خيرُ دليل على أنّهُ ليس بهذه الصّورة القبيحة التي يصفِه بها هذا الشّاب، فخمّنتُ ساعتها أنّهُم يتكلمون عن رجُلٍ آخر مُخادع لهُ نفس اسم ذلك الزّميل الودود، أجل لقد كانت علاقتي بإدوارد على أحسن ما يُرام إلى أن أتى ذلك السّباق المشؤوم الذي أظهر لي حقيقته - أعني حقيقة قلبه الأسود المليء بالحسد والحقد - فقد قدِمَ إليّ مُكفهِرًا عابسًا على غير عادته وطلب منّي ذات الطّلب الذي طلبهُ من أخ ذاك المُتدرب، نعم لقد أراد منّي أن أخسر في السّباق ليفوز هوَ ويحظى بالجائزة المالية الكبيرة، وقتها رفضتُ بشدّة ما أرادهُ منّي، فهدّدني بأن يُحرِق قلبي بقتل مخطوبتي والتي هي زوجتي الآن إن لم أتنازل عن الفوز، حينها فقط استسلمت وانسحبت من السّباق لا لشيء وإنّما خوفًا على لورين من هذا الماكر الخبيث!

ومن بعد ذلك تزوّجت وسافرت إلى لندن ولم أعد أعرِف عنهُ شيئًا، حتّى وصلت منه تلك الرّسالة ليلة أمس، والتي كتب لي فيها بأنّهُ سيأتي إلى قصري عند الثانية عشرة من ظهيرة هذا اليوم؛ ليتحدّث معي عن أمرٍ غايةٍ في الأهمية، ولكنّه تخلّف عن المجيء بحجّة أنّه مصاب بالرّشاح، لذا أرسل زوجتهُ لتنوب عنهُ في التّحدث معي بذلك الشّأن، الحق أنّني كنت قد خمّنت ذلك الموضوع الذي يُريد مناقشته معي، ولكنّني تظاهرتُ أمامه هو وزوجته بعدم فهم ما يُريدانه منّي...

سعل قليلًا وتنحنح، **ثمّ استطرد بصوت يوشِك على الاختفاء:**

- نعم كنت أتوقّع أن يطلب منّي أن أتظاهر بالخسارة في السّباق الذي سيُقام نهاية الأسبوع، وبالفعل هكذا طلبت منّي زوجته

يا حضرة الكولونيل إنّ الطلب لم يُثِر انزعاجي بقدر ما أثاره تهديد تلك الإمّعة لي، فقد بدا أنّها مُتّفقة مع زوجها على ذلك؛ لهذا لم أستطع السيطرة على غضبي وانفعالي فحاولتُ خنقها، ولكن من حُسِن حظّها أنّ لورين ومايكل كانا بالقرب منّا فأبعداني عنها، آه يا ليتني كُنت أعلم بأنّها كانت عند طفلتيّ بمفردها، لكنت قد أجهزتُ عليها!

قال المُحقّق جاك بارتياب:

- لا لا أعتقد بأنّ السيّدة أماندا هي من قتلت الطفلتين، فكيف تقتُلهما وهي لم تسمع جوابًا منك على طلب زوجها فلنفترض أنّها حقًّا دسّت السّم للطفلتين ،وقدِمت للحديث إليك وقبِلتَ

أنت بما قالته، حينها ستكون قد ورّطت نفسها بقضية قتل من دون سبب، وبالتأكيد ستحوم الشّبهات حولها بما أنّها كانت تتواجد مع الطفلتين قبل حدوث الجريمة بدقائق معدودات، فلا أظنّ بأنّها كانت ستُقدِم على خطوة جريئة كهذه!

تجاهل الكولونيل تعليق جاك وراح يتطلّع في صاحبي بعينين شاردتين، **ثمّ قال بحزم**:

- أريدُ تلك الرّسالة من فضلك يا سيّد چايدن!

***

كانت في حُجرة الطّفلتين!

انصرف كُلُّ من الكولونيل ريتشارد والمُحقّق جاك بعد أن أحضر چايدن الرّسالة من المكتبة وقدّمها إليهما، ولكنّ الطبيب هنري واثنان من رجال الشّرطة لم يُغادروا إلّا بعد إنهاء إجراءات نقل الجثّتين إلى سيارة الإسعاف وإغلاق حُجرة الطفلتين بأقفال منيعة بحيث لا يقدِر أيّة شخص مهما كان من الدخول إليها إلى حين انتهاء فترة التحقيق وعمل التّحريات اللازمة التي سوف يتم من خلالها الوصول إلى هويّة القاتل!

كانت السّاعة حينها تُشير إلى الثالثة والرّبع عصرًا، فذهب چايدن للاطمئنان على زوجته، التي أُغشِي عليها عندما رأت طفلتيها جُثّتين هامدتين لا روح فيهما، كان چايدن آنذاك – أقصد وقت وقوع الحادثة – قد حملها إلى حُجرتها وطلب من السيّدة آرنستينا الاعتناء بها حتّى ينتهي هو من التحدّث مع رجال السّلطة، آه إنّ رؤيتي لهُ وهو جاثيًا بالقرب من طفلتيه توحي إليّ بأنّهُ ليس أفضل حالًا منها، فهو حزين مثلها على فقد طفلتيه ولرّبما كان أشدُّ حُزنًا منها، ولكنّه يتظاهر أمام الجميع بالقوّة والثّبات، يا إلهي! ما أصعب أن يتظاهر المرء بالقوّة والصلابة في الوقت الذي يكون فيه هش ضعيف من الدّاخل، يخوض صراعات داخلية أليمة يشعر من شدّتها أنّه ليس على قيد الحياة وإن كان فيها!

أمّا أنا فقد كنتُ جالسًا على أول درجة من درجات السّلم المفضي إلى الطابق السّفلي عندما همست إيميليا التي كانت قد ظهرت آخره، **وهي تقول بصوتها الأنثوي النّاعم**:

- سيّد مايكل، سيّد مايكل، تعال إلى هنا أودُّ أن أتحدّث معك بعض الوقت!

نظرتُ إليها بدهشة، فأشارت إليّ بيدها حتّى آتي بُسرعة فوثبتُ على عجل، ونزلتُ السُّلم بخطواتٍ متسارعة، وعندما وقفتُ بمحاذاتها؛ شدّتني مع يدي وقادتني إلى حُجرة المكتبة، وهي تلتفتُ يمينًا ويسارًا وكأنّها لص يخشى أن يُطيح به أحدهم، فتحت الباب وما إن دلفنا حتّى أغلقتهُ بهدوء، ثمّ استندت عليه وأمسكت بصدرها بعد أن أغمضت عينيها وأخذت تتنفّس نفَسًا عميقًا!

فتحت عينيها الزرقاوين وصارت تُحدّق بي للحظات، **ثمّ قالت بنبرة لطيفة**:

- المعذرة! يبدو أنّني قد أخفتُك بحماقتي هذه، أعني عندما قُدتك بهذه الطريقة إلى هنا، ولكنّني أردتُ أن أُبلِغك خبرًا مهمًا قد يُرشِدكم – بعون الرّب المعين – إلى قاتل الطّفلتين طبعًا هذا إن كنت ترغب بمعرفته!

دنوتُ منها، **وقلت بفضول**:

- بالطّبع أنا أرغب في ذلك! فشأن الطّفلتين يعنيني كثيرًا

باعتبارهما ابنتا صديقي!

فتحَت الباب بهدوء، وصارت تتحقّق من عدم وجود أي شخص يتجسّس علينا خلفه، وما إن اطمأنت حتّى أوصدته برفق، **وقالت بصوتٍ منخفض** لا يكاد يُسمع ممّا جعلني أنقل بصري إلى شفتيها لأتمكن من التقاط الكلمات التي تنبُس بها:

- لم تكُن الخادمة دوليريس قد نسيت محفظة نقودها كما أظهرت للجميع، أجل فقد كانت في حُجرة الطّفلتين عند السّاعة الثانية عشرة و إحدى وعشرون دقيقة، صدّقني لقد رأيتُها عندما كنتُ أحمِل عصير البرتقال لأُقدّمه للطفلتين اللّتين كانتا تتناولان رقائق البطاطا مع الشوكولا في تلك الأثناء، ولكنّني تراجعتُ إلى الخلف عندما بصرتُها، حمدًا للرّب أنها لم ترني فقد كانت تُدير ظهرها وتتحدّث مع الطفلتين بصوتٍ خافتٍ جدًّا، أردتُ البقاء وقتًا أطول لأستمِع إلى ما تقوله ولكنّني خشيتُ أن يراني أحدهم أقف بتلك الطّريقة فيظُنّ بي سوءًا لذلك عدتُ إلى المطبخ بسُرعة، وعندما سألتني آرنستينا عن السبب وراء عودتي بكؤوس العصير الممتلئة دون أن تُشرب لم أتردّد في إخبارها بما رأيت، فهي الوحيدة التي لم أستطع أن أُخفي عنها ذلك الأمر، إنّني أراها مثل والدتي تمامًا، فأجابتني حينها قائلة : **"ربّما نسيت توديعهُما والاعتذار إليهما عمّا بدر منها لذلك عادت مرّة أخرى"**

ولكن حين شاع نبأ وفاة الطفلتين في أرجاء القصر، جاءت إليّ مسرعة وهمست في أُذني قائلة: "**إيميليا إيّاكِ أن تُخبري أحدهم بأنكِ رأيتِ دوليريس ظهيرة اليوم في حُجرة الفتاتين، دعينا نُبقي الأمر سرًّا بيننا حتّى لا ندخل في متاهاتٍ مع رجال الشّرطة، هل كلامي واضح؟"**

وبالفعل نفّذتُ ما أمرَتني به، ولم أتفوّه بأيّ شيء أمام ذاك المُحقق الفظيع عندما قدِم لأخذ إفادتي، ولكنّ الحقيقة يا سيّد مايكل أنّني أشعر بتأنيب الضّمير، فأنا أُحبُّ كلارا وكلير كثيرًا، كما وأتوق للإطاحة بالمُجرم القذر الذي سَوَّلت له نفسهُ الدنيئة ارتكاب جريمة قذرة ضحّيتها طفلتين!

أطرقت وتنهّدت تنهيدة عميقة، **ثم تابعت بنبرة يائسة:**

- أعلمُ جيّدًا أنّك تشُّكَ بأنّني من ارتكب هذه الجريمة، ولا سيما بعد أن أفصحتُ لك بأنّ دماء الانتقام تسري في عروقي، ولكنّك مُخطئ بشكوكك هذه يا سيّد مايكل، صحيحٌ أنّني أريد استعادة حقّ والدي والاقتصاص له من ذلك الخبيث، ولا زلتُ أرغب بذلك حتّى وقتنا هذا، ولكنّني ما كنتُ لأرتكب جريمة شنيعة كهذه، نعم، ما كنتُ لأُنهي حياة طفلتين بريئتين من أجلِ خطيئةٍ اقترفها والدهما، إنّهُ لمِن المؤلم جدًّا أن يقع الأطفال ضحايا لجرائم أحد والديهما أو كليهما، ذلك المُجرم الحقير لستُ أعلم كيف سمحت لهُ نفسهُ بارتكاب تلك الجريمة النّكراء مع طفلتين

صغيرتين لا حول لهُما ولا قوة، تبًّا له! لا شك في أنّهُ يمتلك قلبًا حجريًّا صلبًا لا يعرف الرّحمة إطلاقًا!

قفزت دمعة هاربة من عينيها الزرقاوين واستقرّت على وجنتيها المُشربّتين بحُمرة، ولكنّها سُرعان ما مسحتها بطرفِ كُمّها!

فقلتُ بنبرة هادئة بينما رحتُ أتأمل تلك الملامح الطفولية النّاعمة:

- إيميليا توقّفي عن البكاء أرجوكِ! ألم تقولي لسيّدتُكِ صباح هذا اليوم بأنّ البُكاء يُفسِد الجمال؟ الحق أنّني لم أُصدِّق هذا الهُراء، فما تراهُ عيناي يُثبِت خلاف ذلك؛ فأنتِ والسيّدة لورين جميلتين سواءً أكنتُما باكيتين أم ضاحكتين، ولكن أرجوكِ اعتبري في هذه اللحظة بالذّات أنّ البكاء يُفسِد الجمال حقًّا كما قُلتِ، نعم دعي كلامي جانبًا الآن، الآن فقط ولتُبهِري عينيّ بجمالِ ثغركِ الباسم!

نظرت إلى عينيّ وبخجلٍ طفولي ابتسمت!

استرخيتُ على الكرسي خلف المكتب بعد أن انصرفت إيميليا وصِرتُ أدور به؛ لطالما كانت هذه الحركة تُسعِدُني منذ أن كنت طفلًا بريئًا، حينها لم يكُن رأسي مُثقلًا بالتّفكير، وكذلك قلبي لم يكُن مكتظًّا بهذه المشاعر المُبعثرة التي لم أجد أيّة حلٍ سحري لكبحها سوى طريق، طريق ..!

نفضتُ تلك الأفكار عن ذهني وحاولتُ أن أرتاح قليلًا حتّى تهدأ

أعصابي وتسكُن نفسي، ولكنّني لم أستطع ذلك؛ إذ إنّ كلمات إيميليا تلك قد باتت تتردّدُ في عقلي:

"إنّه لمِن المؤلم جدًّا أن يقع الأطفال ضحايا لجرائم أحد والديهما أو كليهما"!

***

رسالةٌ أخرى إلى چايدن!

وما إن تمكّنت من مقاومة تلك الكلمات وطردها من ذهني، حتّى أغمضت عينيّ في محاولةٍ منّي للحصول على غفوة قصيرة أستعيد بها طاقتي؛ إلاّ أنّهُ في هذه اللحظة تحديدًا، فُتِح باب المكتبة ودخل چايدن وهو مُقطّب الجبين، **وقال بنبرة بائسة وهو يتطلّع إليّ:**

- أهذا أنت! ظننتك في حجرتك! كنتُ سأضع هذه الأوراق في مكانها وأصعدُ إليك، ولكن جيّد أنّني لقيتُك هُنا!

سألتهُ بلهفة عندما نهضت وتقدّمت ناحيته:

- قُل لي كيف هو حال لورين الآن؟ أهي بخير يا چايدن؟

أدخل رأسهُ بالكامل في الدولاب أسفل رفِّ الكتب، وصار يُرتّب بداخله الأوراق التي كان يحملها، وما إن انتهى حتى نفض يديه وأوصد باب الدولاب، **ثمّ قال بنبرة مطمئنة:**

- حمدًا للرّب الرّحيم! إنّها بخير، وإن كانت ما تزال تذرف الدّمع ألمًا على كلارا وكلير، ولكنّني لم أمنعها من ذلك، بل تركتُها تبكي كما تشاء؛ ففي البكاء راحةً وتنفيسًا عمّا تشعُر بهِ في أعماقها، فالمرء الذي لا يبكي عادةً؛ تلحظ أن لديه اعتلال في صحّته النّفسية، لأنّ

تلك المشاعر السيئة تختلج في أعماقه، ولا تجد السبيل لتحرّرها، وبالتّالي تتفاقم وتخرُج إلى السّطح على هيئة ألمٍ نفسيٍّ مُضنٍ، وأعتقد بأنّني خير دليل على ذلك، لطالما كنتُ أعاند رغبتي في البكاء؛ ظنًّا منّي بأنّ في ذلك صلابة وقوّة، ولكنّني اكتشفت ذات يوم وبعد أن تعِبت صحّتي النّفسية بأنّني كنتُ مُخطئ في حقّ نفسي..!

أطرق ثمّ أكمل يقول بعد أن مرّر لسانهُ على شفتيه:

- في الحقيقة أنّني شاركتُ لورين في النحيب قبل لحظات؛ بل وأظهرتُ كامل ضعفي أمامها، هذا ما لم أفعله منذ أن ارتبطت بها؛ ولكنّني قد فعلته اليوم يوم وفاة طفلتينا، أتعرِف يا مايكل ما أحسستُ به عندما فعلتُ ذلك؟ لقد أحسستُ وكأنّ صخرة ثقيلة قد انزاحت عن صدري بعد أن كانت تمكثُ عليه طويلًا، إلى درجة أنّني كنتُ أعتقد بأنّها ليست سوى أيّام قليلة ثمّ ألفِظ بعدها أنفاسي وأُغادِر الحياة مع طفلتيّ، ولكن بعد أن سمحتُ لنفسي بالانهيار والبكاء فإنّني أشعرُ براحةٍ عجيبة، راحة لم أشعر بها قطُّ في حياتي حمدًا للرّب اللطيف!

ابتسمتُ بلطف ثمّ قلت مُداعبًا:

- إنّني لأعجبُ من حزنك هذه المرّة؛ فهو لم يؤول بك إلى تناول العديد من الوجبات، فلطالما كنت تُسرِف في تناول الطّعام عندما

يُحزِنكَ أو يُغضِبكَ أمرٌ ما، بلى لقد كانت هذه عادتُك منذ أن كنتَ طفلًا في السابعة، أم أنّك حاولت التخلّص منها حتّى لا تهزأ بكَ لورين؟!

ضحِك ثمّ قال مُستغربًا:

- من أين جئتَ بهذه الذاكرة القويّة يا رجُل؟ أُقسِم بأنّه لن يفضح جلّ أمري عند زوجتي سِواكَ أيُّها الأحمق، عليك أن..!

طُرِق الباب في هذه الأثناء ودخلت الخادمة آرنستينا بعد أن أذن لها چايدن بالدّخول، فتقدّمت ناحيتنا وفي يدها رسالة، وما إن وقفت بمحاذاة صديقي حتّى مدّت إليه الرسالة **قائلة بتهذيب:**

- لقد وصلتك رسالة يا سيّد چايدن، أرجو ألاّ أكونَ قد تأخرت في تسليمها إليك؛ ولكنّني وجدتها مُصادفة في صندوق البريد عندما ذهبت لكي أتحقّق ما إن كانت ابنتي قد بعثت إليّ برسالة هذا اليوم!

قال چايدن عندما تناول الرّسالة منها، وراح يقلّبها يمينًا ويسارًا:

- لا بأس في ذلك يا آرنستينا، شُكرًا جزيلًا لكِ على اهتمامِكِ، يمُكنكِ الانصراف الآن!

عبرت آرنستينا الحجرة على عجل، وما إن خرجت وهمّت بإغلاق الباب؛ **حتّى هتفْتُ بحدّة وأنا أركض صوبها:**

- لا..لا يا سيّدة لا تُغلقي الباب!

اِنتظِري من فضلكِ فأنا أودُّ الذهاب لرؤية السيّدة لورين...

***

وسنلتقي هُناك.. اتفقنا؟

انصرفتُ مع الخادمة بعد أن استأذنت من چايدن الذي كان يُحدّق في تلك الرّسالة بقلق وتردد!

وبينما كنتُ أسير مع آرنستينا في الممّر المُفضي إلى حُجرة لورين؛ **هتف صوتٌ أنثوي به نغمة طفولية جميلة:**

- سيّدتي أرجوكِ تعالي بسُرعة، فنحنُ في حاجتكِ الآن، لقد احترقت كعكة السيّدة لورين، ماذا نفعل!

التفتت آرنستينا إلى الخلف لتُجيبها، فالتفتُّ معها بشكلٍ آلي، فإذا بي أرى خادمة صغيرة جدًّا، قد اتّضح من مظهرها أنّها لم تتجاوز الثامنة عشرة من عُمرها، لكنّ ملامحها لم تكُن واضحة تمامًا؛ نتيجةً للظلام الذي كان يغطّي الممرّ!

فأجابت آرنستينا بصوتٍ قبيح صاخب يخترِق الأذن ويستقر حتمًا في الدّماغ:

- آآآهٍ يا رأسي! آآآهٍ! آآآه! يا لَكُنّ من خادماتٍ كسولاتٍ مُغفّلاتٍ غبيّاتٍ لا تُحسِنّ عمل أيّ شيءٍ بمفردكنّ إطلاقًا، إنّكُن كالأطفال تمامًا، لاتُجِدنَ تحمّل المسؤولية، بل إنّ الأطفال أفضلُ منكُنّ في

كثير من الأحوال، تبًّا لكُنّ ثُمّ تبًّا لكُنّ! أيُّ حظٍّ هذا الذي قادني للعملِ معكُنّ، أعانني الرّبُ عليكُنّ، ماذا أقولُ للسيّدة الآن، ماذا أقول! أخبِريني أيّتُها الطّفلةُ البلهاء!

كانت تتحدّثُ وتضربُ قدمها في الأرض بعُنف إلى الحد الذي شعرتُ معه بأنّ الأرض لن تبرح حتّى تخسف بنا من قوّة قدمها!

نظرت إليّ بحدّة فخشيتُ أن تشُنّ عليّ حربًا بلسانها السّليط، **لذا قلتُ بارتباك عندما ابتلعتُ ريقي:**

- لا.. لا عليكِ يا سيّدتي، فأنا.. فأنا أستطيعُ مواصلة المسير إلى حُجرة السيّدة، المُهم.. المُهم أنّكِ أرشدتني لهذا.. لهذا.. يا إلهي! ما اسمُ هذا الذي نسيرُ فيه لقد.. لقد نسيتُ اسمهُ تمامًا، سُحقًا كيف أنسى اسم شيءٍ كهذا، أجل، أجل تذكّرت الممرّ، شُكرًا لكِ يا سيّدتي أعتقد أنّ هذا كافٍ!

شعرتُ لوهلة بأنّ كلامي غير مفهوم؛ ولكن لا لوم عليّ، إذ إنّ تلك العجوز المتوحّشة تبُثُّ الرُّعب في القلب بصوتها الأجش وأقدامها الحديدية، أجزِم تمامًا بأنّ ما أحدثتهُ من صخب سواء بصوتها أو قدميها كفيلٌ بجعل المرء يفقد ذاكرتهُ ويتكلّم على نحو غير مفهوم!

كانت تستمع إليّ بنفاد صبر عندما كنت أحاول تذكّر اسم « **ممرّ**» والذي لا أعلم حقًّا كيف نسيتُه، **ثمّ قالت بنبرةٍ هادئة وكأنّها لم تكُن غاضبة قبل لحظات:**

- على رسلك يا بُني، ولا تخف فلن أوبّخك مثل ما فعلتُ مع كوكي، ستجدُ حُجرة السّيدة عند الحائط في نهاية الممرّ، وإذا ما أردت منّي مرافقتك إلى هناك؛ فإنّني سأفعل ذلك يا عزيز والدتِك!

شعرتُ بخجلٍ بالغ، فكيف علِمت بأنّني قد خِفتُ لسانها السّليط، **فقلتُ بنبرة لطيفة:**

- كلّا يا سيّدة آرنستينا لا حاجة لذلك، شكرًا جزيلًا لكِ!

وما إن أدرتُ ظهري وأكملتُ طريقي حتّى عادت تصرخ بغلاظة من جديد، وتضرِبُ كلتا قدميها على الأرض **قائلة:**

- وا أسفـاه! لقد احترقت كعكةُ السّيدة الحزينة، الويلُ لَكُنّ، الويل!

تلاشى صراخ تلك الخادمة عندما وصلتُ إلى حُجرة السّيدة لورين، فطرقتُ الباب ثلاث طرقاتٍ مُتتالية، وما إن سمعتُ صوتها الأنثوي الحنون يأذن لي بالدّخول حتّى فتحتُ الباب وولجت، ثمّ أغلقتُه خلفي!

كان قلبي يخفِقُ بقوة، لستُ أعلم السّر خلف ذلك! أتراهُ لأنّني لم أنفرد بها منذ أمدٍ بعيد؟ أم خِشيةً من عدم تصديقها بأنّ مارتن كريستوفر قد عاد إليها مُجدّدًا، بعد أن ظنّ الجميع بأنّهُ قد هلك؟

نفضتُ هذه التساؤلات عن ذهني فليس هذا وقت التّفكير، وتقدّمت نحوها حيث كانت تقِف بالقربِ من النّافذة، وتُمسِك كوب شاي بيدها اليمنى وفي اليد الأخرى وردةً حمراء!

أخذت تنظرُ إليّ بعينين لامعتين فاتنتين، فدنوت منها، **وقلت بنبرة مليئة بالألم والحنين إليها:**

- كيف صرتِ الآن؟ آملُ أن تكوني أفضل حالًا ممّا كنتِ عليه ظهيرة اليوم؟

انفرجت شفتيها عن ابتسامة حزينة، **وقالت بمرارة:**

- حمدًا للرّب الودود! ولكنّني أقاوم يا مايكل، نعم أقاوم ذلك الحزن المُضني الذي ما زال يتأجج في أعماقي، قد تراني أَقِف على قدميّ وأطِلُّ من نافذتي إلى الخارج، أحتسي الشّاي، وأُمسِك بهذه الوردة في يدي، كما وأطلب من الخادمات أن يقُمن بإعداد كيكة الشوكولا اللذيذة لأتناولها وتظنُّ بذلك أنّني بخير، صدّقني أنت مُخطئ، فأنا لستُ بخير، ولن أكون كذلك بما أنّني فقدتُ طفلتيّ، آه! إنّ فقدي لهُما يؤلمُني، أشعرُ بأنّهُ لا رغبة لي في الحياة بعدهُما، إنّني.. إنّني لا أستطيع أن أصِف لك ما أشعرُ به الآن ولكنّني مُتعبة، مُتعبة جدًّا يا مايكل!

وبحركة لا إرادية أفلتت يدها كوب الشّاي فسقط بقوّةٍ على الأرضية مُحدِثًا صوتًا عظيمًا، يوحي بتهشُّمهِ إلى قطعٍ صغيرة، فراحت تبكي بُكاءً مريرًا أحسستُ معهُ بألمٍ في قلبي، قربتُ منها وضممتُها إلى صدري، **وقلتُ بنبرة جمعت ما بين الحزن والشّوق المرير:**

- حبيبتي لورين كُفِّي عن البُكاء أرجوكِ، إنّني لا أحتمل أن أراكِ

هكذا، إنّ قلبي يتمزّق فارفُقي بقلبِ حبيبِكِ وعن البكاء هيّا توقّفي!

توقّفَت عن البُكاء ولكنّها ظلّت تختبئ في صدري؛ لذلك رفعتُ رأسها إليّ وصِرتُ أتأمّل تلكما العينين الفاتنتين الغارقتين في حزنها، **وقلت بصوتٍ مختنق:**

ماذا أنسيتني؟ أنا مارتن، مارتن كريستوفر خطيبُكِ وحبيبَ قلبُكِ، أرجوكِ قولي بأنّكِ ما زلتِ تتذكّرينني!

دفعتني إلى الخلف، **وقالت بعدم تصديق:**

- أنتَ كاذِب! فمارتن قد مات منذُ زمنٍ بعيد، ثمّ إنّ هذه الملامح ليست بملامحه، فلا زلتُ أذكرهُ جيّدًا، أنت خبيث ومخُادع! هيّا ارحل من هنا، وإلاّ فإنّني سأصرخ وأفتضِح أمرك أمام الجميع؛ حينها لن تسلم البتّة شرّ صديقك، أيّها الخائن!

أمسكتها بكلتا يديها، **وقلت بصوتٍ مُرتجف:**

- اهدأي يا لورين أرجوكِ! إنّ الأمر ليس كما تظُنّين، من الطبيعي ألاّ تصدّقيني؛ ما دام هذا القناع القذر يُخفي ملامحي، أرجوكِ أمهِليني بعض الوقت لأُزيله!

حدّقت في وجهي للحظات، **ثمّ قالت على مضض:**

- حسنًا، أرني ماذا ستفعل!

أسرعتُ باتجاه المغسلة وشرعت بغسل القناع الذي ساعدني

على وضعه صديقي دانيل لكي أتمكّن من خداع چايدن والوصول إلى لورين، وما إن انتهيت من إزالته؛ حتّى تناولت فوطة قطنية نشّفتُ به وجهي وخرجت حيث كانت تقف لورين التي أخذت تتطلّع إليّ بذهولٍ شديد!

اقتربتُ منها مُبتسِمًا ثمّ قلت:

- هل صدّقتني الآن؟ أم أنّكِ تريدين منّي أن أُريكِ تلك العلامات العميقة التي خلّفها حديدُ الشاحنة على ظهري عندما كنت أُحاوِل إخراجكِ من تحتها قبل أن تسيرَ وتُقطّعكِ إلى أشلاء؟

تحسّست وجنتيّ بكلتا يديها، وابتسمت بعُمق تلك الابتسامة التي كنتُ قد افتقدتُها خلال السنين الماضية، **ثمّ قالت:**

- يا إلهي**!** لا أكاد أن أُصدّق ما أرى، لازِلتُ أذكُر هذه الملامح جيّدًا، بلى أنت حبيبي مارتن، ولكن لِمَ قالوا بأنّك قد بتّ ضحيّة من ضحايا حادثة غرق السّفينة الكئيبة التي كانت متوجّهة إلى أستراليا؟

كفكفتُ بأطراف أصابعي الدّمع عن عينيها الجميلتين، **ثمّ قلت بمرارة:**

- حبيبتي لورين، صحيح أنّني كنتُ على متن تلك السّفينة عندما اعترتها العاصفة الرعدية القوية، ولكن هذا لا يعني أن أكون بالضرورة أحد ضحاياها، كما أنّني أُجيد السّباحة أم أنكِ نسيتِ

هذا؟ لا أعلم كيف غاب أمر كهذا عن ذهنكِ عندما بلغكِ نبأُ وفاتي، ولكن في نهاية المطاف لم يُنقذني شيء سوى عناية الرّب، فقد كاد ذاك المُجرم أن يُجهز عليّ!

سألت وقد خيّمت علامات الخوف على وجهها:

- من تقصد بذلك المُجرم؟ ثمّ ما الذي فعله حتّى يتخلّص منك؟ بل ما الذي فعلته أنت له كي يحاول قتلك؟

ضحِكتُ ضحكةً قصيرة، وقُلت مُمازحًا:

- سأُجيب عن كُل تساؤلاتكِ، ولكن رويدًا رويدًا أيّتُها الفضولية!

ابتسمت ببراءة ووضعت رأسها على صدري، **فمضيتُ قائلًا:**

- أتعلمين يا حلوتي بأنّني كنتُ أسعى آنذاك للنجاةِ من أجلكِ، نعم من أجل أن ألقاكِ مُجدّدًا، لقد كُنتِ الأمل الذي يدفعني للعيش وما زلتِ، أذكرُ أنّني قد سبحتُ حينها بكُل ما أوتيت من قوّة باحثًا عن مكانٍ يعصمُني من الماء، وما إن وجدتُ ذلك المكان وأكملت السّباحة نحوهُ؛ حتّى سمِعتُ صُراخَ شخص يطلبُ النّجدة، لم يكُن الصّوت غريبًا، وعندما التفتُّ لأتبيّن صاحبه؛ تفاجأت بأنّهُ چايدن! فعجِبت لهذا، فهو يُجيد السّباحة أكثر منّي فكيف يطلب العون الآن!

فكّرت أنّهُ ربّما كان يتألم من شيءٍ ما لذلك لم يستطع أن يشُقّ طريقه نحو ذاك الميناء الذي كان يظهر واضحًا جليًّا أمامنا فلم أتردّد

في العودة لمُساعدته، وما إن اقتربت منه ووضعت يدهُ حول رقبتي وأمسكتهُ جيّدًا لئلا تجرّه الأمواج المتلاطمة؛ حتّى أمسك رأسي بعُنف وأدخلهُ في الماء، حاولت ساعتها مقاومته لكنّني ما استطعت...

آهٍ يا لورين! إنّ كلماته التي صار يردّدها في تلك اللحظة لا تزال عالقة في ذاكرتي، لهذا السّبب قرّرتُ أن أقتصّ منهُ بهذه الطريقة، إذ إنّني أبغي أن أُشعِره بأنّهُ هو المُغفل الساذج الذي يمنح ثقته المُطلقة لكل من حوله، أجل سأجعلهُ يشعُر بما شعرتُ بِهِ حينها!

رفعَت لورين رأسها من على صدري، **وقالت بفضول:**

- ولكنّك ما قلتَ لي تلك الكلمات؟!

سِرتُ باتجاه النّافذة، **وقلتُ بألم:**

- لقد كان ذاك الخبيث يضحكُ عاليًا ويقول: "**هذه نهاية كُلّ شخص أخرق، مُغفّل، ساذج، طيّب القلب مثلُك، إنّ الثقة العمياء في زمنٍ كهذا هلاك، بل هلاكٌ كبيرٌ أيُّها البائس ...**"

تلاشى صوتهُ بعد ذلك؛ إذ كنتُ قد فقدت الوعي تمامًا، ولكن لطف الرّب اللطيف أحاطني عندما أرسل إليّ السيّد مادلين الذي كان قد شاهد غدر چايدن بي من بعيد!

فقد كان حينها - أقصد السيّد مادلين - يستندُ إلى لوحٍ خشبي محاولًا التقاط أنفاسه ليعاود السّباحة؛ ولكنّهُ سُرعان ما هبّ لنجدتي عندما رأى أنّني في خطر، لقد فعل هذا دون أن يُشعِر ذاك المُجرم بأيّ

شيء، ومنذ تلك اللحظة؛ وأنا مدينٌ لهذا الرّجل العظيم الذي انتشلني من أعماق البحر قبل أن ألفُظَ أنفاسي الأخيرة!

خطَت لورين عدّة خطوات نحوي، ثمّ وضعت كفيّها على كتفيّ من الخلف، **وهي تقول بنبرة حزينة:**

- حبيبي مارتن أنا آسفةٌ لأجلك! كما وأُدين لنفسي بالاعتذار، أجل لقد ظلمتُ نفسي بزواجي من قاتلٍ غدّارٍ لا رحمة في قلبه بتاتًا، آهٍ كم أنا غبيّة!

استدرتُ نحوها، ثمّ قلتُ عندما وضعتُ خلف أُذنِها خُصلةً من خُصلات شعرها التي قد انسدلت على وجهها:

- لا تلومي نفسكِ يا حلوتي، فأنتِ لستِ مُذنبة كما أنّكِ ما كنتِ على علمٍ بنواياه الخبيثة، لورين إنّ لكِ قلبًا نقيًّا صادقًا استغلّهُ ذاك الحقير اللعين!

نظرتُ إلى عينيها بحُب، ثمّ مددتُ يدي إليها **قائلًا بحزم:**

- هيّا يا حبيبتي دعينا نهرب من هذا المكان الآن، أخشى أن يأتي المُجرم ويكتشفَ أمري، فلا تنسي بأنّني أزلتُ القناع عن وجهي، هيّا دعينا نرحل إلى مكانٍ بعيدٍ عن شرّ هذا السّفاح الخبيث ونعيشُ معًا إلى الأبد، أعتقد أنّ إجهازي على الطفلتين قد أنهى كُلّ شيء يربِطُكِ به، أمّا هو فسوف أتركهُ للمسكينة إيميليا حتّى تُشبع رغبتها في الانتقام منه!

كانت لورين ترمقني بنظراتٍ مليئةٍ بالحُزن عندما وضعت يدها في يدي، **وقالت:**

- ولكن ما ذنبُ طفلتيّ يا مارتن؟ كان بوسعنا أخذهما للعيش معنا! لِمَ فعلتَ هذا يا مارتن؟ لقد آلمت قلبي!

أرقيتُ يدها إليّ وقبّلتُها، **ثمّ قلت بنبرة مُرتجِفة:**

- أرجوكِ يا لوري اِغفِري لي ما فعلت فقد أردت أن أقتصّ لنفسي من ذاك السّفاك، كما أنّني لن أحتمِلَ أن تعيش معنا طفلتين قد أنجبتيهما من رجُلٍ غيري، أرجوكِ يا أميرتي الحسناء دعينا نُغادِر الآن قبل أن يكتشِفُنا أحدهم!

قالت لورين بنبرة قلقة:

- ولكن.. لكن كيف يمُكِننا الفِرار والخادمات جميعهُنّ يعملن في المطبخ؟! أخشى أن تُبصِركَ إحداهُن معي فتحسب أنّك رجلٌ غريبٌ ينوي بي سوءًا، حينها لن تتردّ في إخبار چايدن بهذا إذا ما سأل عنّي!

أطرقتُ أقلّب الأمر في رأسي، وما هي سوى لحظات قليلة حتّى **قلت بنبرة المُنتصر** الذي وجد حلًّا للخروج من مأزقه:

- الباب الخلفي، نعم سنغادر من هناك، أمّا بالنسبة للحارس فوستر فسوف نلعبُ معهُ لعبة بسيطة، إذ عليكِ أن تدخُلي إلى حجرته بحُجّة أنّكِ تودّين التحدّث إليه بشأن من دخل القصر اليوم

ومن خرج منه، وأنا سأستغلُّ ذلك بالخروج من البوابة، ثمّ أخبريه عقِب خمس دقائق بأنّكِ تودّين الطّلوع حتّى تُرفّهي عن نفسكِ قليلًا، وسأكون بانتظاركِ في نهاية الشّارع وسوف نلتقي هناك، اتفقنا؟

***

صرخاتٌ لن تنتهي!

وقبل أن نشرع بتنفيذ خطّة الهروب فُتِح باب الحُجرة بقوّة وارتطمَ بالحائطِ خلفه مُحدِثًا صوتًا فظيعًا عمّ أرجاء المكان!

كان چايدن هو الشّخص المسؤول عن إحداث هذه الضّجة، لم يدلف إلى الحُجرة مُباشرة، بل بقي واقفًا في مكانه وهو ينقل عينيه اللتين ينبعِثُ منهما الغضب بيني وبين لورين التي سريعًا ما اختبأت خلفي عندما شاهدت نظراتهُ المُرعبة!

وما هي إلاّ دقائق حتّى تقدّم ناحيتنا بخطوات مُتسارعة وهو يجلجل بأعلى مستوى من مستويات صوتهِ **قائلًا:**

- أيُّها الخائن الحقير! كيف تجرّأت على خداعي، وكيف ولجت إلى قصري بهذه الطّريقة الخبيثة كيف؟ لماذا لم تمُت؟ كيف حدث هذا؟ أنا مُتأكّدٌ من أنّك قد فارقت الدنيا؟

لماذا عُدت مُجدّدًا؟ لن أدعكَ تُفسِد حياتي وتأخذ منّي حبيبتي، نعم لن أدعكَ تفعلُ ذلك!

فلو لم أتلقَّ تلك الرّسالة قبل قليل من صديقي مايكل لكنتُ مغفّلًا نائمًا على أذني، ولكنّ أمرك قد افتضِح الآن يا هذا، كما أنّ رجال

الشّرطة في طريقهم إلى هنا حتّى يحمِلوك ويزجّو بكَ في سجونهم المُظلمة إلى الأبد، إنّك أحمق أوَ لَم تفكّر قبل أن تنتحل شخصية مايكل بأنّهُ قد يبعث إليّ ببرقية تفتضح جلّ أمرِك في أيّ لحظة!

صمتُّ قليلًا، ولكن سُرعان ما كسرت صمتي عندما ضحِكتُ ضِحكةً عالية، **ثمّ قلت ببرود:**

- حسنًا! إلى حين وصولهم دعني أُخبِرك بأنّكَ كنت ساذجًا جدًّا، يا لك من مغفل! لا أعلم كيف انطلت عليك الحيلة وصدّقت بأنّني مايكل، أعتقد بأنّك ما كنت ستفيق من غبائك لو لم يرسل إليك ذاك الصّديق القذر برسالة، أتعلمُ ما المُضحكُ في الأمر يا عزيز قلبي؟

المُضحِك أنّني كِدتُ أكشِفُ نفسي عدّة مرات، ومع ذلك لم تلحظ أنت أيّة شيء! يبدو أن النّوم على أُذنِك قد أعجبكَ كثيرًا، إنّكَ غبي من نوع فريد، نعم غبي حقًّا!

انفجرت ضاحكًا، **ثمّ استطردت:**

- نعم يا مغفّل يا مسكين! لقد أخطأتُ بإحضار تلك القطّة إلى منزلك، فظننتُ حينها بأنّك سوف تسألُني عن السّر خلف محبتي المُفاجئة للقطط، ولكنّك كنتَ أبلهًا ولم تلحظ أيّة شيء من هذا، كما أنّني مُندهشٌ جدًّا! كيف صدّقت ذلك السبب الذي ألّفتهُ لك حول ذهابي للطبيب وتحسّن شهيتي لتناول الطّعام، لم أتوقّع

حقيقةً بأنّهُ يُمكِن لأيّ شخص أن يخدعك بهذه السّهولة...

اقتربتُ منه وتفرّست في وجهه، **ثم تابعت:**

- أضف إلى ذلك لوحة الصّرخة للفنان مونش، تلك اللوحة التي كادت أن تكشِفَ عن خطّتي، إنّ وقوفي المُفاجئ عندها لم يكُن محضُ تمثيل لخداعك، بل إنّني توقفتُ مدهوشًا عندما أدركتُ بأنّ لورين ما زالت تحتِفظُ بهديّتي لها في يوم ميلادها وتُعلّقها في ممّر القصر، حينها أبحرتُ في ذكرى اليوم الذي طلبت منّي فيه أن أزوّدها بتحليلٍ شاملٍ للوحة وبشكلٍ تلقائي صار لساني يُردّد الكلمات التي وصفتُ بها اللوحة لها: **"المكانُ مُخيفٌ من حولهِ، ألوانهُ مُرعبه، سماؤهُ مدميه، والأقسى من هذا وذاك صرختهُ المُدوّية"**

حينها جاءت خادِمتك واصطحبتني إليك، وعندما سألتني أنتَ عن سبب توقّفي لم يكُن لديّ خيارٌ آخر سوى أن أقول لك بأنّ لوحةً في الممرّ استوقفتني، ولكن ما أشعرني بأنّني في ورطةٍ حقيقية ساعتها سؤالك لي: **"أيّ لوحةٍ تقصِد؟"** فقد خشيتُ حينها أن أُسهِبَ في شرح تفاصيل اللوحة وتكتشِف بذلك لعبتي، ولا سيما أنّك تعلم بأنّ صديقك مايكل لا يُجيد البتّة وصف اللوحات الفنيّة!

صحيحٌ أنّني تظاهرتُ حينها بعدم الفهم، كما وحاولتُ إنقاص بعض الدلالات التي تُشير إليها اللوحة بما في ذلك القصّة التي رُسِمت

بناءً عليها، ولكنّني لم أتمكّن من إخفاء تلك النّبرة التي توحي بأنّني متخصّص مُحترِف في هذا المجال، ومع ذلك كُلّه كنت مُستمِرًا في النّوم على أُذنِك القذرة ..!

وما إن أطلقتُ ضِحكة ساخرة حتّى وضع يديه حول رقبتي **وهو يقول بسخط:**

- كيف عرفت كُل تلك المعلومات عن مايكل؟ كيف عرفت ما يُحب ويكره؟ كيف نجوت من الغرق؟ أنا واثقٌ بموتك فكيف حدث هذا؟

أبعدتُ يدهُ عنّي بعنف، **ثمّ قلتُ بصوتٍ حادّ:**

- أتظنُّ أنّك ستُجهِز عليّ هذه المرة، كلّا لن يكون لك هذا إطلاقًا أيُّها الوغد!

دفعتهُ بقوّة إلى الحائط وبحركة سريعة أخرجتُ مُسدّسي الذي كنتُ قد أخفيتهُ في الجيب الداخلي لمعطفي وثبّتهُ على جبينهِ، **ثم قلتُ بنبرة غاضبة:**

- لقد شهِدَ على محاولتك البائسة لقتلي السيّد مادلين، نعم السيّد مادلين هو الذي انتشلني من أعماق البحر قبل أن أُدفنَ فيه كما أردت أنتَ لي، لقد كنتُ فاقدًا للوعي فحسب في الوقت الذي ظننتَ فيه بأنّني قد مِت! بعد ذلك أزمعتُ أن أشُقّ طريقي للانتقام منكَ أيّها الغدار، فتوجّهتُ حينها إلى جميع أصدقاء مايكل المُقرّبين

ومعارفه وحصلتُ منهم على معلوماتٍ كافيةٍ عن شخصيّته، فكان كل ما سألني أحدهُم عن سبب سؤالي هذا أجبتهُ بأنّني أرغبُ في ترشيحه للفوز بمُسابقةٍ ما!

كنتُ أشعر بتأنيب الضّمير عندما تنطلي عليهم كذبتي، فلم أكُن في حياتي مُخادِعًا ولاغدّارًا يتلاعبُ مع أصحاب القلوب الطّاهرة النّقية، ولكن ما رأيتهُ منك كان كفيلًا لأن يجعلني بهذه الصّورة البشعة فلم أعُد أأمنُ لأحدهم البتّة، كما أنّني قد ودّعتُ شخصية مارتن الساذجة الحمقاء المُغفلة، وخيرُ دليلٍ على ذلك أنّني أنهيتُ حياةَ طفلتيك هذا اليوم..!

قال بصوتٍ مُختنِق ومذعور وهو ينظر بخوف إلى المُسدّس المُستقِر على جبينه:

- أيُّها الحقير وما شأن الطّفلتين في .. في.. ما... ما بيننا حتّى تقتلهُما!

تجاهلتُ ما قاله، **وأكملتُ بنبرة مستفِزّة:**

- ولكن عليكَ أن تشكُرني وتُقبّل يديّ وليس يديّ فحسب، بل وقدميّ أيضًا؛ إذ لم أغمِس رأسيهما في الماء وأتركهُما تتعذّبان كما فعلتَ أنتَ معي، فكل ما فعلتُه أنّني أهديتُهما بودرة الهيدروسيانيد على أنّها حلوى سحريّة تنقلهما إلى بلاد العجائب إذا ما تناولتاها، كان ذلك عندما طلبتا منّي أن أتسلّق الشجرة وأُنزِل إليهما كرة

ناروتو، أجل لقد قلتُ لهما: "**صغيرتيّ إذا ما حصل أيّةُ ضررٍ للكرة؛ فبإمكانِكُما أن تتناولا مسحوق الحلوى اللذيذ؛ لتستطيعا إحضار كرة جديدة وجميلة لناروتو، طبعًا هذا حتّى لا يغضب**".

ولكنّني أكّدتُ عليهما بأن تكتُبا رسالة إليكما قبل أن تتناولاها – أعني البودرة – كما وطمأنتهُما بقولي أنّ بوسعهما العودة إلى الحياة الدنيا بعد أن يُحضِرا تلك الكرة، لقد كانت خطّتي منذ البداية مُتمثّلة في إعطاء البودرة لتلكُما الطفلتين على أنّها حلوى لذيذة تستطيعان من خلالها التّجول في عوالمٍ جميلة مليئة بالعديد من الهدايا والألعاب، ولكنّ المُصادفة قادت لي تلك الكرة بحيث استعملتُها في إقناع الطفلتين بأمر الحلوى، كما أن تعلّقهما الشديد بناروتو قد سهّل عليّ الأمر تمامًا، صحيحٌ أنّني لم أكن واثقًا من أنّ الكرة ستتلف فوق الشّجرة؛ إلاّ أنّ المُصادفة قد جلبت لي مرّةً أخرى شيئًا رائعًا، وهو إتلاف الخادمة دوليريس لكرة الطفلتين، لقد سهّلت عليّ المُهمة عندما قامت بعملِ ذلك، إذ إنّني كنتُ قد خطّطتُ سلفًا أن أتسلّل إلى حُجرة الفتاتين عندما ينام الجميع وأُفسِد تلك الكرة، ومن ثمّ أتّجه حيث ترقُد لورين وأختطِفُها، فقد علِمتُ بأنّكَ تُحبّذ النوم في حجرتك الواقعة في الطّابق الثالث، ممّا جعلني أشعرُ بأنّ مُهمّتي ستغدو أكثر سهولة ويُسر، أجل قرّرتُ أن أرحلَ بصُحبة لورين، وأدعُك تعتصِرُ ألمًا عندما تستفيق وتُصعق بأنّ زوجتك قد اختفت وطفلتيكَ قد أصبحتا في عدادِ الموتى، فممّا لا شكّ فيه أنّ الطفلتين كانتا ستستيقظان وتجِدان أنّ كُرتهما قد

أُتلِفت، وبالتّالي فإنّهُما سوف تتناولان الحلوى لكي تجلُبا كرةً أخرى من ذلك العالم السحري ...

شددتهُ مع شعرِه والمُسدّس لا يزال مُستقرًّا على جبينه، فأنهيتُ حديثي، **قائلًا بنبرة حادّة تمتازُ غضبًا وألمًا:**

- لقد أردتُكَ أن تصرُخ صُراخًا طويلًا، صُراخًا يتردّد صداهُ بلا نهاية، تمامًا كما حدث معي أنا والرّسام إدفارد مونش!

أردتُكَ أن تشعُر بما كُنّا نشعرُ به نحنُ الاثنين، أردتُ أن أدعكَ تُجرّب ذلك الحُلم المُخيف الذي تكون فيهِ ما بينَ حقيقةٍ وخيال، فأنتَ أنت وفي ذاتِ الوقت لستَ بأنت، أردتُكَ أن تشعُر بأنّ المكان الذي تقِفُ فيه ليس بمكانِك، أردتُكَ أن تصرُخ وتظلُّ تصرُخ إلى أن تفنى، أردتُ لصرخاتِكَ ألاّ تنتهي، ولكن يبدو أنّ أُمنيتي بذلك لن تتحقّق! أتعلمُ لماذا؟

لأنّني سأضطرُّ للقضاءِ عليكَ هذهِ اللحظة!

الحقيقة أنّني لم أُرِد قتلكَ، كنتُ سأدعُ إيميليا تتولّى ذلك، ولكن يبدو أنّكَ ستقِفُ عائقًا في سبيل هروبي مع عشيقتي لورين لذلك سأُنهي حياتُكَ حالًا!

الآن فقط سأقتصُّ لتلك المسكينة إيميليا، وسأقتصُّ لنفسي وللورين أيضًا، كما أنّ اقتصاصي هذا سيكون من أجل طفلتيكَ البائِستين اللّتين غدتا ضحيّتين من ضحايا الانتقام، سأقتصُّ لهما منك فأنت السّببُ

الأعظم في موتهما!

كانت الدّموع قد غطّت وجهه ومع ذلك لم أُشفِق عليه، بل إنّ منظرهُ البائِس قد زاد من حماستي، ظلّ ينظرُ إليّ مستسلِمًا بعينين واهنتين بينما **قال بصوتٍ مُحشرج:**

- لورين يا زوجتي الحنونة، سامحيني أرجوكِ، أُحبكِ جدًا و...

أنهيتُ حياته بثلاث طلقاتٍ متتالية في دماغه قبل أن يُتمّ جملته، وما إن سقطَ جُثّةً هامِدة أمامي، حتّى أدخلتُ السّلاح في جيبِ معطفي، والتفتُّ باتجاه لورين التي كانت جاثية على رُكبتيها مُطرِقة والدّموع تفيض من عينيها، فدنوتُ منها ورفعتُ رأسها إليّ **وأنا أقول بنبرة حازمة:**

- هيّا انهضي! علينا أن نهرُب قبل أن يصِل رِجالُ الشّرطة!

فما كان أمامها إلاّ أن نفّذت ما طلبتهُ منها!

خرجنا من الحجرة ونحنُ نركُض بسُرعة، وما إن أدركنا الباب الزُّجاجي للقصر وفتحناه، حتّى ظهرَ في وجهينا مباشرةً الكولونيل ريتشارد وخلفهُ مجموعة كبيرة من رجال الشّرطة، **فقال بصوتٍ هادئ جدًّا:**

- لا يُمكِنُك المُقاومة، فقد وقعتَ في يدِ العدالة!

ربّـاه، يبدو أنّ صرخاتي لم ولن تنتهي!...

***

فهرس

الإهـداء ٥

حنينٌ للأصدقاء.. ٦

الضحك الهيستيري.. ١٠

قطّةٌ بيضاء في شارعِ القطط السّوداء.. ١٦

الحارس فوستر ٢٠

التقاء الصّديقين ٣٢

ما المعنى المُختبئ خلفها؟ ٤٠

رائحة الطّعام لا تُغني عن تناوله ٤٤

لقد وقعتُ في حُبّها ٤٩

ولكنّهُ لم يكُن يتنفّس!.. ٥٨

چايدن يرفض طرد إيميليا.. ٦٩

عودة لورين.. ٨٠

رسالة من إدوارد ٩١

هل كان أحدهم يتنصَّت علينا؟.. ١١١

سأجعلهُ يشعر بما شعرَ به والدي.. ١١٩

سأمُدُّ يدي إليكَ بطريقةٍ أُخرى ١٤٠

سرقها.. أم قتل صاحبها؟ ١٤٨
كيف نسيتُ ذلك؟ ١٥٢
فضول الحارس فوستر.. ١٥٩
أشتمُّ رائحة الموت!.. ١٦٤
زرقة الموج وسواد الليل.. ١٧٠
وهل تموت الدُمى حُزنًا؟ ١٨٦
ما سِرُّ بُكاء الطفلتين؟!.. ١٩١
سأُشعِل النّار في قلبُكِ ٢٠٥
أتراها مُهتمة لأمر طفلتيها؟.. ٢٠٩
صديقي يتلذّذُ بفكرة القتل!.. ٢١٣
دعني أقتُلها إنّها إمّعة!.. ٢٢٣
كلارا وكلير فارقتا الحياة ٢٢٩
ما بين الثانية عشرة والرُّبع والثانية عشرة والنّصف!............................ ٢٣٥
السيّدة أماندا أم الخادمة دوليريس؟.. ٢٤٤
كانت في حُجرة الطّفلتين! ٢٥٥
رسالةٌ أخرى إلى چايدن!.. ٢٦١
وسنلتقي هُناك.. اتفقنا؟.. ٢٦٥
صرخاتٌ لن تنتهي!.. ٢٧٦